





FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



02-BX118

9-12-02

DT
156.5
S23
1948

الأميرة طوكت السوكتانية

في

الفرز التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد صبري

الطبعة الأولى

مطبعة النهضة
١٠ شارع نواكشا (ساحة شارع النواكشا)

١٩٤٨

971, 43
1. 300

47494

مقدمة

موضوع الكتاب يبدو في عنوانه (الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر) وقد يتساءل البعض هل كانت امبراطورية حقا وهو ما بيناه وأثبتناه بالأدلة التاريخية والجغرافية . وللموضوع اتصال وشيخ بتطور أفريقيا في القرن التاسع عشر وسياسة الاستعمار والتقسيم التي جرت عليها أوروبا . ومن هنا تبدو وعورة الموضوع وتشعبه واشتباك الخيوط السياسية والمصالح المختلفة في جميع أجزائه ونواحيه .

أما طريقة الكتاب ومعالجة الموضوع فهي بصفة عامة الإيجاز مع الوضوح وتركيز الوقائع وقد تجنبنا الأسهاب في بعض النقط كتاريخ القبائل السودانية وتاريخ السودان في عهد محمد علي وسعيد لأن هذه النقط مفصلة في كتاب نعوم شقير وفي غيره من الكتب ولأننا نعني بالناحية السياسية قبل كل شيء وهذه الناحية قد أبرزناها في عصر اسماعيل وما بعده . وقد استعملنا في طريقة العرض والبناء طرقا تختلف باختلاف الفصول فمثلا في الفصل الخاص بالثورة المهدية والسودان من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٨ جرينا على طريقة ركم الأدلة وترك الوقائع تتكلم من نفسها . كما أننا لم نفرّد فصلا خاصا للرقيق ولكننا تكلمنا عنه في جميع الفصول لأن الرقيق متصل بجميع كليات الموضوع وجزئياته وتشعباته الكثيرة السياسية والاقتصادية في أجزاء الامبراطورية السودانية وفي أفريقيا . وعلى الرغم من الدراسات والكتابات الكثيرة التي تعرضت للرقيق فإن الغموض كان يكتشفه فكان لابد من السيطرة عليه وإزاحة الظلمة العالقة بنواحيه ...

وقد كنا أصدرنا بالفرنسية في سنة ١٩٣٠ تاريخ (الامبراطورية

المصرية في عهد محمد علي) وفي سنة ١٩٣٣ تاريخ (الامبراطورية المصرية في عهد اسماعيل) . وبفضل رعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول أمكننا الرجوع الى وثائق محفوظات سراى عابدين لغاية سنة ١٨٨٢ تقريبا . أما في أوروبا فقد رجعنا في فينا الى الوثائق الخاصة بعصر محمد علي . وفي باريس الى وثائق وزارة الخارجية لغاية سنة ١٨٧٠ . وفي لندرة لغاية سنة ١٨٨٩ لأن المحفوظات الانجليزية كان من الميسور للباحثين في ذلك الوقت الاطلاع عليها لغاية سنة ١٨٨٥ فقط (أى قبل خمسين سنة) ولكن وزارة الخارجية الانجليزية تفضلت بصفة خاصة وأضافت خمسة أعوام جديدة فكانت هذه يد كبرى لها .

وفي هذين الكتابين كنا استغللنا لغاية سنة ١٨٧٩ الوثائق التي استخرجناها . وكنا شرعنا في اعداد الكتاب الثالث . في هذه الآونة بالذات تحركت المسألة المصرية السودانية بعنف وراى مصر أن تلجأ الى مجلس الأمن ورأى صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا أن ينوط بى كتابة بحث في تاريخ السودان فصدعت بالأمر خصوصا وأن الوثائق وأداة البحث كانت معدة . وكنت سعيدا بحمل هذه المهمة لأن المسألة ليست مسألة وطنية فحسب بل هى أكثر من ذلك ، هى أمانة علمية قبل كل شئ ، هى اظهار حقائق علمية حاول الكثيرون طمسها وتشويهها .

وليس أدل على عدم عناية المصريين بتاريخ بلادهم العناية الكافية ولهم العذر كله أو بعضه من أن أحد كبار نوابنا أدلى حديثا بتصريحات عن أوغندة مملوءة بالأخطاء . وذكرت احدى صحفنا الكبرى الخطأ الحديدي الذى أنشأه الانجليز بين موباسا وبحيرة فكتوريا وأثره في المشروعات الصناعية الكبرى في هذه المنطقة دون أن تشير الى أن هذا الخطأ الذى تم انشاؤه في سنة ١٩٠٢ كان في الواقع تنفيذ لمشروع مصرى قديم اذ حاول اسماعيل مرارا أن ينشئ طريق مواصلات منتظمة بين المحيط الهندي والبحيرات وكان هذا الطريق سيمر كالخط الحديث

بين جبلي كينيا وكيليا نجارو وهما من أغنى وأجل جبال أفريقيا الشرقية ، وكان مشروع اسماعيل يرمى الى توطيد نفوذ مصر بصفة دائمة على جانبي الطريق ويجعل منه سورا على حدود امبراطوريته ، ولكن انجلترا وقفت في وجه التوسع المصري مما فصلناه في هذا الكتاب .

وهذه مسألة المستعمرات الايطالية وكلها ، سواء فيما يتعلق بأريتريا أو السومال ، يؤسفني أن أقول أن مذكراتنا الرسمية لا تتم عن دراسة وافية لها وأن أخطاء تنسب اليها أحيانا .

هذا في مصر . أما في السودان فقد نشر بعض الوطنيين من أنصار وحدة الوادي وقائع عن الثورة المهدية وأسبابها بعيدة كل البعد من الحقيقة . مثال ذلك :

« وكان السودان ابان هذه الحوادث التي تجرى في مصر وقبلها استهدف لمظالم شذمة من الحكام الأتراك يحكمونه باسم والى مصر — أذاقت هذه الشذمة الأهلى صنوف العذاب وأثقلت كاهلهم بفرض الضرائب المحضفة التي تفوق الاحتمال والتي لم يكن يصل منها الى الخزينة المصرية شئ ، ولا ينفق منها على تقدم العمران في داخلية السودان شئ وانما كانت نهباً مقسماً بين فاضليها وجامعيها من الحكام الأتراك والباشبوزق وغيرهم — وتفتشت الرشوة بين الجميع ففسدت اداة الحكم وأراد الأهلى لها بديلاً ، وهكذا قد تهيأت الظروف السياسية ، هذا الى جانب العقيدة الدينية المتأصلة في نفوس السودانيين ، ولذا عندما ابتدأت الثورة المهدية في سنة ١٨٨١ وجدت دعوتها مرتعا خصيبا وانتشرت بسرعة فائقة مكنت لها من قلب نظام الحكم وقد وجد الأهلى فيها منقذاً ومغيثاً ومما ساعد على نجاحها أيضاً قيام الثورة العربية بمصر التي كانت تجاوباً جيلاً لها . وقد كانتا من أهم الحركات الوطنية في وادى النيل وقد تشابهتا في الأسباب والأغراض » .

هذه هي النظرية الانجليزية بعينها المتداولة في الكتب الرسمية وغير الرسمية . وقد نلّس أثرها في كتب المؤرخين الأوروبيين جميعاً حتى الموالين

منهم لمصر أمثال ديهيران وغيره من جماعة هانوتو . . .

لذلك عولنا على اصدار هذه الطبعة بلغة البلاد وميزناها على الطبعة الفرنسية باضافة فصول جديدة (كالفصل الخاص بمحدود الامبراطورية الجغرافية) وبالأطلس الذي اعتمدنا في وضعه على أبحاثنا وتحديدنا وتحقيقنا نحن . فساعدنا ذلك على الاهتمام الى نتائج كبرى جديدة حسبها أنها جعلتنا نحن الذين نشغل بالموضوع منذ حوالى ثلاثين عاما نفهمه أكثر من ذي قبل ونفهمه كل الفهم في ضوء وضاح . ويجب أن لا يفوتنا أن نقرر أن مشروع السودان والفصل بين مصر والسودان واحتلال منابع النيل وممالكه ومعظم المشاكل الحديثة يرجع تاريخها الى سبعين أو ثمانين عاما مضت وجميع مقدماتها وأصولها واضحة في تاريخ الامبراطورية السودانية .

ولسنا بحاجة الى القول أننا في دحض الحجج المفرضة لم نخرج عن الأسلوب « الموضوعى » العلمى واجتهدنا قدر المستطاع في الاستناد الى وثائق ومستندات انجليزية - أكثرها لم يسبق نشره - لأن للتاريخ في أعناقنا ذمما لا بد أن تؤيدها . وإذا كان الاعتدال من مميزات الروح السياسية فهو من باب أولى من مميزات الروح التاريخية التى يجب أن تهيمن على نفسها أولا حتى تستطيع أن تهيمن على الموضوع وتلبسه فى يسر .

ولا بأس من أن نقول فى الختام أننا اذا كنا قد أصدرنا كل كتبنا التاريخية أولا بلغة أوربية كالفرنسية مثلا فما ذلك الا لأن هذه اللغة لغة علمية كثيرة التداول ولأن الأمانة العلمية وقوة الحكم والتقدير متوفران عند الأوربيين ولأن مصدر تشويه الحقائق ونشرها شرقا وغربا هو فى أوربا نفسها .

على أننا نعاهد القراء على أن تنشر بالعربية كل ما كتبناه بلغة غير لغتنا حتى نوفي ديننا نحو البلاد . وها نحن أولاء نبدأ بنشر تاريخ الامبراطورية السودانية والله المعين .

الكتاب الأول

الفصل الأول

تمهيد

السودان من محمد علي إلى سعيد

١ - السودان ومصر القديمة :

ان العلاقات بين مصر والسودان كائنة منذ القدم . يقول الأستاذ رايرنر : « ان البلاد التي كان يسميها القدماء (الأراضي الجنوبية) كانت تشمل جميع منطقة السودان المصري عبر الحدود المحددة المسددة شطر أفريقيا الوسطى والشرقية . وتدل النقوش على ان اهل هذه المنطقة كانوا من الرجال الحمر الذين يفتنون بلاد (بيب) الشيرة الواقعة على ساحل الصومال . والرجال السود في البلاد الجنوبية . والنوبيين في وادي النيل . والنوبيين في الصحراء الغربية والدو في الصحراء الشرقية » .

وقد نجح ولاء مصر من أوائل حكم محمد علي (١٨٢١) الى آخر حكم اسماعيل في رد الحدود القديمة الى السودان المصري . وانتشر في عهدهم كما انتشر قديما نفوذ المدنية المصرية في أرجاء تلك « الأراضي الجنوبية » فكان النيل والبحر الأحمر ناقل المدنية الفرعونية تارة والمدنية العربية طورا الى هذه الأقطار . كتب جونسون : « أيا كان الأمر وسواء أكانت

التجارة المصرية أو السيطرة المصرية قد اتصلت أو لم تتصل بطريق مباشر بتلك الأصقاع المحيطة بمنابع النيل فإن نفوذ المدينة المصرية القديمة قد تغلغل في أفريقيا السوداء . وإذا استثنينا بعض النباتات والحيوانات لأليمة التي جلبها البرتغاليون من الراريل أو التجار الآسيويون من الهند فإن بقية الحيوانات والنباتات قد أتت كلها من طريق مصر . ومن مصر أيضا أتى التفكير في صنع القوارب المركبة من ألواح الخشب ، كالقوارب التي يستعملها سكان أوغندا . ورسم الآلات الموسيقية الراقية المجردة من تلك البساطة البدائية التي نجدها في الطبول والبوقات المخددة من قرون بقر الوحش . ولا شك أن أعواد أوغندا هي عين الأعواد التي تبدو صورتها على الآثار المصرية . وما يدعو إلى الدهشة حين نطالع وجوه الباهيا (أرستقراطية حامية السحة مشرفة في غرب أوغندا ، والأوسورو ، وضورو . وفي جنوب الشرقي من بحيرة فكتوريا والشمال الشرقي من بحيرة تانجانيقا) أن نرى وجوها مصرية بحتة في هيئتها وملاعها ولونها الذي لا يكاد أحيانا يتميز بسمته (١) »

٢ - السودان ومصر في السياسة الدولية :

كان محمد علي (١٨١١ - ١٨٤٩) أو نابليون الشرق يريد توطيد الامبراطورية السودانية في حدودها القديمة التاريخية والجغرافية ولكن عمله الذي لم يتحقق كله قد قدر له أن يتم على يد حفيده اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) . وقد كان هذان العاهلان في الوقت نفسه يعملان على تحقيق استقلالهما التام ازاء تركيا من الناحيتين : القانون والواقع . ولكن أوروبا ما كانت بإفالة ، فمنذ سنة ١٨٢٦ في ابان حرب المورة وقد بدأت مصر تلعب بأسطوطها وجيشها دور دولة كبرى أخذ الميامي

(١) هاري جونستون (حماية أوغندا) مجلدان بالانجليزية . انظر الجزء الأول صفحة ٢١٠

المسوى المختل مترنيخ يحذر الدول من « قيام دولة افريقية جديدة »
باعتبارها خطرا طالما أعلن في أوروبا أنه من أجل الأخطار التي
تهددها (١) .

وسواء تحب مصر في توسعها صوب آسا أو صوب أفريقيا
أو صوب الاثنين معا كان لابد لها أن تلقى في كل مكان « قدم المجترة »
— على حد تعبير محمد علي — وأوروبا . وهذا ميسر لنا موقعة
ناواريو (١٨٢٧) التي دمر فيها الأسطول لمصرى على غرة . والألب
الدوى الذي أرغم مصر سنة ١٨٤٠ على استبقاء السادة التركية وترك
امبراطوريتها الأسوية (بلاد العرب . فلسطين . الشام . كليكيا ،
وحزيرة كريد) في تركيا .

(١) بروكش أوستن (تاريخ انحطاط اليونان) في خمسة أجزاء بالالمانية .
انظر الجزء الخامس .

الفصل الثاني

السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٦١

نقد حكم السودان منذ فتحه حكام قادرون مصلحون . أولهم الميرالاي عثمان بك (١٨٢٥ - ١٨٢٦) ولكن هذا الوالي كان طالما فعم الفحط والبلاء البلاد في أيامه وقد مات بداء السل في أبريل سنة ٢٦ . وحسبه أنه أول من جعل الخرطوم مركزا له فنقل إليها أقاليم الحكومة ونحدرن ولاشوان وحارب من ذلك الوقت عاصمة السودان .

وقد خلفه في الولاية محو بك (١٨٢٦) فمى بضعه أشهر وكان رجلا عادلا وهو أول من فكر في اشراك الأهليين أي السودانين في حكومة بلادهم اشراكا فعليا . وقد هدته حصاه وذكاؤه ان الاستعانة برأى الشيخ عبد القادر ود لريين « وكان اذ ذاك شيخ خط فقنده شياخة قسم الكوع وكساد كسوة فاخره » وقد بنى محو بك بناية خاصة للإدارة الحكومية في الخرطوم .

خورشيد باشا (١٨٢٦ - ١٨٣٩) أول حاكم نظم السودان وأسس مدنه الخرطوم وأقام فيها المنشآت وعمل على تعمير البلاد وارجاع السكان الذين هجروها في عهد الدفتردار وعثمان بك . يروى أنه لما حضر واليا على السودان (يونيه ١٨٢٦) اسفله محو بك في أم درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه إليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها أهل الرأي فخذ برأى هذا » ثم توجه الى القاهرة واجار خورشيد باشا النسل الى الخرطوم فعمل بوصيه محو بك وقرب اليه

الشيخ عبد القادر ثم جمع مشايخ البلاد وطلبهم أن يخاروا شيخا ليؤمهم
عهم لديه في تعديل الضرائب فاحاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به
على تعديلها وقنده المشيخة على جميع البلاد من حجر العمل الى حال
القونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

وقد ذهب في بداية ولايته الى سائر وتنفقد أحوالها وما أصاب أهلها
من قحط فجمع هناك مجلسا من رؤساء الادارة ، وقد سجل محضر اجتماع
ذلك المجلس الكبير في ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ (١٢ أغسطس ١٨٢٦) في
تقرير طويل بعث به حورشيد باشا الى محمد علي ، وهذا التقرير (سجلات
القنصل القديمة) يبين عن جميع عيوب الادارة السابقة من اهمال وظلم
في جباية الضرائب وفساد في الادارة وقد كان اقيم سار يبابا بعدما جرده
المحط وخف آهله فلم يبق في ١٤٥ قرية الا ٥٩٩ قطب وكانت الجماعة
والهجرة والولاء قد فعلت فعلها في سكانه ، ولم يكن من الميسور تحصل
الضرائب من قوم مدقعين . وقد قرر المجلس وضع حد لهذه الحال
وتشجيع الزراعة ببناء السواقي لرى الأرض وإيجاد نظام جديد للضرائب
بتناسب مع الحالة العامة ومقدرة كل فرد وباحتمال العمل على نشر الثقة
والطمأنينة حتى يعود المهاجرون وتعود الامور الى مجاريها .

وقد عمل خورشيد منذ سنة ١٨٢٦ على تصفد ذلك البرنامج
الاصلاحي الذي وافق عليه والى مصر وبادر بارسال ١١٨ اخصائي
لتعليم سكان سار والسودان زراعة الأرض كما بادر بارسال رؤساء عمال
لنشر الصناعة ومبادئها وخصوصا صناعة الفخار وبناء السفن .

ومن أجل أعمال خورشيد باشا مشأته بالخرطوم . كانت هذه
المدينة قبل أن يسوطنها المصريون بضع عشش للصيادين مبعثرة بالقرب
من ملتقى النيلين . فعمل فيها الحاكم المصري مركز الادارة العامة
للسودان وأوجد السكن والترسانة والمنازل العامة المشيدة بالآجر والرياض

وحداثى الخضر والفاكهة . وهو أول من اجتذب السكان الى المدينة
وحثهم لأول مرة على بناء منازلهم بالطوب المحفف فى الشمس وكانوا
لا يعرفون قبل ذلك الا البناء بالقش وأعواد الشجر وجلود القر .

وقد حدثت رحلة والى مصر محمد على الى السودان فى أواخر سننى
حكم خورشيد باشا (١٨٣٨ — ١٨٣٩) بعد أن سمع السبعين فكانت رحلة
كلها بمن واسعاد .

نهر وصف هذه الرحلة بالتركة فى وىائع ٦ صفر سنة ١٦٥٥ هـ
(٢١ أبريل سنة ١٩٣٩) . وهذا أهم ما جاء فيه

« بدأ سموه لرحلة فى ١٥ أكتوبر سنة ٣٨ . فبلما الخرطوم
فى ٦ نوفمبر .

« مدنه الخرطوم . العاصمة الحالية لسنار . تقع على درجة ١٦ من
خط لعرض على بعد ربع فرسخ من ملتقى فرعى النيل . ولم تكن من
خمس عشرة سنة حلب الا بمجموعة من عشرة أكواخ « توكول » فلما
رأى خورشيد باشا حسن المكان وطيب هوائه دعا أسرا عديدة من
سنار وبعض عرب الصحراء الى الإقامة فيه وبناء منازلهم . وقد أصبحت
الخرطوم اليوم مدينة مكونة من حمائه بيت مشيد لطريقة نظامية ،
ومسنشى . ومحارن وأشوان كبيرة وحداثى مخنفة ينبت فيها وينضج
فى الشتاء التين والعنب . . .

« (واد مدنى) مدينة عظيمة بسبب السوق التى تقوم فيها كل عام
وتدوم ثلاثة أشهر . وسكانها ثلثائة أسرة جيدة المسكن . وهى كالخرطوم
لها ثكنتها ومستشفاه وشونها .

« و (سار) كانت مقر المثلث فى مملكة سنار القديمة . ومنازلها مبنية
بالآجر وهى فى مجموعها حسنة المنظر .

« غادر سمو الوالى الرصيرص فى ١٠ يناير فوصل الى جبال
فارو على فى الثامن والعشرين منه .

« وينقسم سكان السودان الى ثلاث طبقات : سكان القرى ، والبدو
أو سكان الصحراء ، وسكان الجبال ، وللقرويين والبدو لون نحاسى .
يشبهون الأحباش فى هيئة أجسامهم وملابسهم . وهم مسلمون على
مذهب ابن مالك . أما الجبلون فهم وثنيون يعبدون الأشجار ، وهم من
جهلهم فى ليل لائل لا يكادون يميزون بين الأرض والسماء .

« ومن عاداتهم أنهم عند الغزو تملأ صيحاتهم الخادة . ويرجعون فى
المعارك ، وتصحبهم نساؤهم فى الحروب لخل الماء والراد . وهم يبيعون
أسراهم . ولا يهاجمون فى الليل أحدا . وفى النهار شجعان مغامرون
لا يرحمون . يسرق بعضهم بعضا محاصل الذرة والنساء والأطفال
يتجرون فيها . وقد أعلن سمو الوالى فى كل مكان تحريم الغزوه ...

« ومن فازوغلى ذهب الوالى الى فازانجورو ثم هبط من جبال
فزانجورو فى ٣١ يناير الى السهل حيث يصب خور العادى فى النيل
الأزرق ، وقد اختار هذا الموقع لإنشاء مدينة جديدة .

« وأرض سنار غاية فى الخصب والجودة . . وإن تكن الزراعة فيها
لا تزال مهمة كل الإهمال . وقد توجد فى دمنة بعض الآلات الزراعية ،
ولكن فى البلاد الواقعة فوق هذه المنطقة يكفى الرراع باثارة الأرض
بقطع خشبية غالظه . وقد ورع الوالى مائة فدان من الأرض علاوة على
أجرهم الثابت على المهندسين المصريين الذين اشتغلوا فى ريف مصر
وصعيدها وخرروا الزراعات المختلفة ، وقدم لهم الآلات والحيوانات
الضرورية . ثم ألحق بكل منهم طائفة من شباب كل إقليم سودانى .
ليتعلموا فى كنهم شؤون الزراعة . وأعفاهم من الضرائب خمسة أعوام .
ولاشك أن هذه المزارع النموذجية سيعم نفعها وسيكون أهم ما ينبت
فيها قصب السكر والقطن والنيلة ...

« ثم جمع الوالى بعد ذلك حوله بعض كبار المشايخ وجميع عليهم الخلع
وحضف فيهم ولصحبهم ان يقدوا بالشعوب الأخرى التى كانت موحشة
ثم عذب وانقلب من حالة الحشونة والجهل الى حالة الألس والمعرفة .

« أبهر الوالى فى خطابه فأعلن جميع المشايخ على الفور رغبتهم فى
رسال أسائهم الى مصر . وكان أكثرهم الشيخ عبد القادر لا ولد له
فما عثم أن التمس ارسال ابن أخته .

« وأعلن الوالى حرية تجارة النيلة التى يغزر زرعها فى مديريات
دقنة وبربر وأمر الخاء العام بتقديم الآلات اللازمة وكل ما لا بد منه
لتقدم هذه الزراعة .

ثم قفل راجعا فى ٣٠ ذى القعدة (١١ فبراير) وعاد الى القاهرة فى
١٢ مارس سنة ٣٩ . . . »

أحمد باشا أبو ودان ^(١) (١٨٣٩ — ١٨٤٤) . وطد أحمد باشا

دامس فى ربوع السودان ولطفه الدواوين والاداره وعمل على ترقية
الزراعة والصناعة والتجارة وشجع الملاحة وبني سقا كثيرة كانت نواة
لحرية التجارة فى السودان . ومن أكر ما أثره احلال اقليم الناكه
فى سنة ١٨٤٠ ونوسع الفوجات لمصريه فى السودان الشرقى ، وقد
قصده بحشيه بلاد الخلافة وكانت اقامتهم على نهر الفاش قدانوا له بالطاعة
وأمر عليهم محمد زيله . فما رث فسه هددوه ديت . وهى قساة دت
تس وعدد وشحن على الخلافة ، تمردت عليه وجمعت جموعها شمالا كسلا
فى عابى وهبى والكلتات فحول أحمد باشا مجرى الفاش فعضشوا
وتس لروع والشجر فأسعل سار فى العابن قدعروا فحق بهم وأعمل
فيهم القمل وأسر شبحهم قدانوا له بالطاعة وأحد منهم الجرية .

(١) ذكر نعوم شعير بك فى « تاريخ السودان » ان رحلة محمد على
حدث فى أيام أحمد باشا أبو ودان أى فى المدة من ١٥ كوبر سنة ٣٩
الى ١٤ مارس ١٩٤٠ والحقيقة أنها حدثت فى سنتى ٣٨ و ٣٩ كما ذكرنا .

وعاد أحمد باشا إلى الخرطوم بعد أن وى مدبرا على كسبه ثم أرسل
السكبشي الباس أفندي إلى بني عامر فقاتلهم وأخضعهم وضرب عليهم
الحرية .

وبعد فتح النكة قسم السودان إلى سبع مديريات : فارو على وستار
والخرطوم وكسبه وبربر ودقطة وكردفان .

أحمد باشا المسكي (١٨٤٤ - ١٨٥٥) — قال نعيم شقير أنه
لم يكت الأقبلا بالخرطوم حتى عاد أهل النكة إلى الثورة فحرد جيشا
لمحاربتهم وسار لمصاهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر
والشيخ أحمد أبو سن كسر الشكرية فأمر رؤوس العصاة وعاد بهم إلى
الخرطوم فضرب رفايهم . وفي أواخر سنة ١٩٢٥ عاد إلى مصر ومعه
الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الذين فآكرهما محمد علي وأعجب
بدكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ما كنت أس أن نالدا ليس
فها شيء من أسباب المدن والتهديد كبلاد السودان مخرج منها مثل
هذا الرجل » .

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ - ١٨٥١) — عمل على إصلاح الإدارة
التي اختلت في عهد سلفه خالد باشا فأزال المصاه وشر المدن وهو
الذي جدد ديوان الحكمدارية أو سرايها في الخرطوم فمى إلى الثورة
المهدية وأنشأ مدرسة أميرية برئاسة رفاعة بك الصمصاوى وسومى بك
الذين تقاهما عباس باشا وقلد الشيخ عبد القادر وضعه معون
الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة .

علي باشا شركس (١٨٥٥ - ١٨٥٧) — أهم حوادث ذلك العهد
ثان الأولى انتشار الهواء الأصفر وموت حق كثير منهم الشيخ
عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسار وقد خلقه ابنه الزبير فبقى
في الخرطوم زمانا ثم ذهب إلى مصر فمى معاونا في نظارة الداخله .

والثانية ريادة سعيد باشا للسودان وقد أعلن سعيد باشا رغبته في ترك السودان ولكن السودانيين خشوا مغفلة الترك وعودة القوضى الى البلاد فحاولوا دون تحقيق هذه الفكرة الشائخة واكتفوا بالمطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات العاجلة . وقد أنقص الوالى الصرائب وأنفذ اجراءات كثيرة مطابقة لرغبات السكان وكان من أهم ما قام به تعيين أراكيل بك نوربار حاكما للسودان (١٨٥٧ - ١٨٥٩) ولاشك أن تعيين مسيحي في ذلك المصب دليل على روح التسامح عند الوالى وتقديره لما اشتهر به أراكيل من حزم وعدل وكفاءة في الادارة وتصريف الأمور وقد تجلت هذه الصفات والمواهب حين همت طائفة من السكان بالثورة على هذا التعيين وسرعان ما انقادت له الأحوال واستقرت .

الكتاب الثاني

السودان في عصر اسماعيل

الفصل الثالث

السودان من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٧

كان ابراهيم بيوم بعد ملكك لامراسورة لمصرته في سنة ١٨٤١
ان عظمة مصر الخمسة ومدان توسعها في السودان وكان نوبل باشا
كبير وزراء اسماعيل اول من آمن بهذه الفكرة ووضح الولى منذ كل
فكرة توسعية ناحية الشام على ان تكون مهمة مصر الكبرى وغايتها
الاولى نشر الحضارة في افريقيا .^(١)

حصل اسماعيل هذه الفكرة بحور سنة وقب ربحي فيها
سيما وان مصر كانت دولة افريقية . وعبر حاف ان المصلحة وعدد بها كانت
سائده في القارة السوداء حتى نرب اليها نفوذ العرب والاسلام قل
نزوح الأوربيين اليها بزمن حاملا لواء مدنية عالية .

وقد كان الاحتلال الرومانى بدء اجذب العرب في افريقيا . وفي
أوائل لقرن ثنى الملادى كانت مصر ومراكش وجميع البلاد الواقعة
على الساحل في شمال افريقيا واقعة في قبضة الغراه المسلمين الذين نشروا
في ربوعها حياة جديدة رراعية وتجارية وأدبية وأسسوا دولاقوية وعواصم

(١) مذكرات نوبل باشا المحفوظة في باريس في خزانة الاسرة

حصارة راهية راهرة في القاهرة وقيروان وفاس . وأوغل العرب
الرحون تدريجيا في داخل أفريقيا . في جميع المناطق التي يستطيع أن
يعيش فيها الخيل ويعلم .

رح العرب لرحل من وادي النيل الأعلى أو من سواحل البحر
الاحمر وأوضوا السودان والبلاد التي يسفها مجرى النيجر الأعلى وأسسوا
على ساحل أفريقيا لشرقي مقدشو وقيلوه وبراد ومبلده وموباسه .
ومند الاسلام الى رنجبار وجرء من الحبشة وهرر وبلاد الصومال
وكرديان ودارفور ووداي ودم وسكونه وناجرمه وبلاد أخرى كثيرة .
وكان القود العربي الاسلامي قبل تقسم أفريقيا . في حوالي
سنة ١٨٨٥ ينتشر رويدا في قلب أوغندة والقارة السوداء .

١ - السودان من سنة ١٨٦٣ لغاية ١٨٧٧ :

موسى باشا حمدي (١٨٦٢ - ١٨٦٥) .

كان موسى باشا حاكم السودان وقت ولاية اسماعيل (١٨٦٣) . وقد
كان ذا حيرة طويلة بشؤون البلاد وكان يريد وضع حد لشكاية السكان
وجفوفهم من حراء فداحة الضرائب وعلى الأحص الطريفة العسوف الى
يسمونها البشورق في حياتها وهم جنود السلطة غير لنظاميون وعمها .
وقد أصدر قرارات تحدد مقدار كل صريفة في سجلات الحكومة وسلم
دفعى الضرائب دفاتر أو سراكى يفيد فيها الموظف المختص كل مبلغ يدفع
من أصل المبلغ المورع على ثلاثة أفساط في العام . وعين من السكان
رؤساء ووكلاء مراكز .

جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ - ١٨٧١) :

أعقب جعفر باشا مظهر جعفر باشا صادق الذي كان حاكما للسودان
في سنة ١٨٦٥ . ومن أهم أعماله إنشاء المحاكم والمدارس وتحسين ترساة

الخرطوم . وكانت سياسته في مجموعها سياسة اصلاحية . وهو الذي
أحمد ثورة الجنود في كسلا الى ابدان في عهد حمدي باشا سنة ١٨٦٥ .
وكان كثر عود له في ذلك آدم بك المشهور الذي صار فيما بعد باشا
وقائد الحوش المصريه في السودان .

وآدم باشا عربي سوداني مسقط رأسه في كردفان وفي رويه رنجي
من بدكا . وقد تلقى العلم صغيرا في مصر . وصحب برهيم باشا في
حروبه في الشام . وفيها ظهر شجاعه نادرة وكفاءه ثماره . وقد ذكر
الخدوي اسماعيل كل ذلك لرفيقه أنه مديم فأحرل له من العطاء والرتب
واسمرت بذلك عائد مشاركته السودانيين في الحكم مع المصريين .
وكان في ذلك لوف سوداني آخر . حسين باشا حشمه . حاكما على
مديرتي بربر ودقوله .

اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ - ١٨٧٧)

من سنة ١٨٧١ لغاية ١٨٧٣ كان ممتاز باشا حاكما للسودان . وهو
شركسي عالي القطة محب للاصلاح . وحببه انه أول من أدخل زراعه
القطن المصري في السودان وعنى بصناعاته ولكن تقارير وصلت الى
القاهرة تتهمه بالرشوة فألقى القبض عليه وحقق معه وصل في سجنه
بالخرطوم الى أن مات سنة ١٨٧٥

كان خلفه اسماعيل باشا أيوب أحسن منه حظا . كتب السير
صموئيل سكر في أثناء رحله العوده من السودان في يولييه ١٨٧٣ يقول .
« لقد أدخل اسماعيل باشا محسبات كثره في مدنه الخرطوم . وهو الذي
أكمل بناء مستشفى الحكومة الذي بدأه سلفه ممتاز باشا ، وهو شركسي
مثله . وهو مثله أيضا في قوة دكانه . وبفضل عنايته تحولت أراض
واسعه جرداء الى حديقة عامة تصدح فيها كل مساء الموسيقى العسكرية .
« وفي أيامه أيضا بدأت أعمال الري بواسطة الخارعي لصفه لشاية
من النيل لزراعة القطن .

« وقد قضيت أياما في الخرطوم ثم ودعنا صديقنا لجبل اسماعيل باشا
أيوب وسافرنا إلى مصر في باخرة .

« وقد تركت لاسماعيل باشا علائق سعد وبلال يشتغلان تنشئة
موسفة أو عسكرية . وكاتب الأخرى أقرب إلى مشتهاهم . وكانت في
الخرطوم في ذلك الوقت مدرسة لعلم أذكى الشبان السود الذين يصير
من المسود محريريهم من نجر الرقيق .

وما بلغنا بربر وحدثت لحب صاهرا في حانة البلاد إذ بدأ العرب
في إعداد ساء سوافهم على ضفاف النهر الحصنة . وذلك إحدى نتائج
صلاح حكيم قام به الخديوي . وهو قسم السودان إلى مديريات بحكم
كل مديرية مدير مسئول لا يخضع تحت للحاكم العام الذي كان يقيم في بلد
قصى كالخرطوم (١) .

وكتب مسو حطير . مدير الرق بالخرطوم . يقول :

« لقد عاد اسماعيل باشا أيوب من دارفور من شهر مضى بعد غيبة
عامين . وقد كان استقاله عظيما . وهو محبوب جدا في جميع البلاد
التي لحكمها بحرم وعدل . وقد وجد في الخرطوم تحسيات عظيمة
وفتحت فيها شوارع واسعة فسحة وأصحت المدينة أكثر ساء . وأهم
من ذلك ، أصبحت مصحة بعد أن كانت كثيرة الأوباء (٢) » .

وكتب أحد قناصل فرانسا قديما بالخرطوم يقول :

« انه محبوب جدا في السودان حيث بدأ ينشئ مزارع قطن ونبلة
ويعدل نظم الضرائب بمنع مشايخ العرب من جبايتها وإيجاد نوع من
الرقابة لا يزال باقيا إلى اليوم (٣) » .

(١) صموئيل بيكر (سمعه) في محلدين بالانكلية . انظر الجزء الأول
ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) Douglas Murray and Silva White Sir Samuel Baker A Memoir
من جيبجلر إلى صاموئيل بيكر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦

(٣) Louis Vession Khartoum et le Soudan d'Egypte Nouvelle Revue Mars, 1883

وقد لعبت تجارة الرقيق في عهد ذلك الحاكم كما لعبت في عهد جميع الحكام السابقين واللاحقين دورا كبيرا في تاريخ السودان . وكانت أهم مراكز هذه التجارة في أقاليم كردفان وبحر الغزال ودارفور الجنوبية البائية . وكانت دارفور في سنة ١٨٧٤ لارقانة لمصر عليها فكان لا بد من خضاعها لسلطانها قبل أن يسيطر عليها تجار الرقيق الذين كانوا بفضل ثروتهم وعصابتهم المسحة لأحبره سادة أفريقيا الوسطى وخطرا يهدد السيادة المصرية الفعلية على هذه الأقطار .

ومنذ سنة ١٨٦٩ فقط بدأت مصر تنظر الى النخاسة والنخاسين كخطر ساسي محشد ولكلها كاب لا تريد سعيها لصف لمحاربة النخاسة الا عند الضرورة القصوى على أن يكون ذلك بمنتهى الحكمة والمصداقية حتى لا تثار ثائرة المصلح المحلم المرتبطة بهذه لجارته المشروعة القديمة .

وقد سعى من مهاره حكام السودان المصريين أنهم كانوا عند ضرورة اللجوء الى القوه ضد نخاسين يدفعون بعضهم الى مهاجمة العصب ويؤكدون بذلك ، دون تفضحية ، سلطانهم عليهم .

وهذا ما حدث في سنة ١٨٦٩ عنها فان نخاسي بحجر الغزال قد أحسوا بموتهم وارادوا تحدى الحكومة المصرية فامسحوا عن دفع المنع السنوى المتعاقد عليه . وكان على رأس أولئك النخاسين العصاة زبير رحمت الذي ذاع صمه في أرجاء السودان وكان في الواقع أكبر شخصية سودانية في القرن التاسع عشر .

زبير رحمت من سلالة العباسيين الذين نزحوا من بغداد الى مصر فأعلى السل على أثر غزو التتر في سنة ١٢٧٨ هجرية . وكان مصمما بالدكاء والعطه والشجاعة والاقدام فساعدته هذه الصفات . وكان وكلا في بحر البحر لعل عموري الناحر بالصعيد . على أن يصبح في سنوات

قلائل ملكا غير منوح له قصر وحيش وحصون ووزرايب في طول خط
أعلى السل وترسانة وسمن وثروة ضخمة .

وكان الخديوى اسماعيل ألب عليه في سنة ١٨٦٩ بلال أحد النخاسين
وعيه مديرا لبحر العراق لموظد فيها سلطه المرعرة وبحل دارفور
بعد ذلك ولكن زيير أوقع بلالا في كمين وقتله ومزق الحملة التي كان
على رأسها شر تمرق .

وفي أثناء ذلك قامت أساب نراع وعراك بين السلطان ابراهيم
سلطان دارفور ورحمب ربيز الذي بدأت قوته المتزايدة تثقله وتخيفه .
فما كان من الربيز الا أن أخذ يعد العدة لغزو دارفور من الجنوب ويعمل
على بسط سلطانه وتفوقه بطريقة لا تتلاءم مع مصالح مصر .

وكان اسماعيل باشا أبوب يعلم ذلك ويرقب الحوادث فشرع من ناحيه
يسأهب لغزو دارفور من الشرق على أن يترك ربيز يغزوها لحساب مصر .
وكان الربيز قد استولى فعلا على بحر الغزال وعلى شاكه وهى القسم
الجنوبى من دارفور فما كان من الخديوى الا أن يدير بتعيينه حاكما على
البلاد التي فتحها وأمره بإتمام فتح دارفور بالتعاون التام مع أيوب باشا .

وما غم للربيز أن كتب له النصر في دارفور في سنة ١٨٧٤ على أثر
معركة حاسمة قبل فيها السلطان ابراهيم وأثنان من ولده وصار
دارفور كلها في قبضة المصريين . عدتد أعم الخديوى برتبة الباشوية
على الربيز الذي لم يرض بها اذ كان يطمح بحق في وظيفة الحاكم العام
للمديرية الجديدة .

لذلك قرر الربيز الذهاب الى القاهرة ليرفع طلباته الى الخديوى
شخصيا . وقد حل محله ابنه سليمان في أثناء غيابه التي صا أمدها على
غير انتظار . ذلك لأن الخديوى تذرع بكل الوسائل لإبقائه فلاينه
وجر له الوعود .

وكان أول أثر لاحتلال المصريين دارفور ودخول قواتهم العسكرية فيها انتشار الأمن والنظام في ربوعها . ثم استأصل أيوب في مختلف أصقاع السودان مراكز صحية علاحة ممتدة من البحر الأحمر إلى النيل ، بين سواكن وبربر . ومن النيل إلى حدود وادي و في در فرنت بين الخرطوم ودارفور .

* * *

يدعو مما تقدم جليا أن السودان في عهد الإدارة المصرية مد عهد محمد علي كان في تقدم مستمر على الرغم من جميع الأخطاء والمصاعب التي لا محص عنها في عصر انتقال ومحارب وتكاليف توضع فيه الأسس الأولى لنظام والعمران . في عصر يعبر بحق ثلث مرحلة من مراحل الإنشاء . وقد حدثت في جميع الميادين إصلاحات كبرى أو محاولات إصلاحية وسعة كان لها أثر كبير عاجل أو آجل في حياة العامة . وقامت المدن وتبع وساد « السلم المصري » في كل مكان . ورجعت الصحراء والقوى الرجعية لمضطربة المهمل أمام لتوسع المصري .

وعلى الرغم من كثرة اسفحات التي يظلمها النسخ والتنظيم كان السودان حالاً من الدون هي مريته بحاجته . كتب الماي شير (كف) ، الذي أرسل إلى مصر لبحث حاجتها المالية . في تقريره الذي صدر سنة ١٨٧٦ يقول : « ان المعومات لى سجلاتها تدل على أن السودان بلد غني بأرضه وسكانه وقمحه . وبين من الإحصاء الرسمية انه بعد خصم تكاليف حملة دارفور وحده لجبرات الكبرى يبلغ الفائض في الخزانة مائة وخمسين ألفاً من الجنيهات هي مقدار الدخل » . والواقع أن لاحتلال الماي كان جرثومة في الحرات الاسوائية (حملة بيكر ١٨٧٠ - ١٨٧٤) . ثم استعمل فيما بعد في دارفور (إدارة غردون ١٨٧٧ - ١٨٧٩) وكاب السياسة الإنجليزية هي القاصية على معظم النتائج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي حصل عليها الحكم المصري بكل مشقة في مسافة نصف قرن وأكثر .

الفصل الرابع

امتداد السودان إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي

السومال وهرر

(١٨٧٠ - ١٨٨٠)

ابتداء من سنة ١٨٦٥ أخذ اسماعيل بنع سياسة بحاسة في البحر الأحمر لتضم مصر السادة النامه على الساحل الأفريقي لذلك البحر الذي كانت تركيا تهيمن على ساحله الأسيوي .

وكانت الخطوة الأولى لتضم هذا الهدف هي سارل الباب العالي لوالى مصر عن ميناءى سواكن ومصوع .

في سنة ١٨٦٦ ، بتاريخ ٢٧ مايو ، صدر فرمان بمنح « الحكومة الوراثه في مصر وفي جميع الملحقات والأراضي النامه لها وفي قائممابى سواكن ومصوع » .

وما كادت تفتح فناء السويس في سنة ١٨٦٩ وتظهر لعالم أهمية البحر الأحمر حتى كان اسماعيل قد مد سلطان مصر على سواحل البحر الأحمر الأفريقية وكان احلال مين السومال المواجهة لعدن بصفة خاصه يقلق السياسة الانجليزية .

ظهرت آثار هذا الفتن وبوادره في العلاقات الانجليزية المصرية منذ شق القناة : من ذلك ان عمراكا نشب بين قنائل بنهار وبربرة على خليج عدن فذهب جمالى بك ليصلح بين الطرفين ويوطد السلام فها كان

من حاكم عدن القائد ادوارد راسيل بتجرد علمه بوصول جمالي بك في هذه الأصقاع الا أن كتب اليه عن سب محته وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء (أبريل سنة ١٨٧٠)

وقد وجه شريف باشا وزير الخارجية المصرية هذه المناسبة . الى فصل المخترا العام . بتاريخ أول يونيه سنة ١٨٧٠ . خطبا يؤكد فيه حقوق مصر . قل فيه « ان الأراضي المذكورة ليست مستقلة ، انها تظل كما كانت دائما عثمانية . وهي ضمن البلاد التي تنازل عنها الباب العالي للحكومة المصرية بمضى فرمان سلطاني نص فيه على مديريات مصوع وسواكن وملحقاتها . على أن مصر لا يرال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك .

« فلا يسع الحكومة المصرية مطلقا أن تترك الحقوق الثابتة التي لها على هذه البلاد (١) » .

حصصة الامر ان المخترا كاتب نريد أن تعقد مع فائل السومان كما عقدت من قبل مع فائل عدن معاهدت تجارية وأن يوجد معها علاقات وارتباطات تجديها في دائرة نفوذها .

ولكن اسماعيل لم يكن غافلا . اذ كان أسطوره في البحر الأحمر بقيادة جمالي بك مكونا من ثمان سفن . وكانت محطات الأسطور في بورسعيد والاسماعيلية والسويس وجميع لساحل الأفريقي لعانة أقصى نقطة في شرقي خليج عدن .

وفي يونيو سنة ١٨٧٠ عين ممدار باشا حاكما عاما على جميع الساحل الأفريقي من السويس الى جردفواي .

ولاشك أن وجود سلطات مصرية في هذه الأرجاء كان عاملا في إيجاد

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية مجلد ٣١٨٦ .

النظام ووضع حد للحروب المسمرة بين القبائل وما إلى ذلك من عادات
همجية كسرقة الأطفال لبيعها أو بيع الأطفال لشراء البقر .

ولم تغض سنوات فلائى حتى ظهرت آثار المدنية المصرية في تلك الأقطار
الدئة وأحدث مدينة بربرة في بلاد السودان منذ سنة ١٨٧٣ تحيا حياة
حديثه وتنعم بالسلم والأمن بعد حياة الفوضى ونهب واللب والقتل .
كتب الكونتونيل استاتون من الاسكندرية بتاريخ ١٥ سبتمبر
سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الانجليزية يقول :

« لعل مولاي يسمح لى بأن أقرر أن يحدد ادره منظمة على ساحل
السودان تقضى على أسباب النزاع الداخلة بين القبائل وعلى المعارك لى
تعطل التجارة في هذه الأرجاء حر لنا رؤسلا كنا في عدن من معاهداتنا
التجارية مع مشايخ بربرة وزيلع وتاجورة (١) » .

وقد تدارك الباب العالي لمصر عن زيلع في يونه سنة ١٨٧٥ مقابل
دفع ١٥٠٠ حبة تركى سويو فأخذ اسماعيل يبنى في تارجورة وغيرها
حكومات تصل بسكان البلاد الداخلة وتفتح الطرق للتجارة .

كتب الضابط وود الى السير اليوت سفير إنجلترا بالاستئانة في
٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول . « ان السارل عن ميناء زيلع ولاستلاء
على بربره بحلال ساحل البحر الأحمر الغربى كله في قبضة مصر . ولا ريب
أن لماطق الى كانب من قبل مسوحته لايسأس بها أحد المصريين
يصونها عاجلا بالعالم المتدين . وقد احصر « البلغراف » بينها وبين
سواكن زهاء نصف البحر الأحمر الجنوى ، ومن السهل الاتصال بهذا
المساء من أى نواحي الساحل اذ يوجد في كل قرية موظف مصرى ومعه
سائقه من الخد لحفظ النظام ويوجد بربره شبرى منتظم بين السويس
ومصوع تحمله من بحاربه تجرى بالقرب من الساحل الغربى بين

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ - مجلد ٣١٨٧ .

الصخور ، وكثيرا ما تلمح هذه السفن اشارة الاستعانة » .

وقد ختم كلمته بتعديد خدمات السلطات المصرية في البحر الأحمر
سلاحة والمدية (١) .

كان هدف اسماعيل العام لتقدم في الساحل والايفال في داخل البلاد
في وقت واحد مع تدعيم احلاله بتنفيذ سياسة اصلاحية واسعة وهذا
ما حدا به بمجرد احتلال هرر في سنة ١٨٧٥ — كما سنبينه فيما بعد —
الى التعجيل بانجام الاسيلاء على ساحل السومال صوب المحيط الهندي
لتحقيق مشروع عاجل يصل اتصالا كلنا بالمشروع العام : امتلاك ممذ
جهة الشرق في موارد حفظ الاستواء لانشاء مواصلات مع المديریات
الاستوائية التي تم فتحها ، مواصلات اسهل واقصر من مواصلات النيل
واقامة سور امراطوريه في أقصى الجنوب اشرقى على خط يصل بحيره
مكتوريا بساحل افريقيا الشرقية في مونايسة .

وهذا المشروع لصخم سيعمل الحلرا على حياطة سكن الوسائل
مقوم هي بتنفيذه فيما بعد .

والتوقع ان الفكر في المشروع يرجع الى سنة ١٨٧١ اى منذ الشروع
في بسط نفوذ مصر لعيه خط الاسواء والبحيرات وكانت آخر محاولة
في تنفيذه في سنة ١٨٧٦

ما كاد اسماعيل بكلف صموئيل سكر (فبراير ١٨٧٠) بقيادة حملة
افريقيا الوسطى حتى أعد مشروعه الذي نحن بصددده في القاهرة فكان
خط السير المرسوم لنيكولونيل الأمريكى بيردى Purdy البرون في
موساسه والوصول منها الى بحيره فكتوريه من الطريق الذي يمر بين جبل
كينيا وكيليا بحارو .

ولأجل اخفاء الغرض الحقيقي من المشروع جرت اشاعة في سنة ١٨٧١

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ - مجلد ٣١٨٨ .

ان كارثة حلت بتجريدة صموئيل بيكر وان الخلة المرسلة لانقاذه يجب أن
تدخل أفريقيا من نقطة قريبة من زنجبار .

روى بونولايت في مؤلفه (مصر والجرافيا) : « ان الضباط والجنود
والسفن والمؤن كانت كلها معدة . ولكن أحداثا سياسية طارئة حالت
دون تنفيذ هذا المشروع » .

وكان اسماعيل سلم الكولونيل بيردى خطابا يشمل على تعليماته ليفتحه
عند وصوله الى بلاد كيليا ، أوصاه فيه بأن ينشئ نقطة عسكرية في
مناطق جبال كيليا وأن يعمل « كمن يريد الإقامة والتوطين وأن يتبع مع
تجار العاج والرقيق سياسة حكيمة معتدلة لأن الشعوب المحلية يجب
أن تفهم أن مهمتنا لا يربطها مهمة أولئك التجار أى غرض مشترك ،
والتجار يجب أن يفهموا أنك لا تذهب للاستمرار بمصالحهم » .

وقد لخص اسماعيل فكرته العطية التي كانت محور سياسته الافريقية
بقوله : « يجب على شعوب مناطق منابع النيل أن يكونوا من اليوم
أصدقاء وحلفاء خديوى مصر » .

ومعلوم أن جبال كيليا تجارو وكيني من أعلا جبال أفريقيا وأجملها
وأطيبها مقاما للأوروبيين وهما الآن في حوزة المجترا وكان أولهما في أفريقيا
الشرقية الألمانية .

وكان من المقرر انشاء خط على الساحل بواسطة البواخر من مصوع
الى مونساه وحصل آخر خلاف حظ مونساه بعد من مين الساحل
الشمالى (خليج عدن) بربره وزيلع الى هرر فشوا فالجالا فالكافا حتى
منابع النيل .

ويظهر أنه لما حل بينه وبين مشروعه فى سنة ١٨٧١ فضل اسماعيل
اتريث حتى حل غردون محل بيكر مأمورا لمديرية خط الاسنواء فى
سنة ١٨٧٤ واتفق مع غردون على تنفيذ مشروعه من جديد وارتأى أن

يكل رئاسة الحملة هذه المرة الى انجلرى . ماك كيلوب باش . رئيس مصلحة المنارات ، بدلا من أمريكى . عن انجلرى تسكن اليه وتهدأ نائرة أطماعها .

على أن ذلك لم يمنع اسماعيل من مراقبه ماك كيلوب باشا بواسطة شاييه لونج الأمريكى الذى شركه معه فى الحملة وبواسطة كبار القواد والمهندسين المصريين أمثال رضوان باشا حاكم بربره الذى كان قائدا لمركبين حربيين وجمالى باشا وعبد الرزاق لطفى وحسن و صف وغيرهم . وقد وصل لخمه بربره فى أواخر سبتمبر ثم التحب الى رأس حاقون حيث وصل فى ٥ أكتوبر (سنة ١٨٧٥) . وفى اليوم التالى رفعت الراية المصرية على المدينه فظهر الأهلى اعنائهم بحكومة « السلطان اسماعيل » وقد استقبلهم هناك عم السلطان بتلك الجهة وقدم فروض الطاعة . ومن هالك ساروا الى براوه فقدم لهم أمرها كل مساعده . وقد وصلوا بعد ذلك الى قسايو لى سمب نوب اسماعيل واحبوا تلك الجهة بعد طرد الحامية التى كانت فيها من قبل سلطان ربحار ثم سمعوا سحر الجب فى ٢٧ أكتوبر وأخذ حسن واصف فى اكتشاف ما وراء النهر باعتباره جزءا من بلاد السومال ورسم خريطة للنهر .

جاء فى ملحق تقرير « عن حوادث مأمورية سواحل أفريقيا الشرقية مقدم من عبد الرزاق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية » مؤرخ فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥) . ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض : الأولى أن ماك كيلوب باشا وفريد ريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفرموره « لامو وحريرة فورموره فى طريق موباسه » وأن أحد أمراء حرر الصومور « آخر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس عربى موباسه وأن أهالى تلك الجهة يودون السمع للحكومة المصرية » .

والثانية أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة جوهنة
والأمير محمد نجل السلطان عبد الرحمن من جزيرة جزوان ومعه كتاب من
سلطان جريره لقومور الكرى عن رغبتهم التسع للحكومة المصرية .
وكذا حرية مهلة وسدر مياص « وصلوا فسيو تقصد التوجه الى
المحرسة في ظل الحكومة الخديوية » .

وهذه الجزائر الخمسة تسمى جزائر القومور (Comore) وهي واقعة
في شمال لمرى من جريره مدعشم .

وقد روى شاه لونغ في كتابه (حاشى في أربع قراب) أن
سند على أخ السلطان عبد الله الذى كان حاكما على جرر القومور جاء
بقدم الى مصر الحاج الذى اغضبه عبد الله وأن هذه الجزر قد وضعت
فما بعد بح حماه فرنسا وصار الأمر على سلطانا على جريره قومور
الكرى .

ولاشك أن هذه الواقعة بين لى أى حد يقع نفوذ مصر الأدى
والسياسى في أفريقيا خصوصا في الأصقاع العربية .

أما الواقعة الثالثة فهي وصول كتاب من قومندان براوه يقول :
« أنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية انجليزية بالقرب
من براوة وان قومندان السفينة يصحبه أحد القناصل الانجليز وترجمان
ولعص الجنود الانجليز أرادوا البر الى البر ولكن اليوزباشى قومندان
براوه أفهمهم أنه لا يستطيع الاذن لهم بالبرال جنود مسلحين على أرض
تحتها القوت المصرية » وأنه بتاريخ أول ديسمبر سم أحد ضباط
السفينة حطوا الى لورباشى يبلغه فيه « أنه لم يجمع قط من قبل من برال
جنود مسلحين في هذه المناطق » فرد اليوزباشى « أن هذه البلاد
تصعب دعه لمصر » عندئذ عذرت السفينة برود قاصده رنجير .
وحاء في الحاء « أن هذه السفينة كانت مكلفة بجمع تجارة الرقيق على
سواحل أفريقيا لشرقية » .

والواقع أن برود وقساويو كانت تابعين اسم السلطان ونحوه الذي
احسج على احتلال مصر وقد نادى نحدرا بأبيده والدخل في القاهرة
ونجحت في حمل اسم على ارجاع حملته .

اضطرت القوات المصرية الى الانسحاب دون أن تسكن من وصل
هذه الأقطار بالحيار وبدعم بمؤد مصر في جمع منطوق السومان .
وقد قام رؤساء الحملة ومهندسوها وبالأخص عبد الرزاق بك بعمان
جليلة في أمد قصير .

كتب رسواي باشا أن مهردر الخديوي في ١٨ شوال سنة ١٢٩٢ هـ
(٢٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥) مشيرا الى هذه الأعمال في منطقة نهر الجب
قدكر الشاء لسان مساحة فدان وول أن الاشجار كثيرة على ضفاف
النهر وأن حبها يشبه الخشب الذي يرد من تركيا وطلب ارسال حطابين
ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر .

وفي ١٢ نوفمبر استمل مال كنوب في فسادو ٢٠٠ من عقار وسكان
أوجددين الذين أمهروا اعصاهم وفرجه بالحاق بالادهم بالحكومة
المصرية . وفي اليوم التالي وصل من سكان الجب وبراعة خطاب ممضى
من عثمان شفقو وعلى الصافي والحاج محمد بن عبد القادر ومحمد بشير
يقولون في اسم كانوا مد ثمانية أعوام في نزاع مستمر مع قبائل كبلالة
وهرب واسم يريدون لأن أن لعبشوا معهم على سلم وصفاء كاحوه .
وفي العدد (١٦ نوفمبر) اجتمع على ظهر البخرة محمد علي عقار وشوح
فائل تونة وكبلالة وهرب وبراعة والجسرر التابعة لونه . روى
عبد الرزاق لظمي في يومياته : « وقد أصلحت بينهم وأقسموا جميع
على المصحف والسيف أن يظنوا محدين وأن لا يهاجم بعضهم بعضا
وأن يظل كل فريق منهم في دياره يعمل على رفاهتها ورعاها أرضها في
ظل الحكومة الخديوية . وقد حلت هذه اليمن بحصورنا تمام

ماك كلوب ورسوان باشا وعلى بك شكرى قومندان المركب وآخرين
من الضباط » . (١)

وكتب ماك كلوب باشا في ١٤ ذى القعدة (١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥)
يقول ان عدد الرزاق بك يطلب ثلثائة واثنى عشر رجلا من جميع الحرف
والهن من أطباء ومهندسين وتجارين ووراع وخيارين وذكر أشياء
أخرى كثيرة لرقية لدائن .

هذه لمحة تكشف عن سياسة المصريين وانجهااتهم العمرانية في جمع
مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندي .

ومعلوم ان سلطان رنجار مدين لانجلرا انالخلص من العبه لامام مسقط ،
وكان الانجلير الامرير الباهي في الجيش والريد وكان تمثلهم يوحن كيرك
مستشار السطان برعش الساسي (١٨٧٠ - ١٨٧٨) . وبواسطة
رنجار كاتب المخترا تريد لاحتفاء «فرقبا الشرقية في دائره نفوذها .
بدع سيده الحار وسلة جديده تساعدها على انتهاج سياسة
تدخل في بحار افرقبا الشرقية . ذلك أنها تحت ستار « مصالح
الاساسه » أعيت حرب لاهواده فيها على تجاره الرقيق وأرغبت مصر
ورنجار . في سبل القضاء على هذه التجارة . على قبول شروط
ومواثيق لاتتلاءم مع استقلالها .

وقد دبح السر النوب سمر انجلرا في الاساسه ثوبار باشا أثناء
وجوده بهذه المدينة في عهد اتفاقه لالغاء النخاسة ولكن وزير مصر
لم يوفق عليها خوفا من نتائجها وجذاب « لزبير لحر لانجليرية الى
سواحل مصر وحصونها » .

ولكن انجلرا تمكنت في النهاية من حمل اسماعيل في ٤ أغسطس

(١) من يوميات عبدالرازق نظمي بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ (سجلات
عابدين) .

سنة ١٨٧٧ على توقيع اتفاقية الرقيق المشهورة .^(١)

تقول المادة الرابعة من هذه الاتفاقية : « لأجل الوصول الى محاربة
تجارة العبيد أو الأحاش بطريقة فعالة ناجحة في البحر الأحمر توافق
الحكومة المصرية على أن تقوم الطرادات البريطانية بزيارة ومبش
وعند الانضاء حجزها لتسليمها الى أقرب أو أنسب سلطة مصرية ،
لمحاكمتها . كل سفينة مصرية تضبط وهي تنحدر بالحدود السود أو لأحباش ،
وكذلك كل سفينة مصرية يرتاب في أنها مرصدة لهذه التجارة أو تكون
قد راولتها في أثناء الرحلة الى حدث لقائها فيها .

« ويجوز استعمال حق التفتيش أو الحجز في البحر الأحمر . وحسب
عدن ، وعلى طول ساحل بلاد العرب وساحل أفريقيا لشرفه وفي مياه
مصر لبحرية ومياه ملحقاتها . . . » .

ولأجل صون سمعة هذه : أعرض الخديوة وقع احسار وزير
بحرية انجلترا على القبطان ملكولم الذي عين بمرسوم خديوى ساريح
تاريخ ١٨٧٨ مديرا عاما لمصلحة الرقيق في البحر الأحمر . وكانت
له سلطات مدنية وقضائية ، وكان مقر عمله في مصوع .

وكان أول غلب له على أثر تعيينه . باسم تصد المعاهدة . مرد حاكم
زيلع أنى بكر باشا ، بحجة أنه كان يشجع تجارة الرقيق . متحاهلا نفوذه
العظيم ومنزله من أبناء قومه وعشرته من سكان هذه المنطق . ولذلك

(١) في سنة ١٨٧٧ أمضت انجلترا مع اسماعيل افنديس الأولى تاريخ
٤ أغسطس وهي حصة بالرفيق وسانية تاريخ ٧ سبتمبر وهي خاصة
باعتراض انجلترا بسلطان الحكومة الخديوية على بلاد السودان أعلاه رأس
حافون ومتعهد الخديوى بعدم التنازل لاية دولة أحسنه عن أنه قطعه من هذه
البلاد وسحب من الحكومة الانجليزية الحق في تعيين مأموري قنصيات في جميع
المين والمحطات الموجودة على ساحل البلاد المذكورة . ويوجد في هذه المعاهدة
في السطر الأحمر منها سود خاصة بتجارة الرقيق .

اعترض غردون على هذا لطلب مراعاة لمصالح مصر التي ما كان في وسعها أن تحمد ثورته يترها أبو بكر في ذلك البلد القصى .

فما رثى منكوه أن غردون يعف في سببه وإن لحكومته المصريه فطبت رافعا الى برمي الى اخرى على سياسة العنف والارهاق ليدور بدور نفسه والاسداء في أقطار مصر ثمانية أشهر اسعدده للاستماله مند شهر مارس حتى بعد ثلاثة أشهر من نون وضعه .

علم بذلك وزير خارجيه انجلترا فكسب ان قصدها في مصر فيبيان بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٨٧٨ يقول « مسكون من دواعي الأسف البالغ أن يقصر منكوه الى البحر عن مقصده اد لا تحصى عليكم أن في وجود موقف ذي حرم وعزم لا يبي ولا يكل في بحارته تجاره ارقين الامن الوحيد في القضاء على قضاء مصر لا سيما في بند سعدي فيه للفظت جميعا عن الخاسه والحاسين » .

وقد كانت لحكومته الانجليزيه عمل مانع ان التبول من شأن الخاسه وابشارها في البحر الأحمر ودبت على الرعه من أن القطار ملكولم نفسه أعلن في تقرير له أن مجموع العدد الذين يصعدون سنوا من الساحل الافريقي الى الساحل العربي لا يزيد عن ١٧٠٠ . وهذا العدد أقل بمراحل من ٣٠,٠٠٠ وهو العدد الذي وضعه نائب بمصر وابتد وتقدمت به الحكومه لانه يحرره » .

لما فيما يتعلق بعزم ملكوه قصد كشف غردون عن مكنونهما . كتب فصان ان حكومه ساريج ٢٩ مارس سنة ١٨٧٨ يقول : « ن الكولونيل غردون كان يحشى أن تؤدي كل محاولة تعمل دفعة واحده بغير رونه ونانه لتنفيذ المعاهدة الى هدم كل عمله الشاق في السودان

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزيه رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزيه رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ . خطاب من

فيصيان الى حكومته بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٨٧٨ .

ذلك العمل الذي ينشئه بوسائل ناقصة مستعين فيه بمصانعة الأهالي
ولترقق عندهم وحساب ألف حساب لمعتقداتهم الدينية الوراثية .

« وكان يحيل أي عردون أن محمداً قد فرصت المعاهدة فرصاً على
الحدوي وأن فرضاً عليه هو (عردون) بعد ذلك لفظ ملكو كشه
حاسوس وإنما لم تكن بذلك بل أثبتت مراتبه السودون بحمل نصيب
هذا الموظف الذي لم تكن له حاجة إليه » .

والواقع أن عردون رجل غريب لأطوار مجتمع فيه رصاصه يرو
ويلين وقد يتزو ولا يبين وقد يبن فلولاً ثم ينزو ويبين هذا وذلك تتحاذه
عوامل محضه مد وحرراً من برهه أصبه في الضع وسياسة أجنبية تريد
أن تملئ عليه حذمه مصالح معينة يسفها كما يستقبل الخرباء الشمس
ويدور معها كيف دارب .

وهذا ما نصر له سر اضطراب سياسته وحتى معظم السياسة الانجليزية
الرسمية عنه . وقد أدت حكومة الانجليزية ساءها من ملك
عردون راء ملكو فكسب و فضله . في ٣١ مايو سنة ١٨٧٨ . تقول :
« ان الكولونيل عردون سوف يهادد الحاسين من لاجس في نفسه
القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

ظاهر من هذا التحريض ما يرمى به الحكومة الانجليزية في حله
اضطرره الى تصحبه بملكو . وفعلاً استجاب ملكو في يونيو سنة ١٨٧٨
فبادر القنصل بمقتضى ساء على تعليمات حكومته الى التصريح بأن « الحدوي
وعردون يجب أن يكون مسؤولين عن الاحراءات الناجمة الواجب اتخاذها
للقضاء على الحاجة التي لا تزال شرها مستفحلة في من سواكن وبيع
وبحوره » .

(١) سجلات وزارة خارجية لاجس رقم ٨٤٠ محمد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤٠ محمد ١٥١١ . الاسكندرية

في ٩ يونيو سنة ١٨٧٨ .

وسنرى ، فيما بعد ، انه ابتداء من ذلك الوقت (يوبه سنة ١٨٧٨)
ميجرى غردون في السودان على الرغم منه على سياسة رسمتها له انجلترا
وسيقم في أرجائه الواسعة حكومة حرب وارهاب .

الواقع أن غردون وبكر وملكولم قد فرصهم انجلترا على اسماعيل
في السودان . ومن حسن الحظ أن اسماعيل قد فطر اى مرامى السياسة
الانجليزية فعلم جهده ، ولم يلب ، في الاحتفاظ بالمناطق البائية الممتدة من
بربرة الى هرر لحكام المصريين وللادارة المصرية الحقة التى ظلت تعمل
في صمت على احياء هذه البلاد وفتح سبل المدنية فيها .

* * *

من بربرة تحدث الحضارة المصرية نوعا في البلاد وكان أول عناية
رضوان باشا بأمر بربرة وريبع وملحقها توطيد الأمن فكانت الحكومة
المصرية ترسل اى بربره مركا حريبا يرسو فيها طوال فصل الشتاء وكان
قائد المركب مسئولا عن النظام في المدينة .

وعلى صهر هذا المركب كان يقيم جماعة من المهندسين المصريين
كعبد الراروق نطى ومحمد بهرام الذى حلقه لاستكشاف ما وراء المباء .
وقد عوا ددى ، ذى بدء بدرس الينابيع والمجارى القديمة التى عفى عليها
الرمس ورسموا خرائط وافيه للمناطق الداخلة وأعدوا تصميما لاستحداث
بجار ومدينة جديدة منفردة عن منزلة العشش .

في ظرف خمسة أعوام ، من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٨٧٧ ، نشأ
بالقرب من الشعب أو القرية القديمة المدينة التى أسسها المصريون . فيها
ماره يهدى السور . وفيها مراس وأرضعة من الحجر . وفيها مخارن
مشحونة بالمحج لموين المراكب البخارية ، وفيها بيوت منتظمة وشوارع
مصنوفة نظمه لا أثر فيها للأفكار المتراكمة التى كانت مصدر أوبئة
وأمراس . وفيها بستان جميل وجامع فخم .

وقد فاض الماء الخلو في أرجائها آتيا من جبل الدوبار في مواسير

ممدودة ، ولما كان الماء عند تفجيره من الصخر في سمح سلسلة الجبال
البحرية ترتفع درجة حرارته ارتفاعا كبيرا بنيت صهاريج ليربده قبل
مروره من السهل الى الخزانات ، ولا يزال الحصن القديم الذي بنه
المصريون في الدوبار يحرس المنبع الى اليوم .

وكان في المدينة مستشفى . كما كان الأمر في ربيع . وصدله . ونخبز
وطواحين ومكسب بريد ضمن حدود اتحاد البريد العام . ومصانع مضخة
بالغاز كنظائرها بمصر وشوارع الأزيكية . وانتشرت العملة المصرية وشاع
أمرها بالعمى والجبال على مسافة ثلاثين يوما فقل عليها التجار
للتعامل بها .

وبالحملة صارت بربرة مناء تتصل بالأمم عدن ، وقد اعترف هنتر قنصل
انكلترا في السومال في رساله مؤرخه ٦ يونه سنة ١٨٨٤ بأن المصريين
« اتجهوا في بربره من الأعمال العمومية الأساسية ما يصح أن نذكر به
أية ادارة » .

وقد بلغت تكاليف الماني في بربره لغاية سنة ١٨٧٧ رهاء ٧٠,٠٠٠
حسه عدا أربعين ألف جنيه أنفق على الخود والسببية المرافطة بالماء .
ولما أرغم الانجليز اسماعيل بمعاهده ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ على جعل
ميناء بربره وبلهار حربي أعفيت صادراتها من الرسوم والعوائد احركه
فأصبح دخل المدينة لا يزيد عن ١٧٠ حيا في السنة مع أن الترك الحربي
وحده كان يكلف الحكومة ٣٠٠ جنيه في الشهر .

كانت بربرة تصدر الى عدن في العام ١٠,٠٠٠ بقرة و ٦٠,٠٠٠
خروف عدا ليربده . كتب رضوان باشا الى المعبه السنية في ١٢ شعبان
سنة ١٢٩٣ (٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦) يقول : « انه قبل مجيء المراكب
الحديوية الى هذه الأصقاع كانت عدن في ضيق مستمر طوال أشهر
الخريف من مايو الى سبتمبر وذلك لأن الرنده والرفار وخرقان كان

من الصعب شحها على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العواصف ،
وكان ثم رطل اللحم في عدد خمسة قروش وكانت الزبدة لا وجود لها
بالمره ولكن بعد احلال المصريين ومرور مراكب البريد المصرية في مياهها
أصبح من الميسور ارسال الزبدة والبيض والعمم والأبقار الى عدن في
كل وقت وصار ثم رطل لخمسة قرشا واحدا وكثرت الزبدة .

وقد ترب على انتشار المعاملات طفا للأحكام السياسية والشرعة
وارديد العمران والأمن والراحة أن قبيلة عيال أحمد السومالة التي كانت
كغيرها لا تتم في بربره الا في فصل الشتاء أخذت تنى بيوتا ودكاكين
نقضى فيها العام كله .

ولا ريب أن استقرار السومال في بربرة بعد حياة التنقل والقتال
يذكره سياسة ابراهيم باشا في سوريا اذ كان أكبر همه تثب البدو
الرحل ولتحصيرهم حتى تنعبر ضاعتهم ويحدوا في الرراعه والعمران
معاشا لهم .

كك حرنل فرن . الذي كان فصلا لفرنسا ثم وريرا موصو ،
على أثر زيارة عملت في سنة ١٨٨٣ : « أنشأ المصريون في بربرة بمزل
عن الحى الوضى مدسة أفريضة صغيرة عليها قصره ولعيم ، وأنشأ بلاء
من جبل لدوبار ندى يبعد اثني عشر كيلو مترا من الساحل وأقاموا
مبنى من محافضة ، ودار للشرعة وسجن . وبنت للحاكم على الطرار الأندلسي
بداخه حدهم لاقامة الروار الغرباء . وكان أسلوب البناء مطابقا لمقصات
الحو وحده المستمر .

« وكاتب لعاهيه توجه كل يوم لتضيق قطع الرياض والرهز ورراعه
لخصرواب صوان لسة . وكان في المياء مناره تدو على بعد خمسة عشر
ملا ورصيف سمح بمريرغ وشحن المراكب الكبرى وبرويدها بلاء .

« ولا ريب أن هذا العمل يدعو الى الاعجاب لاسيما اذا تذكرنا أن

الذي قدم به حاكم شرقي وأن بربرة كانت تملك وقتئذ موارد واستعدادات
للتموين أعظم ألف مرة من موارد واستعدادات جمع موانئ أفريقيا
الشرقية من السويس إلى موراسقة في مسع من ساحل لا يهل عن
سبعة آلاف كيلو متر .

وقد زار بربرة كاتب الإنجليزي . مستر جيمس . في مارس سنة ١٨٨٤
وكانت لا تزال تقيم بها حامية مصرية . ثم عاد فزارها في شهر نوفمبر .
وكان قد أحلاها المصريون فأتاح له أن يلقى الرية الانجليزية « التي كانت
تحقق على أنقاص الادارة المصرية السنه » ولكن المؤلف قد دلف نفسه
بمنه اد وصف بربرة في مكان آخر من كتابه فقال . « ان المدينة الحديثة
قد نبتت من الحش والنبات جدا لا يراى فيه مسرى . . . كانت در
الحاكم لسابق يزورها روص لصر برويه « فسمه » ذات روعه بسب
لضروب مختلفة من المرجان . . . وتوجد منازل مصرية بهجة .

وقد زارنا إحدى هذه الدور التي كانت في الأصل مخصصة للحاكم
فلمد ألفنا فيها رحلتنا قبل البنا أما نهم في منزل من منازل الرومان في
عصر بومباي . لصحة وبسائه والرواق الذي تحيط به ويوصل إلى
شقي المحطة وإلى حمام مسيح في أكمل حال .

وقد أدخل المصريون تحسينات كثيرة على ميناء سهار حيث نبت
في مكان المدينة الجديدة بعض العتس من الحصر بعاه الاحلال المصري
للسواحل بعد سنة ١٨٧٠ . وسرعان ما ألتأ المصريون مباره في أعلا دار
ومه الحاكم وأربع ببايات عمومية أهمها مبنى حرك الذي كانت ترد اليه
مضائق من الداخل لصديرتها . وقد شيد أيضا بالحجر بين صهران
لسكنى موظفي الحكومة .

وكان المصريون يقيمون في بلهار صوان الفصل المعدل حتى اذا نزل
الحريف المريع الذي يغطي السيوب بالرمل هاحرو في بربرة .

D. Brockman, British Somaliland, 1912. (١)

استحدثت اصلاحات في زيلع ولكن أهميتها التجارية لم تتحقق
لأنها المساء الطبيعي لمملكة شوا الحبشية فكان لا بد من فتح طريق القوافل
لدى بحر أوسه أي شوا بين قائل الدناكل العادرة المنتشرة على ساحل
البحر الأحمر من مصوع إلى باب المندب ومنه ينتشر السومال إلى المحيط
الهندي . على أن حملة مونتسنيجر لم تنجح في الاستلاء على هذه البلاد
اذ تمكن شيخ أوسه وحلفاؤه الأحاش من استدراجه في الصحاري وقبلة
غنية عند بحيرة أوسه في نوفمبر سنة ١٨٧٥

وقد اتعمشت تحاربه زيلع قليلا بفضل احتلال هرر واستتاب الأمن
والمواصلات بين الميناء والبلاد النائية في محيطه .

* * *

من زيلع نزل محمد رؤوف باشا ، في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، على رأس
جيش مصري لاحتلال هرر وقد احترق أراضي السومال ولم يلق صعوبات
في طريق زحفه إلا ابتداء من جورجورا على حدود النول . حالا حيث
بصر الطريق درنا صفا بشرف على الحلالا من على . ولكنه مزق شملهم
ودخل مدينة هرر في ١١ أكتوبر ورفع الرية المصرية عليها بين تهليل
السكان وكبرهم . وكانت المدينة تئن تحت ظلم أمرها محمد عبد الشكور
منذ عشرين سنة فانظم أمرها وأخذت تستقبل عهدا جديدا . ونحس بها
ها أن تذكر كلمه عن تاريخ مملكة هرر .

انتشر العرب في أفريقيا الشرقية في أواخر القرن السابع وقد أسس
مدنه هرر جماعة نرحب من حضرموت أو اليمن ثم قامت دولة عادل
الشامحة وكانت زيلع عاصمتها . وكانت بربره التي أسسها البطالسة قديما
حررا منها في القرن الثالث عشر ، وكانت دولة عادل بفضل مناعتها تدل
على الحبشة مسحة وتنافسها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولما امتد الأبرك في القرن السادس عشر مصر وبلاد العرب احتلوا
جميع السواحل فانقلب عاصمة الملك من زيلع إلى هرر في سنة ١٥٢١

ثم أخذ الأتراك يمدون اخوانهم في الدين بالمدفع والأسلحة وكان
البرتغاليون يرحلون من الهند لنصرة الأحباش وقد تمكن سلطان هرر
من الاستيلاء على معظم الحبشة ولكنه هزم في الهبة . من ذلك نوب
(١٥٥٣) أخذ الاضمحلال يدب في دولة عادل القديمة .

وكان يحكم هرر في أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع
عشر أمراء من أشرف مكة وقد أحدث حدود الأماره نصيب حتى المحصر
في جدران المدينة فعند أن كان أمير هرر يطر على قائل الجالا والسومان
المنتشرة بين المدينة والساحل صار عرشه تحت رحمتهم . وكان يظلم المدينة
ويستعدي عليها خلفاء الجالا ليؤيدوا سلطته بإلحاحهم .

والسومان أمه غربه تمتد مملكتهم الواسعة داخل مثلث قاعدته جبال
لكاف أو حط وهمى من خليج تاجورا الى نهر تانا وضلعاه ساحل خليج
عدن (١١٠٠ كيلو متر) وساحل المحيط الهندي (٢٢٠٠ كيلو متر) .

وهي مملكة غنية بمواردها من صمغ وعمر ونحور ومطاط وخيل وأنعام
لا عدد لها بفصل جبالها وسهولها ومراعها الراهم وشجرها . أهم
أنهارها الحب الذي يسع في هضبة الجالا . وهي على اتصال بمملكة شوا
الحبشية وهضبة هرر الخصبة .

والسومان قوم أشداء رحل بعضهم يعيشون من تربية الأنعام
والجارية ولكن نزوعهم الى الهب والسلب كان سببا في كساد التجارة
في بلهار وبربرة .

تنقسم قبائلهم الى جماعات أربع : -

الجماعة الأولى جماعة الشمال هم عشائرها حر أول وعسى والجادا
بورسى وبلغ عددها رهاء ١٣٠,٠٠٠ جميعهم مسلمون أميون . والثانية
جماعة هرر ، والثالثة سومان الأوجادين وهي واقعة في داخل السومان
لم يدخلها أوروبي لعاية سنة ١٨٨٣ . وكان في كل قبيلة أدباء وشعراء

يرتحلون الشعر . والرابعة — جماعة الجنوب أو ساحل بنادر كانت
مشره على جنوب نهر وبي ومسطه الجب السفلى .

وتعد أرض الحلا في الشمال الشرقي من بحيرة فكتوريا بين هضبة
الحشة في الشمال ومملكة سومال في الشرق وبلاد العروس وبوران
في الجنوب .

وكان تعداد الحلا يزيد على عشرة ملايين وهم أكثر الأجناس
لاقربية بها ، وروعه . رآهم المشر « كرابف » فأعجب بطلعتهم الحريه
بصول قمتهم . وهم وثقون أذكاء يقيمون حول هرر في المناطق الحلية
لحشبة ولهم فيها مراعي نضرة وأنعام كاهياكل .

وهم قوم ذوو شجاعة وافدام يجمعون في المكان الوعر من أعلى
الحل للنطش بأعدائهم . كانوا يفتنون سواحل خليج عدن في القرن
الخامس عشر ولكن حروب العرو والفتوحات جرتهم الى مملكة شوا
وحروب الحشة حيث أقاموا ثم ما لبثوا أن احتلوا حوالي سنة ١٧٠٠ هضبة
هرر فادخلوا أمرها وأرهبوا أهلها .

ويقسم حلا هرر في جماعات سب : السولى ويقسمون في الشمال بين
محمة جلديسة وهرر في بلاد حنية عزيمة الأمطار بترعرع فيها الفصح
وبلادهم . وفيل الجارسو في شرق هرر والآلا في حوارهم وفي الجنوب
وعرب . والعروس والأبيا في الجنوب . والايثو في العرب .

وكاتب كل قسمة ينقسم إلى أفخاذ وبطون وفصائل لا حصر لها شأنهم
في ذلك شأن سومال الذين بدلا من أن يؤلفوا خمس قبائل كبرى
محاولة كانوا مورعين من خمس وثلاثين قبيلة .

ولا ريب أن كثائر العشائر . وتضاؤل مملكة هرر بينها وانتشار الجهل
والبدع والفوضى في جميع الأرجاء كانت أكبر عو مل لاصمحلال .

لم يكن هناك أثر للصناعة لأن حاجات القوم في المسكن والملبس

والمأكول محدودة . وقد كانت هرد المدينة الوحيدة المبنية بالحجر .
وكانت الزراعة لا تزيد عن حاجة المراعى وقد اقترنت أراض واسعة صالحة
للزراعة بسبب الإهمال .

وكانت البحارة المرتزق الوحيد وكان مقصوده على فصل الشتاء :
ذلك أن معظم السومال والجالا كانوا يقيمون في الصيف على الهضاب
ينتمون بحوها المعدل ويرعون قطعانهم الصخمة من غنم وأبقار وخيول
وتعال حتى إذا جاء الشتاء وقف هطول الأمطار على الهضاب العالية
واستمر في الأراضي السفلى منذ أواخر سبتمبر . فترد الخو ويركو
الباب . وحشد بضائع البحر إلى بومر الماء ولعشب في الطريق لسائمه
فيرحل قاصدا ميناءى بلهار وبربره زمن الموسم .

وكانت ربح الشتاء تساعد السفن اشراعه من حجه أخرى على
اجتياز البحر والوصول إلى الموانى . وكان بربره الميناء الطبيعي لهرر
والأقاليم المحاذرة وخبر مرسى للسفن ولذلك كانوا يقولون : « ان الذى
يهمس على بربره يمسك بده ذقن هرر » .

كان محار الداخل يمدون من حجه الحشيش وهرر إلى بربره بالبن
والعاج ورش النعام والخلود وصبغ والعنم والأبقار والزبدى وكانت
السفن الآتية من عدن وحضرموت ومقط والسفن تحمل الأثر الهندي
والبيج والأقمشة القطية والديحان والحديد والحاس والسكر ولشئ
ولاسذة . وكان التعامل من طريق المفايسة لأن العملة كانت قليلة
الاستعمال .

ولكن عدم توفر الأمن كان من شأنه شل الحركة الاجتماعية
والاقتصادية فان المواقف الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب القادحة
لأمير هرر والقبائل التى تمر بها . وكان تجار الخارج هدفًا لقبائل الساحل
التي كانت ترغب كلاً منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى « القبان »
كان يقاسمه ربحه نظير حمايته له .

وكانت البضائع أحيانا — بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل
في خمسة عشر يوما — تقطع لطريق في عام ونصف أو عامين مما أدى
الى تدهور بيع وبتهاز وبربره .

وكانت بربره — كموانى الساحل كلها — مجموعة عشش أو بيوت
من الخشب . مقمره في فصل الصيف موحشة لا تعرف الحياة لا أشهر
الشتاء الستة اذ يبلغ عدد السكان من ٢٠ الى ٢٥ ألفا .

لاحتلال المصرى كان الاحتلال المصرى لهرر في الداخل بعد
احتلال الساحل ذا أثر بعيد في حياة البلاد .

سبع مدينه هرر في سهل محصن نضالعه من كل جانب تلال محصنة
تعلوها جمائل الس و صاب . سبع سكانها ثلاثين ألفا وكلهم مسلمون على
مذهب شافعى .

كان أمير هرر محمد بن عبد الشكور كما قلنا مسددا برعنه بحرم
أكل لارر و سلج و لثريد بحجة أن أمشال هذه الاطعمه المديده من حق
ملوك وحدهم وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن الذى هو
على من لس سمي بركو برعه في ضواحي المدينة ولكن في أراضي
لامير وحدها وأراضى أعوانه .

وكان يحرم على السكان أن يفضوا رؤوسهم وقاية من البرد أو الحر .
ويبلغ من نعسه أنه إذا هم بالصلح تسابق الحضور الى تقدم كم قميصهم .
وقد ألقى رؤوف ناشا الحكر كلها وبدأ يعنى بترقية الزراعة فرار
البلاد اخلفه وتبين له أن نصف الأرضى الى كانت تملكها القيلة
الواحدة كان مزروعا ونصف الآخر الذى هو أصلح للزراعة كان
مزروكا فحث الاهالى على الزراعة وكان ملحا ان لقوة أحاد لبرعهم
سبها . وقد ورع أراضي منهم فكان الخراد (أو العمده) يقعد عليه
ويقدمه له خمس بقرات كضريبة فيسحقه ققطانا من الشت وطاقية وعمامه

من بعه بضء ويرسل معه مندوباً من قبله يحدد له ثمن فدان لاستثمارها
وكان الملاو (أو شيخ البلد) يحصر نهرتين فعينه بأربعة أذرع ويحدد
له خمائة فدان .

وقد دأب رؤوف باشا على محاربة القوضى والدمع وهرق الدماء
فقتل الخلا مراراً وخرجه يد من حديد . ثم فئائل عيسى السومالية
المسلمة فقد عمل على تأديبهم بحربه الأمامة الماشية بينهم وث تعلم
لإسلام الصححة .

كان السومان يقاومون فصل الخلا عدواً وكانوا كلما وقعوا في
ذلك عرسوا في شعورهم ريشة نعام بضء تقوم مقام الوساء . ولصالحا
بهاهم رؤوف باشا عن هذه العوائد المضحكة وحاول عادة الأمن وتسهيل
تجاره القوافل فبعد الطريق لدى يصل هرر برتلج وجمعه صالحا للمهرب
وأنشأ عليه محطات عسكرية مزودة بالماء .

ذكر « بوليتشكا » في كتابه عن هرر أن نشاء مدسه جلدباً أهمه
سد نفاص طرق هرر وشوا وريبع في أرض عيسى و لحادانورسى يرجع
لفصل فيه الى المصريين وخدمهم وبالأخص بحار بك .

وقد ساعد انشاء المحطات في تعمم التجارة حتى أن القوافل الى
كاتب تصل من الساحل الى هرر في عصر الامراء وكان عددها لا يزيد
على السبعين صار عددها أربعمائة في السنة في عهد الاداره المصرية وكان
من عوامل انتشار التجارة في البلاد حلول العملة المصرية محل البدل
أو عملة الأمير التي كانت قليلة الانتشار لاقيمة لها .

وقد عى رؤوف باشا بالصناعة المحلية فكان الحاكم وكدر الموصفين من
المصريين يلبسون ملابس مصنوعة في المدينه ليقبدي بهم السكان فمضوا
ملابس مفصلة بدلاً من الأثواب أو الشفق لى كانوا يلبعون بها .

وصم رؤوف باشا في الوقت نفسه برنامجاً واسعاً للمشات

الارامة لتحمل المدينة وتوفير أسباب الرفاهية وال عمران فيها واستعان
بالحمد لشييد معظم اماني الحكومة وبيوت الموصفين .

وحلاصه القوب أحدث رؤوف باشا ثورة اصلاحه عامة في هرر
في ثلاثه أعوام . وقد عاد الى مصر في سنة ١٨٧٨ على أثر خلاف حدث
بينه وبين عوردون حكيمدار السودان . وقد ختمه رصوان باشا الذي
أنشأ ببرره فجرى على سياسته سلفه . ولما كان هرر يفتقر الماء الصالح
للشرب انى رصوان باشا حوص في المدينة جلب له الماء من عين قرية
وورعه نساء كامل من المخاري واحتهد في محاربه نعاضى الوطة وغيرها
من المحدرات التي كانت تفتك بالظهر اعصى والحوية .

وكان محمد ددى باشا انى نصب رصوان باشا في يوبه سنة ١٨٨٠
حاكما ممارا وفي عهده عين محمد باشا وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش
فتحج في ادخال مسائل كثره في حورده الحكومة .

زار برحانه الايسى « نضون سكي » هرر في أيام ندى باشا
(١٨٨١) فلاحظ رفاحه المدينة ونبي له « أن حالتها امنوية تطابق
حالتها المدية وأن المصريين سدو عليه سماء الفالحين الرافعين لواء
الحصاره اذ يعملون بأفعال المراء والكذب والمياد الصلاة والشرعية
انسمحاء . ولا يسكر انسان أن الضريمة تقي يتعهدون بها الأمن في المدينة
وصواحبا حديره بكل اعجاب واصر . ومن الحسيات الكبيرة التي
أدخلوها لنساء نصائى لدى أصبح — على الضد من نظام الأمراء
السابقين نصي دالعدل من غير هوادة ولا ابطاء » .

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر سنة ١٨٨٢
نوفمبر سنة ١٨٨٤) . وله يرجع الفصل في مطاردة المتطبيين
والشعوذين .

وسنرى فيما بعد كيف أرغمت المحتلرا مصر على اخلاء هرر وبرره

وربيع في سنة ١٨٨٤ لتستولي هي على الساحل ومينه وترك الحبشة
تحل هزر في سنة ١٨٨٧ .

نتائج الحكم المصري — في مدة لم تتجاوز التسعة أعوام في هزر
(١٨٧٥ - ١٨٨٤) والثلاثي عشر في بربره (١٨٧٢ - ١٨٨٤) وصلت
الإدارة المصرية البجة في هذه لأفصار النائه الى سائج ناهرات لم تلغ
بعضها الإدارة المصرية لأورسة في السودان وقد كات هذه أحمل صفحة
في تاريخ اسماعيل والحكم المصري .

وحسبنا أن نذكر أن لزراعة قد امتدت في مناطق الجبال وسهول
ليس مرايع واسعة بأسباب . وقد علم المصريون زراعة الكرم والمور
والخوخ والسمون والبرص والشمش والمور وجمع بقول الدلنا وحبوبها
من قمح وقصب سكر وبضائف وقرع وسحر وشيم وبطخ وحصار وفناء .
أهل كان هزريون لا يحهبون بعض اشجار الفاكهة ونكها كات
نادره الوجود فلم يكن في مملكة هزر كلها حتى دحوب المصريين الا أربع
عشره كرمه ولم يكن بها حصروب فقه .

وقد انتشب لجباره بفصل صهور محصولات جديدة في السوق
كالكس والقطن . ودامن الضيق وحلق نمدن وتوافد الحار الأجاب
ولعمل الأوروسين في داخل البلاد ولعابه بربيه الاعمام والشار
العملة .

ووحده لأول مرد في هزر إدارة منظمة وبوليس وحش وحرك
وقضاء وفوايين ولوائج . فتحم المصريون اعلان الزواج وتحليل عقود
البيع الخاصة بالعقار والبيوت والبساتين وأنشئت مصلحة للصحة
ومستشفى كبير ، وصدرت أوامر تنص على عدم خروج أي حثه من
أبواب المدينة دون اعلان السلطات المختصة .

وكان يقم في هزر ١٤,٥٠٠ مصري من مديين وعسكريين تروح منهم

من أهل المدينة واقبوا أملاكاً وأبقوا ما استطعوا في بناء البيوت
سلا بأوامر الحكومة لي كانت تريد أن تعطي مثلاً للسكان لينتافسوا
في لأحد بآداب لعمري . فلما أحيى المصريون ههر عى عجل بيعت
أملاكهم بالمزاد فخرجوا صامتين .

ولو ده الحكمة مصرى كما اعرف بذلك فصل انجلترا في
السومال لاغنى الجالا الاسلام . الذى هو حر ألف مره من لوثنيه .
ولمست مصر على ملايين من قائلهم المنشرة في قلب أفريقيا . ولو دام
ذلك الحكم لاقتل السومال من حالة الفطرة والجهل الى حال أخرى
ولدخول في ميدان الحضرة فوجا ولنحقق أمنة محمد محار رئيس
أركان حرب الجيش المصرى في بداية الفتح اذ كتب في ١٦ أكتوبر سنة
١٨٧٥ م . ان يؤف مصر في ظل حكومة اسماعيل حكومة واحدة
من بحر الازس الى حظ لاسوء . وان تصل مملكة ههر الى أعلى درجه
في لروحه و سنده في الشرق بعد مصر .

وقد وه محمد محار وأعوانه المصريون بأعمال حرافه حمله كانت
فحاحا حديد . من ذلك .

أولا - اكتشاف مناطق بين ربيع وههر ووضع خريطة لمديته
وصو حيا من صنع محمد محار وعبد الله فورى .

ثاب - اكتشاف ومسح المناطق بين بربرة والدوبار ووضع خريطة ها
من رسم عبد الرزق لطفى .

ثالث - اكتشاف مناطق بين تجورا وبحره أوسا بواسطة محمد
عرب .

رابع - اكتشاف مناطق نهر الجب وقسميو بواسطة صدقى
وعبد الرزق وحس واصف .

خامسا - وضع خرائط متنوعة دقيقة لههر وملحقاتها عملت بمعرفة
أحمد وعدى وعبد الكريم عرب .

وقد اعترف كثيرون من علماء الأجانب بآثار الحكم المصري . زار المهندس الإيطالي بريكيني هرر سنة ١٨٩٦ ورأى ما آلت إليه حاله فقال : « ان تبشير العصر الذهبي طلعت على هرر في أيام المصريين اذ أحدث البلاد تقى من غفلتها ونحما حياه جديده وظهر النشاط في الأرض فخرجت من غضون الوديان الوعرة جناب فاكهه وحقول حطة » .

وكب (بولينشكا) النموى في كتاب رحله يقول : « ان الاحتلال المصرى حادث كبير في تاريخ هرر وكيف لا يكون كذلك وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرفيه في بند همجى ونشروا التجارة وأمنوا لسل وباحله أحدثوا انقلابا خطيرا في أحوال هرر . و ان الذى يعرف الشرق ولا سيما البلاد لأفريقيه الخابية من أبط مبادئ الثقافة . لا يسعه الا أن يقرر أن المدينه المصريه تحتل مكانة عالية من المدينه عامه . ومن الثاب أن اسلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربره وجميع الساحل لغاية رأس جردفون كانت له ، في مجموعه ، نتائج ثوريه لا فى هرر فحسب بل في جميع القسم الشمالى من أفريقيا الشرقيه . نتائج لا أضل أن احتلالا آخر وصل اليها في أفريقيا » .

الفصل الخامس

امتداد السودان صوب منابع النيل

أخط سماعيل في حسابه إذ توهم أنه قد يكسب عطف إنجلترا ومعاونتها في تنفيذ سياسته الأفريقية بالاستعانة بموظفيها في حكم السودان وسط حدوده حوبا . فإلى هذه الإدارة المخلطة التي ظلت من سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ترجع معظم أسباب ثوره المهدي واضطراب الأحوال في السودان . وقد هب هذه الإدارة أولا على شؤون أواسط أفريقيا وأدلم خط الاسواء (صاموئيل بيكر ١٨٦٩ - ١٨٧٣ وغردون ١٨٧٢ - ١٨٧٦) ثم على شؤون السودان كافة بتعيين غردون في وظيفة الحاكم العام (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .

ويلاحظ أنه بينما كانت الأمور آخذة في الاستقرار وحركة الإصلاحات في تقدم مستمر في مناطق الإدارة المصرية النشطة في هرر وسواحل البحر الأحمر كانت شؤون السودان المالية والاقتصادية والسياسية والعمرانية في هذه الفترة في ارتباك مستمر .

١ - صاموئيل بيكر في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣) :

يجب أن نذكر أولا أن إنجلترا كانت مهتمة منذ الصف الأول من القرن التاسع عشر بتمهيد سبل الاستعمار في أفريقيا بواسطة المبشرين والمكتشفين فكان المبشر الألماني (كرايف) مندوبا لجمعية المبشرين الانجليزية وهو الذي اكتشف جبل كينيا في سنة ١٨٤٩ . واكتشف الرحالة

الانجليزى (اسبيك) بحيرة فكتوريا نباتا (نباتا بمعنى بحيرة) نبة الى الملكة فكتوريا (١٨٥٨ م) وهى أكبر بحيرات القارة تقع فى شاطئ أوغنده وفى جنوبها أفريقيا الشرقية الأمانة العديدة . ولا تبعد من المحيط الهندى بأكثر من ٦٥٠ كيلو مترا وهى تعد لهذا السبب فى منطقة أفريقيا لشرقية . وقد كانت وجهة اسبيك اليها من طريق ربحار والساحل وهو الطريق الطبيعى . وقد رار اسبيك فى أثناء رحلته أوغندا وملوكها اميرا .

وكان الرحالة برتون Burton بصحب سبك فى اكتشافاته وكلاهما كان تابعا لشركة لهذا الشرق . وقد اشركا معا فى الوصول الى منطقة البحيرات فى اكتشاف هرر وريبع وبربرة وما إليها . كل ذلك يلقى ضوءا واضحا على أمر من السياسة الانجليزية امية وعلى بعد نظرها وقدرة منفعيتها .

وقد اكتشف بيكر فى سنة ١٨٦٤ بحيرة ألبرت أو اليرب سائرا وهى أهم مائع النيل بعد فكتوريا . وكانت هذه الرحلة الأولى لحساب الحكومة الانجليزية . وكان طريقه فى ندهاب و لعوده يمر بالمهاجرة والحرموم وعونيد وكورو . وقد رار بيكر مملكة لاوسورو بحوره لاوغنده . وزار مملكها .

وصاهر من كتابات أولئك المستكشفين جمعا أن كراهة العرب الدين رحوا الى أفريقيا وتغلغلوا فيها مأسله فى نفوسهم سيما وأن أولئك العرب كانوا يمثلون لدنه وسط الطمجة والوثنة بلسهم وعفائدهم ومعاملاتهم التجارية وصفهم فكانوا المقدس الأول للأوربي لظامع .

وحسبنا ما كتبه بيكر نفسه فى كتابه (ألبرت سائرا) سنة ١٨٦٤ — وقد كان ذلك التاريخ يوارى بداية حكم اسماعل — فيه تبدو خطة قديمة معنة لتحقيق أهداف بعيدة كل البعد من الأهداف العلمية

أو الجغرافية الحقة . فإن بيكر في مقدمته . « ان المكتشف يفتح الطريق للمستعمر وأن هذا الأخير بدوره هو الأداة التي يتم بواسطتها بسط المدنية في العالم » وقال : « ان المجتري تمتد الوسائل التي تساعدها على نشر لواء المدنية وان الطبيعة قد رسمت لها مهمة استعمار العالم » .

وقد حمل بيكر في عصفور كتابه على الحاسنة وقال ان تجارده الرقيق مردهرة في لصعد و ن مصر لأتعمل على الصيوق عليها في ربوع السل وافرح أن تمنح الدول الأوروبية فصولها في مصر والسودان السلطة لكافة لمدخل والأسلحة على السفن المحملة بالعبد وتحرير الأرقاء . « ان كانوا وقال : « ان يدان احداها أسرعت الدول الأخرى الى التدخل حتى نحول بينها ومن الاستشار بوطاة النفوذ في مصر » .

فمحاربة الحاسنة مبدأ ثانى والكشف عن مبادئ السل غرض علمي . تحت ستار هذين الغرضين يجب فتح أفريقيا للتجارة والاستعمار .

فرض اسماعيل ان هذه الأعراض الواضحة الممددة ففكر منذ سنة ١٨٦٥ في املاك الساحل الافريقي للبحر الاحمر . ولا ريب ان العامل الأول الذي ساعد على سرعة انتشار نفوذ مصر في هذه الأقطار هو انتشار العرب المسلمين في داخل أفريقيا وبالأخص على سواحلها الشرقية وقد كان اسماعيل يعلم ذلك تماما ويعلم أن العصر الوطني هو العصر الوحيد لدى بح أن يوكل اليه مهمة المصح والتوسع في أفريقيا لحساب مصر . ولكن المجتري لم تكن بغافلة فاشأ أرادت التدخل كما رأينا تحت ستار محاربة الحاسنة وادخال العنصر الأجنبي في مصر وفتوحاتها ليمهد الطريق لها .

وقد وفد على مصر في سنة ١٨٦٩ ولي عهد المجتري ومعه الرحالة بيكر وطلب الي الحديوي تكلف هذا الأخير بمهمة في أواسط أفريقيا لحساب مصر وكانت أهداف المهمة :

أولا - اخضاع البلاد الواقعة في جنوب غوند وكورو لحكم مصر .

ثانياً — إلغاء تجارة الرقيق وإحلال تجارة نظامية مشروعة محلها .

ثالثاً — أن تفتح للملاحة بحيرات خط الاستواء الكبرى .

رابعاً — تأسيس سلسلة محطات عسكرية ومستودعات تجارية في
فريقا لوسطى على أن تكون عوند وكورو قاعدته تتوین ها .

وقد وكل اسماعيل بالاتفاق مع ولي العهد الى بيكر قيادة الحملة لمدة
أربع سنوات ابتداء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ .

ومذهر أن اسماعيل قد أفهم أن في مقدور سكر خلال جمع بلاد أعالي
الس ونظمها وصمها الى مصر في خلال السنوات الأربع وربما كان ذلك
مستورا لو أن سكر كان من المسلمين أو لو أن إلغاء تجارة الرقيق الى
ألفها الناس مئات لأعوام وأصبح جزءا لا يتجزأ من نظام حياتهم
ومعاشهم كان من طريق آخر غير طريق العنف والظفر .

وليس أدل على أن روح بيكر كانت روح معاصر حالي لإصلاح امشاكل
على وجوهها من أنه كان يعتقد أن مجرد انشاء نقطة عسكرية في منطقته
من المناطق من شأنه القضاء على تجارة النخاسة في هذه المنطقة .

كان تجارة العاج من العوامل الرئيسة في تجارة الرقيق لأن
مطاردة العبد وحدها كانت لا تأتي بالرجح الوفير ذا سبق أولئك الى
الساحل فارعى لا يدى فكان لجار العرب أو البرتغاليون في عزوهم
المسلحه ينتهبون العاج ويحتمون الرحا والنساء والاصول أسرى وعبد .

وكان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما بالخرطوم محكرين تجارة
العاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو ررئب بالعرب من بحر لعرال
ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع وأعوان في كل مكان
فكانت مصانعتهم أمر لا بد منه .

وصل بيكر الى الخرطوم في سنة ١٨٧٠ وبعد أن قضى فيها عدة
أشهر غادرها في ١١ ديسمبر فبع غوندوكورو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ .
وفي ٢٦ مايو أعلن ضمها رسميا الى مصر وسماها « الاسماعيليه » نسبة
الى اسماعيل .

وقد ألف بيكر فيما بعد كتابا خاصا بهذه الرحلة عنوانه (الاسماعيلية
أو تاريخ اجلة المرسله في أفريقيا الوسطى للمضاء على تجارة الخاسة) .
ظاهر من هذا العنوان ومن كل أعمال بيكر أنه على الرغم من أن
المضاء على الخاسة لم يكن إلا أحد الأهداف المرسومة لخطته فقد
تجمع الأهداف كلها ونضأت في ذلك الهدف وحده وفي وسائل العنف
التي استعملت لتحقيقه .

كان مقام بيكر في عوندوكورو بدير شر لانه . ساء معاملة قبائل
الباري انصاره حول مدينتي عوندوكورو ولادو . وقد استعان في
نظمه لطائفة من الحشد المصريين المدربين يرأسهم الكولونيل المصدر
عبد القادر بك^(١) . ونش تعلق عليهم فانه لم يخضعهم ولم يكسب مودتهم
بعد أن عمل فيهم القتل والنهب واسوأ على قطعان انصارهم وحرافهم
وعلى درهم لنموين جنوده .

من أجل ذلك نزل الخالة فتمه مضمه وكان الأجناد عاكفين في داخل
المدن لا محروأ أحدهم على الخروج حتى لا يعرض حياته للخطر .

كسب حسي الانصار الذي سحب عردون حلقه بكر وهبط مدينه
لادو في أكتوبر سنة ١٨٧٤ يقول : « ان سكان لادو نزلت بهم فوادح
كثيره في أيام بيكر من ذلك أن بيكر طلع ذات يوم على المدينة وبصحبه
ثلثمائة مقاتل وناغت السكان مستوليا على اثني عشر ألفا من البقر ولم
يترك لهم في لوف نفسه من الاذره شيئا . ومن ذلك الوقت ارداد
الفقر في المدينة وكان لا بد لها من سنوات طوال تستعيد فيها عدد البقر
الذي فقده وكان المصدر الوحيد لثروها^(٢) .

١) الكولونيل عبد القادر بك غير عبد القادر باشا حطمي وزير السودان
وحاكمه بعد رؤوف وغير اسماعيل باشا عبد القادر حاكم سواحل البحر
الاحمر وقد كان الثلاثة من العبقريين .

٢) ظهر بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ مقال في جريدة « النيل »
دفاعا عن بكر وقد رد على هذا المقال في نفس الجريدة بتاريخ ١٢ أغسطس
سنه وليم « رئيس المكاسكيين في حملة البحر الابيض »

أي رفيق بيكر بمقال جاء فيه :

« وبصحبتي الآن اسماعيل أعا وهو أحد الضباط الذين أبوا بلاء
حسا في عهد بيكر وقد قص على هو وجنوده أعمالا ارتكبتها الحاكم
العام بنغ من فظاعتها ان القلم لا يظاوعى في وصفها (١) » .

وفي يناير سنة ١٨٧٢ الحة بكر صوب الجنوب . وأثت في أثناء
الطريق نعطه عسكريه في فاتكو لتي كانت مركز النخاسين .

ولما بلغ مارندي عاصمة الأونورو كان فظا في معاملته ملكها
كاريحا الذي ذهب لسمه اى لحكم المصرى فحاول أن يسيطر عليه
بالخوف وعامله باحتقار ونظر اليه نظرة السيد الى « العبد الخصى »
— على حد تعبير الملك نفسه — فانهز خصومه هذه الفرصة للايقاع
به فما كان منه الا أن أعلن رسما عن كاريحا من الملك وصم مملكه
(١٤ مايو سنة ١٨٧٢) . على أن ذلك لم ينعته من الاضطراب عاجلا الى
الفرار والعوده بعد تدويع رحاله وارهاقهم في بلاد وحروب وعرة .

وقد قام بيكر في أغسطس بحمله حربيته في فاسكو ضد أبي السعود
لعقده فسكر من القبض عليه ومصادره العاج في جمع شونه .

عاد بيكر الى غوندوكورو في أول ابريل سنة ١٨٧٣ اذ ينتهى
أمد مهمته وهناك دلف الى القاهرة تاركا القباده اى رءوف بك
(رءوف باشا حكمدار هرر فيما بعد) .

فتنا ان بيكر لا يفكر الا في العنف وفي وسائله وقد بلغ به
الأمر أنه كان يفكر حديا في انشاء قوة جديدة من عصابات أبي السعود
المسلحة بسعين ٣٠٠ في تحقيق مهمته يصح ذلك من خطاب هام وجهه

— « اننى افصل عدم ذكر تفاصيل مظائع هذه المحارر الى ارتكبت بكل
هدوء . وان طائفة من الهجمات العديدة التي شنت على الوطنيين الامين
في صواحي غوندوكورو قد قام بها صموئيل بيكر شخصيا . وكان يسولى
في هذه الهجمات على ٣٠٠٠ رأس خروف ، ويعمل السلب والنهب في
الساكن ثم يشعل النار فيها . وكانت سرقة النهاب ليس الغرض منها
ايجاد عدا للحدود فحسب بل يوربعها على القبائل الأخرى بشرط أن يصم
الى بيكر وتعمل تحت رايته . . »

(١) أنظر كتاب جسي باشا (سبعة أعوام في السودان) الطبعة الانجليزية
أو الايطالية .

اله الخديوى في فبراير سنة ١٨٧٢ جاء فيه « لقد وصلى التقرير الذى
 بعث به في أكتوبر من محطة الاسماعية حيث وصلت بعد رحلة استغرقت
 أكثر من خمسة أشهر ... ان المهمة التى منحتها العقاد لمغادرة السودان
 وترك تجارته فيه قد أوشكت أن تنهى ومن ريث ضم رجاله الى جنودك
 وحلائهم محلهم تدرجاً انى أخالفت في هذا رأى اذ أن مهمتك في
 أساسها مهمة سلام وتقديم . انك مكلف باستئصال السكان الى الرجال
 « البيض » الذين ما دخلوا بلداً من بلادهم الى الساعة الا للفصل والنهب
 والاستيلاء على الأسرى والعبد . ان الشقة بينك وبين الخرطوم طويلة
 صعبة فوطد مركزك ودعّمه في غوندوكورو واجتذب الناس اليك لقد
 أظهرت بذكاء لقائى السارى فأنصر الآن عدلك نحوهم وتفرق عليهم
 لضمّوا اليك والى غاياتك ... كل هذا العمل المادى والروحانى
 نصب منك وقفاً طويلاً لا أدري كم مداه ولكن الذى أعلمه انك منى
 أدبته الى حد ما وأنت مقيم في غوندوكورو فسينفتح أمامك الطريق
 الى البحيرات ويصبح ميسراً (١) » .

انقرا الى شرباها من هذا الخطاب تدب بصراحة على بعد المسافة
 بين وجهى النظر الانجليزى والمصرى . فاداً نعلم بغير تجاهل وجهة نظر
 مصر أو عجز عن اداء المهمة التى نيّطت به فالتبعة عليه .

وقد كلف هذه الحملة مصر أكثر من مليون جنيه وكانت نتائجها
 باهية لا تعدوا انشاء ثلاث نقط عسكرية وحط حدود خالى تألف منها
 مديريه حص الاسواء . ولم يكن الطريق بين هذه النقط غوندوكورو
 فاسكو فوير — مأمونا معدداً .

على أن نتائجها الأدبية في تسوية سمعة مصر وانقاص هيبتها بين
 سكان تلك المناطق النائية كانت كبيرة . ولعل ذلك كان في صالح السياسة
 الانجليزية فقد كتب عضو في الوزارة الانجليزية ان يسكر على أثر عودته
 الى لندرة في أواخر سنة ١٨٧٣ يقول « مهما كان من أمر تجارة الرقيق

(١) سجلات عابدين . خطاب من الخديوى اسماعيل الى صامويل
 بيكر في فبراير سنة ١٨٧٢ .

فإن حدث لابد أن تكون أدب إلى بسط النفوذ الانجليزى في مصر .
كم سننظر من الوقت حتى يكون لنا سفن بحارية حاملة العلم الانجليزى
في البحيرات ويكون لنا خط موصلات منتظم يصل البحيرات بالقاهرة ؟
اننى لا أعرف في الوقت الحالى في العالم شيئا يعدل في عظمتة التقدم
المطرد السريع الذى يصحب تغلب في قلب أفريقيا . ومن الثابت الذى
لا ريب فيه أن الطريق يمر معظمه في الأراضي المصرية »

وبعد ذلك بأربعة أعوام في سنة ١٨٧٨ . أى قبل خلق اسماعيل بسنة
واحده كتب بيكر نفسه يقول عماسة الجدل الذى حدث وقتئذ حول
المسألة الشرقية بعد امضاء معاهدة برلين « لا يسعى الا أن ألظر مقبضا
لى البحيرات التى حدثت في مصر وإلى اطراف ارياد النفوذ الانجليزى
فيها منذ سنة ١٨٦٩ اذ وظف الخديوى لأول مرة انجليز ومنحه السلطات
المقطعة للمصا على بحاره الخاصة في أفريقيا الوسطى . وقد كان ذلك
الاجراء بمثابة الحجر الاول في أساس الاصلاحات التى تم بعد ذلك .
فما كاد مهمى انتهى في سنة ١٨٧٣ حتى عين غردون حلفا لى فصار
على النهج . وقد ساعد بحارته بحاره الرفيق على فتح الباب لمدخل
لانجليزى فاصبح ملكولم باشا في خدمه الحكومة المصرية للمصا على
هذه التجارة في البحر الأحمر وأصبح ماك كيلوب ايضا باشا وبذلك
أسبغت سلطات واسعة على أربعة من كبار الانجليز .

« والواقع أن سدا مهاجما — كانجليز في كل عصورها — ليس
في مقدوره أن يقف كما يشاء في زمان أو مكان يرضيه . نحن مدفوعون
الى الأمام ومضطرون بقوة الظروف الى مد حدودنا ولو لم يكن ذلك
مع رغباتنا (١) » .

ولا شك أن هذه الحقائق الصريحة تلقى صوءها على حمة بيكر
وتكشف عن العوامل الرئيسة التى أدت الى فشلها وفشل مهمه
غردون وعمره من الانجليز أو الأجانب الموالين لهم الذين منحهم مصر
ثقتها لاعلاء كلمتها ونشر نفوذها في ربوع أفريقيا .

(١) Murray & Silva White, Sir Samuel Baker

الفصل السادس

٢ - غردون في أفريقيا الوسطى

(١٨٧٤ - ١٨٧٦)

عاد بىكر الى القاهرة في أغسطس سنة ١٨٧٣ وقدم استقالته من وضعه حاكم « مديريه حص الاسواء » . وفي العام التالى (١٨٧٤) خلفه غردون في نفس الوظيفة . وكانت مهمته الرسمية بوسيط بين مصر ومدها الى البحيرات . وقد نجح الى حد فى تنفيذ الشطر الأول ولكنه تردد وتمكنا فى تنفيذ الشطر الثانى بحسب صفت السياسة الانجليزية .

سعى غردون الحزماء فى ١٣ مارس سنة ١٨٧٤ ومعه الصابط الأمريكى شاتى بونج والمهندس المصرى ابراهيم قورى والضابط حسن واصف والمهندس الايطالى روميلوس حسي والمهندس الفرنسى ليلان وصائمه اخرى من لضباط والمهندسين الانجليز

وفى اواخر سنة ١٨٧٤ جعل غردون عاصمته فى لادو وكان يفكر جديا فى اتحاد المواصلات منتظمة بين النيل والبحيرات وتسيير سفن بخارية فى بحيرة فكتوريا سيرا ، ولكن شغله الشاغل الأول كان حل مشكلة المواصلات بين مديريته ومصر اما عن طريق الشمال (لخرطوم النيل) واما عن طريق الشرق (أوغندا - ساحل أفريقيا الشرقية) .

جاء فى يومياته بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ : « لقد اقترحت على الخديوى أن يرسل سمية بخارية الى خليج مونيابة الواقع على

بعد ٢٥٠ ميلا في شمال زنجبار وأن ينشئ هناك محطة لتتقدم منها صوب
ميرا ملك أوغندة . فاذا نجحت في تنفيذ هذه الخطة جعلت قاعدتي
في موباسا وتركزت الخطوط والمراكب البخارية ومنابعها .

« وبهذه الطريقة يمكن فتح الطريق الى أواسط أفريقيا بطريقة عملية
ناجحة خصوصا وأن أجل النفع في هذه المناطق هي الأراضي العليا
الوشكة من اميرا في حين أن البلاد الواقعة جنوبا . من لادو الى
الخطوط كلها مستنقعات » .

وكان تدبير الأمر يقضي عوده لونغ الى مصر ليتولى بنفسه اعداد
الرحلة المتفق عليها بين الخديوي وغردون . وقد تمكن لونغ قبل عودته
من امضاء معاهدة مع اميرا ملك أوغندة . بتاريخ ١٩ يولييه سنة ١٨٧٤ ،
يعترف الأخير فيها بحماية مصر .

وقد سبق ذكرنا أن هذه الخطة التي اشترك فيها لونغ ورأسها ماك
كلوب باشا (سبتمبر - ديسمبر ١٨٧٥) قد بلغت نهر الجب في اتجاه
موباسا وفي أقصى حدود « السومال لايفاي » ولكن انجلترا باسم
حقوق زنجبار على الساحل أرغمت مصر على احلاء جميع المين الى احلها
بين رأس حافون ونهر الجب .

وكان اسماعيل في بداية حملة الجب وفل احلال المين على ساحل المحيط
الهندي يرى أن بلاد السومال جميعها تؤلف منطقة النفوذ المصري . بدل
على ذلك ما كره الى غردون بتاريخ ١٧ سبتمبر (١٨٧٥) في كتاب يقول
فيه : « ان مصب نهر الجب تابع لهذه المنطقة . وهو النقطة التي
تفصل على الساحل بين أراضي زنجبار وأراضي اسسومال . وجميع
الخرائط تبين هذا الحد . ولأنت أن جميع أراضي السومال التي تحل
الآن فعلا المسم الشامي منها أصبحت تابعة لك لساحلها الشرقي كما تبيننا
ساحلها الجنوبي . فاذا ما فتحنا طرق بين البحيرات ومصب الجب فتحناه

في أرضنا نحن . ولا يريد هذا الطريق إلا تقدير مائة ميل عن طريق
فورموره (الذي اقترحه غردون من قبل) وحسه أنه يضمن من العوائق
الخارجة (إشارة إلى الانحصر) .

وفي سنة ١٨٧٦ (بعد فشل حملة الجب) قرر اسماعيل فتح طريق
بين هرر وبحره فكتوريا بالاتصال بمواف غردون واتحاد مواصلات سهلة
للتجارة بين البحيرات والساحل (ريلغ وبربرة) . وقد صدرت التعليمات
إلى قائد هرر « بأن يفتح بالدريج طريقا لغاية كابترا Capitzza
على سواحل فكتوريا » .

ولأجل فتح هذا الطريق الأخير كان يجب أن نوسع مصر قدمها
أولا على سواحل فكتوريا وفي أوغنده ولكن إنجلترا كانت لها بالمصاد
على أن الطريق من ناحية هرر يفصل بضم المدينة المصرية وإشراك الإسلام
كان يفتح رويدا رويدا خصوصا من ناحية الجالا . ومعلوم أن هذه
المسائل كانت تحت الحراسة وإن الجيش احتل هرر سنة ٨٧ (بعد أن
رغم إنجلترا مصر على احتلالها سنة ٨٥) ون منليك الثاني الذي
أصبح ملكا في نوفمبر سنة ١٨٨٩ هو أول من دعم بمئات الخيالة
وأخضع لأول مرة إحصاءا فعب مسائل الحالا في شرق الحبشة وفي الجنوب
والغرب . فمكن من زيادة مساحة لامراضوريه إلى الضعف تقريبا .
ه ذلك بضم مناطق واسعة من الأراضي إليها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن
الحبشة أسوت على مضمه أوجادين الواقعة في وسط شبه جزيرة
السومال والتي كانت في صميم مضمه النفوذ المصري تبين لنا مقدار
ما أصاب مصر وعاق بضم المدينة في هذه الأرحاء . وقد ظل سكان
هضبة أوجادين مستقلين فعلا تحت راية المهدي عبد الله الذي ظل منذ
سنة ١٩٠١ يجاهد ويعلن الحرب المقدسة على المشركين .

كان موقف إنجلترا الحاسم من التوسع المصري من ناحية مونتاسه

والساحل ومن ناحية أوغندة ومنابع النيل من أكبر العوامل التي وبكت
غردون في أداء مهمته فانقلت عبره الظهرة على مصالح المصرية في
سنة ١٨٧٥ الى تردد وحيرة واضطراب في سنة ١٨٧٦ .

كتب غردون من موجي في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يقول : « انه
سندم صوب البحيرات ليرفع هناك الراية على السبيل . . لأن مصر
يجب أن تهتم على البحرين جمعهما : فكورينا وألبرت » .

وقد أرسل في يناير سنة ١٨٧٦ الصابط المصري نور أنعا (نور بك
محمد) وروده بالتعليقات الآتية : « سل امتيزا اذا كان يريد قوت مصر به
في أورودو حاني فاذا قال « نعم » فزره واذا قال « لا » فذهب الى
سامو نحو لأن هذه صحفه لاحد كات تاعه لكادر بحا وقد أصبحت دعه
لنا الآن بعد أخذنا امرولى » .

وعلى الرغم من مطهر التردد والاضطراب الذي طهر به غردون في
مسلكه فان امتيزا اعتقد أن مثل الدولة « الحامية » جاد في أمره وتقدمه
لاستقبال الحامية المصرية ، لا في أورودو حاني . ولكن في عاصمه .
روباجا .

علم بذلك غردون في ٢ أغسطس (١٨٧٦) من خطاب أرسله نور ع
فكتب اليه : « بما أن هذه هي رعه امرا نصه دني سائر المائة وسين
جنديا هناك . وهو وحده المسئول عن ذلك . وقد كنت أريد أن يحفظ
استقلاله وهذا السبب كتب احرب صديق لسل أورودو حاني
وكوسرا (شلالاب ربيون) - ولكن الآن وقد أصبحت ك حامي
في عاصمه فان فوه صغيره نكفى لحراسه هذه الأماكن . وسكون نصبه
الأسر ذالم يلزم الهدوء . واني أرى الآن في قصه يدي بحاره وبحر
كلها . الواقع أن استقلال امبرا أصبح في حكم المفعود » .

والمعجب أن غردون منذ إرسال ضابطه في يناير كان يجب عليه أن يستمر في اتجاهه نحو الجنوب وأن يذهب على رأس قوة جديدة إلى بحيرة فكوريا وعاصمة اميرا (وهي تقع في شمالها) لتؤيد معوثه ، ولكنه بدلا من ذلك اتخذ طريق الشمال وقتل راجعا طارحا مهمته وراءه . ومن أعمال غردون التي تتم عن قلبه وعدم استقراره مصادره بتبليغه برقا الحديوي ما حدث في أوعدة . وقد بدر الحديوي من ناحيه يمنحه لثان المحدي ولكن في الوق الذي وصل فيه رد الحديوي كان غردون قرر من تلقاء نفسه اخلاء أوعدة إلى احدها المصريون شهورا بحجة أن الجود كانت في « موقف حرج » وأنه لم تكن من « حس السياسة » حجة طلب امتيزا .

وقد عاد الجود من عند امرا في ٩ سبتمبر وكان يرفقتها الدكتور أمين الألماني (ادوارد اشفيلتر) الذي أرسله غردون لمفاوضة الملك في أمر انسحابهم (١) .

١ كتب برنارد الن في كتابه (غردون والسودان) الذي ظهر في سنة ١٩٣١ يقول : « بعد احتلال مازندي عاصمة الاونيورو أرسل غردون فرقة من الجود لاحتلال ماحوحو في أقصى حدود ممسكة كاناريجا العرسة وعلى سواحل بحيرة السرب . ثم سار جنوبا بعد أن اقام خمسة ايام في بورر واسمر في امرولي حيث انشا محطة أو نقطة عسكرية . وكان في سه وقتئذ ان يمعن في تقدمه نحو الجنوب ويحتل نقطة على ضفاف بحيرة فكوريا ، ولكنه فضل بعد لاي العودة صعدا إلى الشمال . وقد اكتفى بكليف الصبيط المصري بور اما بالذهاب إلى أوعدة لاساء قطعين احدهما في اورويندو حاس على حدود اميرا الشمالية والآخرى في كوسيتزا على بحيرة فكوريا .

« وقد عاد غردون امرو في ٢٤ يناير وسما كان يكسف البيل من دوفلة إلى اشحيرات وسنه في ماحوحو كتاب من نور اما انه بناء على طلب امتيزا وضع حامية في عاصمته روياجه على ضفاف بحيرة فكوريا » . وكتب الدكتور فيلكين في تعليقه على مذكرات أمين باشا وهو من المبشرين الانجليز الذين حبوا واسط امريعا في عهد الحكم مصري ورواوا

وقد استمر غردون في طريقه شمالا حتى وصل الخرطوم في أكتوبر .
ومن هناك عيم القاهرة ثم لندرة ...

وظاهر أن غردون اذ مع مصر من توطيد قدمها في أوغندة وعلى
ضفاف فكتوريا . بعد أن احلت عاصمتها . قد فعل ذلك لتفادي اعصاب
الحكومة الانجليزية فقد كتب من امروى بتاريخ ٩ سبتمبر (١٨٧٦)
يقول : « لقد عادت الجنود من دوابجة (يريد روابجة) . ان امتيزا على
النصار مسنر برنجار .. ويظهر أنه يحفل أن بعثة الانجليزية (مؤلفة من
فيسس وضابط بحرية وعمال ..) في طريقها اليه . وقد سجت جنودى
فل وصولها .. »

وفي أول سبتمبر سنة ٧٦ أرسل غوردون من امروى مذكرة خاصة
بالبعثة الانجليزية في أوغندة الى رئيس أركان حرب الجيش المصرى
(وصلت في ١٣ نوفمبر) جاء فيها . « بما لاشت فيه أن ارسل بعثة
مسححة عند الشعوب الوثنية أمر لا اعتراض عنه . وانكما إذا درسا
تكوين بعثة أوغندة نهر لنا أنها ليست مسيحية في جوهرها اذ أنها تآلف

— أوسده .. وقد اظهر لى اميرا مرارا كل تقدير للضريبة الى خافض بها
امين على استغلاله وقت ان كان مهددا بصرفان نور بك غير الحكمة
ا كذا .. وكان نور بك قد ذهب الى عاصمته على رأس سمانه حذى
مصرى ليضم أوغندة الى مصر . وقد كان بصرف نور بك يعارض تماما
مع اوامر غردون باشا . »

بضيف الى ذلك ان امين باشا هذا الذى خلف غردون في مديرية خط
الاستواء ذهب في مارس سنة ١٨٨٢ الى الخرطوم لزيارة عبد القادر باث
حلمى ونجح في الحصول منه على أمر باستدعاء نور بك محمد الذى كان
وقتئذ القائد العام لقوات خط الاستواء ، والضابط بحيت بك بطرقى
كبير ضباط مركز مكركا .

ويرى (فيتا حسان) وهو يهودى تونسى كان يشتغل مع امين ومؤلف
كتاب بالالمانية عن مديرية خط الاستواء « ان استدعاء هذين الضابطين
المجرىين سببه غيرة امين وخوفه من نفوذهما » .

من قسيس . وصالح من البحرية الملكية . وطبيب ومهندس معماري .
ومهندس ميكانيكي . وأستاذ . ورجل رراعى . واحصاصى فى بناء
لبنى .

« فهذه البعثة اذن أشبه بجريده استعمارية . وهذه الصفة يجب
أن تنظر اليها الحكومة المصرية .. »

« وانى واثق أن تنظيم هذه البعثة التمديدية من عمل صموئيل بيكر .
وقد وصلنى من المجلثرا خطاب يشتمل على نده من خطاب كتبه صموئيل
بيكر الى الرحالة جرافت جاء فيها :

« اننى متعب من تلك الفتوحات المصرية ... وانى لأعجب كيف
لا يذهب أحد القتيان ومعه مائة بتدقية سنيدر ليحصى امتيزا ويسطم
حنوده . ولولا عوائق الأسرة لذهبت بنفسى » .

« ولا ريب أنه من الأفضل كثير فى الوقت الحالى أن يستخدم سمو
الحدوى الصاص الأمريكان بدلا منى . لأننى لا أحب الكتابة فى الصحف .
ونصفى المجلثريا وصالحا فى خدمة صاحب الجلالة لست أملك من الحرية
ما يمكن » .

والقريب أن عردون مع تنحه عن مهمه وعجره عن تنفيذها لتعارضها
مع ساسة بلاده سيعمل تخرد عوديه الى لدره على العودة ثانية الى
السودان بسلطات واسعة يستعين بها على تحقيق أغراض بلاده .

الفصل السابع

غردون في السودان

(١٨٧٧ - ١٨٧٩)

عاد غردون الى لندره بعد ان صدع بوامر وزارة خارجية بلاده .
وادعى انه وضع حدا لحدود الحاسة في مديريه ولكن بقي أن
يضع لها حدا في جميع السودان . وهاهنا أنه يحس سار الحاسة لى
رغم بكر من قل أنه قضى عليها كان غردون يطمح بصره الى منصب
الحاكم العام . لا في مديريه حظ لاسواء وحدها . بل في أقطار الوادى .
ذهب غردون ثابته الى القاهرة وأرسل الى الخديوى في ١٠ فبراير
سنة ١٨٧٧ شه اذار يقول فيه « اعطى لسودن والافس أسافر » .
ويدخل في الأمر فضاء فصل إنجلترا وحمل الخديوى على كره منه على
موت طلب غردون وعينه حاكما عاما للسودان في لوم السابع عشر .

وكانت إنجلترا في ذلك الوقت واقعة تحت « كابوس » الوسع
المصرى صوب منابع النيل ، وكانت العرائض تقدم كل يوم الى الحكومة
لإنجليز . يعلمها وتشجيعها . للمطالبة بتبع الخديوى من بسط سيادته
على مناطق أفريقيا الوسطى . حوالى البحيرات .

سأل فيمان . بناء على تعليمات حكومه . غردون في موضوع
وأجاب بانه مرتبط بتعليمات الخديوى الى ينحصر عليه بمقتضاها أن يقدم
في هذه المنطقة وأن يضع سفينة بحارية في بحيره فكوربا . على أنه عرض

حلا وسطا يقضى بأن تعلن مصر . بمجرد الانتهاء من هذه المهمة . حيدة البحيرة وأن تعترف في الوقت نفسه باستقلال امتيرا بشروط عادلة (١) . وأخيرا عرض غردون حلا آخر تدارك مصر بمقتضاه عن بحيرة فكوربا على أن يكون لها الحق في الاحتفاظ بمملكة أوروجا الصغيرة على البحيرة وبمملكة الأوسورو وبحيرة ألبرت . ولكن الحكومة الانجليزية طالبت بأن تحو مصر عن جميع المناطق الممتدة حوالى البحيرات .

وهذا ما حدا بغردون في سنة ١٨٧٨ الى ارجاع الحدود المصرية الى منطقة خلفه بعيدة من بحيرة ألبرت نائزا وأمر الدكتور أمين الذى خلفه في أفريقيا الوسطى باخلاء المحطات الحوية مع مارندى (عاصمة الاسورو) تحت نصح دوفيه (على بعد ١٠٠ ميل من ماجونجو ومن بحيرة ألبرت) أقصى حد للأراضي المصرية في الجنوب .

روى مساحسان (٢) . أن أمين حاول التخلص من هذا الامر . وبدلا من اخلاء المحطات عهد اليه على بسط مديريته الى أبعد حدود بحيرة ألبرت . ولكن غردون تمسك بقراره وكلف الايضى حسى الذى كان موجودا وقتئذ في بحر الفراء بالذهاب الى خط الاستواء وتقسيم الاخلاء (٣) . ولكن ما كاد غردون يترك الخدمة في السودان (١٨٧٩)

١ . سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ . مجلد ١٤٧٢ . القاهرة في ٩ ابريل سنة ١٨٧٧ .

٢ . مساحسان الحقيقه من أمين باشا) بالالمانيه

(٣) كتب فينكي في سنة ١٨٧٨ عن ملك الانيورو قائلا : " ان كاتريجا مايست يرعي المحطة ماجونجو) بهجماتاته . ومما يؤسف له حقا أنه لم يقص على ذلك انحكم الطالب وكان ذلك مبسورا بعيد قريب لولا المعارضه القويه التي اثارها في انجلترا قوم بطرون شعور عبرى التي كن امداد للأراضي المصرية صوب الجنوب " .

وفي أغسطس سنة ١٨٧٩ أكد فينكي أن من أعمال غردون الأخيرة قبل ترك منصبه اصدار الامر باخلاء الأوسورو " ولذلك احلب محطات اسروبي وكودج وكيرو . اما مارندى وكيسوبا فكانت أحيت قبل ذلك عامين . وسب في الوقت الحالى محطات أو فقط عسكريه بتدبيره لحراسه الحدود الحويه كما أن مديريته مكراكا ادمجت في المديرية الاسوانه =

حتى استعاد أمين المحيطات المتروكة . وقد اكتسبت فيها بعد قمية كبيرة .
كان غردون في أثناء هذه الحوادث عين أمين محافظا لسواكن (على
البحر الأحمر) عقابا له . ولكن بعد رحل غردون ألغى خاتمه رؤوف باشا
هذا الأمر وأبقى أمين في وظيفته .

وليس أدل على سوء القصد على غردون وحث سويه من ادعائه في
احدى رسائله . بتاريخ ابريل سنة ١٨٧٩ . بأن « حكا لمصريين في هذه
القطار اللائه حكا فطاع طرق » تبريرا لقوله « بأنه أخلى أكثر من
نصف البلاد التابعة لمصر في حظ الاسواء » وان « ٣٠٠ ميل أصبحت
تفصل بيننا وبين امتيزا الآن ^(١) » .

تلك كانت الطريقة التي تم بها غردون تعيين الخديوى الخاصة
بسط السادة المصرية على بحره فكتوريا وجعلها بحيرة مصرية .

وكان غردون يريد تفويض السيادة المصرية في السودان وهرر :
وغير حاف أن الارباك الملية والسياسة وللدخل لأحصى في مصر كات

« وقد تكلم فسكر عن قسم مديريه حفظ الاسواء » ان الدكور
امين هو الآن (١٨٧٩) الحاكم لهذه المنطقة الواسعة . ويوجد ثلاثة
مدبرون او وكلاء للحاكم . واحد في مكوا ، واحد في كبرى وواحد في
ماحونجو . وهم يقتسمون المحطات بالتساوى تقريبا . ويوجد في كل
محطة وكيل او مدير مدنى وقائد عسكري .

ووصف فيلكن العاصمة لادو فقال انها مدينة مشيدة باحكام
وان المستشفى والجامع والمباني الحكومية كلها مبنية بالطوب الاحمر
وعليها سقوف من حديد . وان اسوارع مسعبد وان حول الجدران
جنائى واسعة فيها من الحضرات والسكر كل نوع وان ريب السادوف .
وقد اشئت المحطات الاخرى على نمط لادو . وكان رؤساء المديون
والعسكريون من المصريين او السودانيين . فكان قسم مقر مديرا لكونج
ومرجان الدناصورى مديرا لفاتيكو وفرج احوك مديرا لامرولى وسعيد
ابو حطب وكيلا في رجاف (أنظر Wilson & Fekri, UGANDA & THE EGYPTIAN
TIAN SUDAN 1882.

Hill, Colonel Gordon In Central Africa, p. 349. (١)

وقتئذ في أشدها وكان عردون تلقى دعوة في فبراير سنة ١٨٧٨ لرئاسة
« لجنة التحقيق العليا » فلما وصل الى القاهرة رفض كل تعاون مع أناس
« سولوا على حكومة البلاد بطرق غير شريفة » وقرر العودة الى
السودان .

في ٣٠ مارس (٧٨) تم عردون السويس ولكنه بدلا من ان يذهب
الى الخرطوم لتعالج لاجوان هناك رأى ان يقوم برحلة تفتيشية في مناطق
السودان وهرر . في شهر أبريل دار ربيع وهرر ولكنه قبل
وصوله الى هذه المديرية لاجل حيرة هرر عرف رؤوف باشا الذي كان يقعد
حظه الشائه واسعه في أفريقيا الشرقية المصرية .

وحصله الامر في رأى كاتب القضاء . « ان المركز الضخم الذي وصل
اليه رؤوف باشا بمؤذنه الشخصي كان يشتر العبد والقل في نفس
عردون » .

ولواقع ان عردون كان نائب امير هذه امرة كان يفكر في تعيين
أورنى مثل صامويل بكر الذي كان نعمة على المديرية الاسوائية مكان
الحاكم المصري وقد رفض بكر . فكسب عردون الى الرحالة يبرون
الذي كان وسند فصلا لاجلجيرا في مدينة ترسا فرفض بدوره . على ان
الخدوي الذي لم يحسب عردون لسلمه حسابا الى الا ان امير مصر
حينما لرؤوف باشا . ولكي يؤمن هذه المناصب من شطط عردون اتسع
في شهر ديسمبر (٧٨) هرر واسومات من شراف الحكم اعلم بالسودان
فأصبحا تعين بمهارة رؤسا وبذلك نبت هذه المناصب بمعرب عن
الموصى الادارية والساسة التي كانت صارية تمثيلها في السودان في
لعهد الاحمر (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .

والواقع ان عردون لم يكن رجل اذرة او سياسة . وكان يحكم
السودان كانه نائب الملك في اهد حكومة مصطفه قائمه على مبدأ تجاهل

خديوى مصر واحلال الأوربيين أو السودانين من طقه خاصة محل
المصريين فى الوظائف العامة .

قال فت حسان فى كتابه : « ما كاد عردون يحل منصبه حتى كان
أول أعماله لإدارة طرد الموظفين القدماء وتكوين بصله من أشخاص
عديى النصارى من أهل البلاد رفعهم دفعة واحدة الى مراكز لم يكونوا
أهلا لها إطلاقا . وقد حدث فيما بعد . فى بدايه الحركة المهديه . أن أوائل
الموظفين كانوا أول من انقلب على الحكومة ونقض عهودها وأسرارها .
» وقد عزلته هذه البطالة عن الأهالى واحترأت فى ضلته على ارتكاب
كل السوى ودفع السودان كله فى أحضان الدس وراى لطين بله .
« ولاشك أن المراسم والأوامر التى لا يبرح يناقض بعضها بعضا
وتدخل إداره وضعه وموظفين غير أكفاء أوجدت ارتكابا عاما فى أحوال
البلاد . ولبس أدب على فساد حكومه لسودان واحلالها فى عهد عردون .
من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٩ . من العريضة التى رفعها نحر البلاد
وأعانها الى الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٨ » .

وكان المستوى سلاطين بك (باشا فيما بعد) عين فى عصور
سنة ١٨٧٩ ممثلا للبلاد ثم حاكما لدارفور . وقد تكلم عن أحوال
لسودان ابدى الثورة المهديه وقلها فى كتابه المشهور (الحديث ولبار فى
اسودان) . جاء فيه بخصوص العهد الذى نحن بصدده : « فى العهد
الأخير بوجه خاص كان السودانيون الذين وصلوا الى عليا المناصب
وكذلك أقربائهم المعصون فى الوظائف الصغيرة . يعملون على الإثراء
فى قصر وف . وقد عين عردون الساحر الثرى اليس باشا مديرا
لكردفان فاستاء خلق كثير . وقد خفف عبد الرحمن بك حاجى الناس باشا
مديرا وكان مثله تاجر من كردفان . . . ولا ريب أن الروح « التجارية »
انتشله فى مهنتهم كنجار كانت لسوقهم الى استغلال البلاد لمصلحتهم
المادية ومصلحة أقربائهم . . .

« ولما كان من الصعب تجاهل رأى العام فقد عزل الباس باشا
وعبد الرحمن بك وعين مكانهما أتراك أو مصريون .

« على أننا نحسن الأوربيين . على الرغم من أننا كنا قلة وكانت كراهية
الباس لنا بوجه عام غير شديدة لتأصل حب العدالة في نفوسنا كنا في
مناسبات عديدة سبب الاستياء .

« فقد حدث أننا . مع حسن نيائنا . كنا كثيرا ما نصدر قوانين
ومراسم تجرح السودانيين في عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم وتبعث
على مر الشكوى .

« وقد كان لاون اعلا (الحرية ^(١)) . بناء على أوامر الحكومة
أسوأ تأويل في البلاد .

« ذلك أن تجارة الرقيق كانت مشروعة من الناحية الدينية . وكانت
هذه التجارة تقوم السكان بنظام بمصر فسة جديدة تؤدي أجل
الخدمات للزراعة وتربية الماشية . ولم يكن الشارون يشتغلون أنفسهم
بالقطائع التي ارتكبت للحصول على العبد وجلبهم إلى سواحل النيل
حيث يباعون . ولكن يجب علينا أن نعترف بأن العبد بعد إتمام الصفقة
كان يرعاه سيده ويكرمه .

« وكان محمد أحمد (المهدي) يعرف كل هذه الشكاوى فعمل على
استغلال الاستياء العام » .

ولمف الآز على مسئلة الرقيق قلنا لعلاقتها النوية بإداره غردون
ونحوه لاسودان قبل اشوره المهديه ^(٢) .

١ مسور اصدره غردون لتحرير العبد .

٢ لا نأس هنا من ذكر كلمه عن الحاسه والحاسين . ر . ر . أو
الذي عساه عن نطاق محض كان يستعمل في الوقت نفسه مجراى
مركرا لتجارة العاج والعبد ولوارم المعسسه . وكان لمعظم كبار تجار
الخرطوم شركاء أو وكلاء لهم وظيفه نانسه في الررائب . وكان يوجد من
هذه الررائب اساءة نمره في بحر العرال . وكان للوكلاء جود غير نظاميه
أو يارجر مهمهما الحراسه وفعهاء كانت تجارة الرقيق من بواب .

كانت تجارة الرقيق الشغل الشاغل الأول لغردون منذ وصوله الى الخرطوم بصفه حاكما عاما في مايو سنة ١٨٧٧ . وظهر منذ البداية على الأقل أن غردون كان يتردد في تنفيذ سياسة العنف التي نادى بها حكومته وحاولت فرضها عليه وعلى موكمه . وعلى بكر من قبلهما . وانه كان

== احصائياتهم . وكان اولئك الفقهاء مقدسين في نظر عامة الشعب عموما من امهم كانوا محرفين بالتجارة الوسيعة . يبيعون العاويد ويدخلون . كانوا يسفلون بين الرثائب لا يحرج من افواههم كلمة دور ذكر الله وبنيه . وكانوا يخلطون بعباداتهم اعمالا منكرا يبرأ منها العرب .

ولا ريب ان كل تعرض لتجارة الرقيق او للزرائب كان معناه التعرض لنظام قائم على المصالح الاقتصادية والدينية في السودان . لان تجارة العبيد ، او العاج الابيض كانت ذات افعال بخارة العاج الاسود العبيد وفروع التجارة الاخرى كما ان العبد كانوا يقومون بجمع الاشغال في السودان اشغال مرله ووراعه . وبالجملة كتب بربر عذره عن قواعد حصية يسهل اليها نظام اجتماعي واقتصادي واسع لا يبدله ولا يغيره الا حركة تطور طبيعي في الاقتصاد والاجتماع .

فكان القول بالعناء على النحاسه يعود السلاح معناه قتل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة دفعه واحدة والجري على سياسة هدامه محربة مخوفة بالاحظار والصعاب وان صبيحة السودان المرامى الاطراف بمجاهله الواسعة وغاباته وجباله كانت تساعد النحاسين على الاحتماء والتخفى في جهات لا حصر لها من المستحيل مراقبتها .

روى الايطالي جيسى في كتابه (سبعة اعوام في السودان) « ان الحكومة المصرية ارسلت في سنة ١٨٣٧ للمرة الاولى حملات في افريقيا الوسطى لفتح طرق جديدة . وقد انشأت وقتئذ محطات على بحر العزال وبحر الراف والبيلا الابيض لمقاصصه المسوحات القطبية وغيرها بالضعف والحبوب والعاج . والواقع ان التجارة كانت حكره بيد الحكومة ولكنها ركب حرة حوالي سنة ١٨٤٨ . فجعل كيرون من تجار الخرطوم محمل ادهمهم في هذه المشات وكانوا يدفعون كل سنة للحكومة صريه من العاج تعادل اقصى كميته كان في استطاعتهم الحصول عليها في شهر . وقد صار اولئك التجار من الاغنياء .

« وكانت تجارة الرقيق الى ذلك العهد لا وجود لها في السودان اسير ولم تبدى الا في سنة ١٨٦٠ . وكانت تجارة رابحة ... ==

يدرك تماما أخطار هذه المسألة من وجهة النظر المصرية وإنها كانت مخالفة لعقيدته وآرائه .

كتب غردون في أثناء تطوافه في المديرية الجنوبية . بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٨٧٧ . يقول : « ان الصعوبة الكبرى في إلغاء النخاسة أصبحت

تتـ » ولما اراد الحدوي اسماعيل القضاء على هذه العادة ووظائفها عقد اتفاقا مع الحار واشترى محطاتهم ودخيرهم وسلاحهم وماشيتهم وعاجهم وعبيدهم وحرر العبد في نفس الوقت . ولكن هذه المحاولة الكريمة كانت عديمة الجدوى لان الحار بعد ان وضعوا المال في حوزهم اشاروا محطات جديدة في جهات أخرى نائية .

« وقد اتخذ غردون اذ كان حاكما لمديرية خط الاستواء الاجراءات الآتية :

اصدر مرسوما باحتكار لعاج وحل الشركات الحاربه . ثم انشأ قنطا عسكريه على نهر السوبات مثلا لمراقبه الطرق وحصول الانهر التي تمر فيها البواخر مراكب واسعة محملة بالعبيد لمصادرها » وقد كان لتطبيق هذه الاجراءات بشدة بواسطة غردون في افريقيا الوسطى من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ وفي السودان من سنة ١٨٧٧ لغايه سنة ١٨٧٩ نتائج عظيمة .

وقد حذر حتى غردونا من البدايه وكان من اكبر صنائعه واعوانه في سياسة المصنعه . فاعترافه لها قيمتها قال : « بمقتضى مرسوم أصدره غردون كان رؤساء الررايب المسيرة على طول ساحل بحر الرراف والبل الاسف مجبرين على اخلاء مشائنهم في طرف ثمانية أشهر . بصير بعدها للحكومة الحق في مصادرة العاج والاستيلاء عليه .

« وقد سببت هذه الاجراءات للحكومة خسارة ضرائب سنة كاملة . وعدا ذلك فقد ترتب على إلغاء الررايب التي كانت المراكز الطبيعية لتموين الاهالي بطوازم المعيشة ازدياد نفقات حملنا ، في ذلك السلد الواسع البعيد من كل مركز تجارى ينسب مريفة » .

« اما فيما يتعلق باحتكار العاج فلم يكن قرارا حكيما لان هذا الاحتكار جعل صيد الفيل يقل بطريقة محسوسة في المديرية المصرية وجعل محصول العاج في البلاد الجنوبية (الاونيورو بوجه خاص) ، بدلا من الذهاب في طريقه الطبيعي صوب الشمال ، يسبح نحو الجنوب . وطلت الاراضي المصرية جد متأخرة لاسكك تجارية فيها ولا تجارة » .

وهذا ما صرح به عربي لجسي في السودان سنة ١٨٧٩ : « في أول الأمر كان لا يحمل الا العاج مقاس افمشته وبصالح من الرجاج .

الآن واضحة أمامي . كم كنت أتمنى لو أن « جمعية أعداء العبودية »
كان في مقدورها أن ترسل الى أحد أعضائها القادرين على فهم المسألة على
حقيقتها ليبين لي طريق حلها . اني أملك سلطة مدنيه وعسكرية مطلقة
فلو حكمت بالاعدام على شخص أو عشرة لما كان لأحد أن يعترض على .
ويجب اعساري أنا وحدى المسؤول عن النخاسة اذا استمرت ، وهناك
موقفى : ان دارفور وكردفان يقطنهما قبائل ضخمة نراعه ان الحرب
ولقتال . أكثر من نصف مسمله تحت امره شوخها . ومعظم أراضى
الصحراء تدر آبارها وتفصل بينها مسافات شاسعة . وبعض هذه الآبار
معروف لهذه القبائل وحدها .

« واذا عرفنا أن بعض هذه القبائل تستطيع أن ترسل للحرب من
آلاف الى ستة آلاف فارس على ظهور الخيل أو الأبل سين لنا أن الثورة
في ذلك الأفيم ليست مما يستهان به . أقول ذلك عن علم دفع ثمة .
« وهذه قبائل تعرف شعوب الرنوح في الجنوب أو تقايف القبائل
الندويه المسوحات بالمد فيما وراء الحدود المصرية المعروفة . ولذلك

— وكما يسفل حمل العاج في زمن وجير وناحد من الأهالي بلا معال
ماحاج اليه من غلال وماسه لان البلاد كانت غنية بهذه الموارد ثم
تعاقت السور واحد بعض الحجار بها حمو السكال وياحدوهم عبيدا
واحد اسكال يهاومون وصار من المنعذر الحصول على شئ يصير الرصاص
والنارود .

« واصبح العثور على العاج من الصمونه سكال وكان الأهالي بمجرد
رؤيا يحرقون منازلهم ويحسبون في العاج . وقد رادت الحكومة اللاء
بتحريمها بل العبيد بطريق الأنهر لانه في الوقت الذي كان يقر العبيد
فيه مباحا بواسطة المهر كانت له الوفيات في العبيد لا تريد عن عشرة
في أثناء وذلك على الرغم من ان العبيد كانوا يكومون نكوحا معصم فوق
بعض ، والآن ماذا يحدث ؟ تجمع عصائب ضخمة من العرب في كردفان
ثم تنشر في البلاد لنهبها واجساعها ، وفي هذه الحالة يضطر العبيد الى
سوق الحال والصحارى وقطعها طوال الشهور والسيهور قبل الوصول الى
كردفان . واذا أضفنا الى ذلك أن الماء والحب يتندر وجودهما في أثناء
الطريق وضع لنا السبب الذي من أجله لا يصل الا ثلث القافلة الى غايتها .

فان العبيد يدخلون الأراضي المصرية جماعات لا يزيد عدد الواحدة منها عن أربعة أو خمسة . على أنه لا شيء يمنع من دخول فرق من مائة جندي ، لأنها ليس لها على حدودنا نظام مصروب من الديديانات كما هو الحال في روسيا .

« وقد اعادت هذه لقبايل بيع لعبيد الى صغار التجار المشركين فواجب في كل صقع . ولا يلبث أولئك التجار الذين يفدون من جميع مناطق مصر ان يذهبوا الى المراكز الأهلية بالسكان لبيع عبيدهم الثلاثة أو الأربعة الآخرين .

« والحق يقال لو أن الحكومة البريطانية نفسها كانت سيدة هذه البلاد فلا أدري كيف يمكنها القضاء على تجارة الرقيق ، اللهم الا اذا زحزحت حدودها حتى شعوب الرنوح وأثبت فيها حط من المراكز العسكرية . ولست بحجة في القول ان الحكومة الانجليزية لن تبغ من الحاققة درجة العرض لحساره شديدة والاضطرار الى مد حدودها لغاية بحيرة (تشاد) » .

وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٧ كتب غردون من دارفور الى أخته :
« محل أي أن الحل الوحيد لا بعدو التحرير الكامل اما بقوه سلاح . وفي هذه الحالة ترتكب مظلمة كبرى . واما بدفع تعويض لا طافه لنا به في الوف الخالي . ولعل أفضل السل رفع الخطر القانوني فيما يتعلق بنقل عبيد على أن تنظم الحكومة رقابتها عليه . ولكن اقتراحا كهذا سيثير نائرة أفراد كثيرين » .

كان غردون منقسما كل الانشاع من اتفاقية سنة ١٨٧٧ تتعارض مع مصالح مصر مما حمله الى التديد بتصرفات ملكولم منذ تعيينه في يناير سنة ١٨٧٨ مدبرا لمصلحة الرقيق في البحر الأحمر .

(١) Hill, Colonel Gordon in Central Africa (1874-1879)

(٢) Letters of General C. G. Gordon To His Sister, p. 119

وكانت الحكومة الانجليزية . وقد قلنا ذلك من قبل . في شهر مارس سنة ١٨٧٨ تهم غردون بأنه « يهادن تجار الرقيق كمن لا يحس في نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

وقد ذكرنا أن هذه الحكومة بالداب . بعد أن أرغم ملكولم على تقديم اسمائه كانت تعتبر غردون « مسؤولا وحده عن الاحراءات الحاسمة الواجب اتخاذها لنقصاء على تجاره الرقيق في المناطق التي يحكمها وفي سواحل البحر الأحمر » .

وهذا ما يفسر لنا انه ابتداء من ذلك التاريخ (يولية سنة ١٨٧٨) شرع غردون يعبر ساسه ويطرح آراءه وعقائده ويعتني حريا شعواء على تجار الرقيق في السودان . وصارت لعه وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف :

كتب من الخرطوم في ٢٧ يولية (٧٨) : « لقد أخذنا اثنتي عشرة دفلة من العميد في مسافة شهرين . وهي نتيجة لا بأس بها » . وفي أول أغسطس : « لقد أخذنا قافلة أخرى مكونة من مائتين وخمسين عبدا في دارفور . فكون مجموع الموافل الى أخذناها في شهرين أربع عشرة » . وفي ٨ أغسطس : « اني أوجه كل يوم ضربات مميعة ضد تجارة الرقيق وقد أنشأت من أجل ذلك نوعا من « حكومة الارهاب » . فأعدمت سيفا رجلا طوش صديا وانى لن تطب الادن بذلك من أحد . ولا يهمني أن يوافق الخديوى أو يعارض (١) »

ومن هذه الآونة صارت مكافحة الرقيق عند غردون شبه عقيدة دينية يتحمس لها ويجاوز كل حد من أجلها ...

وكان الخديوى بالطبع حائقا على غردون ونصرفانه وان كان ذلك لم يمنع الحكومة الانجليزية من المبادرة بالكتابة . بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة

١٨٧٨ ، الى لاسيل . مدير القنصلية العامة في القاهرة ، تكلفه « بأن
يعبر للحدوي عن اعتناء الحكومة الانجليزية بالعمل الحارم الذي
يقوم به غردون ضد بحارة لرفيق (١) » .

وقد اتخذ هذا العمل الحارم صورة حرب صليبية كانت لها أسوأ
النتائج في المديرية الجنوبية ، بحر الغزال وكردفان ودارفور .
أشهر من قبل ان حجز الزير في القاهرة على أثر الخلاف الذي
نشأ بينه وبين اسماعيل أيوب (١٨٧٥) . ويظهر أن الحدوي كان يخشى
من نفوذه العظيم في السودان « لان الذي لا شك فيه ، كما يقول
سلاطين باشا ، ان هذا الرجل كانت له ارادة حديدية وذكاء خارق ،
وكان من هذه الناحية يعلو بمراحل تجار العاج ولرفيق الآخرين . وفي
ذلك سر نجاحه العظيم » .

وقد نجح الزير في السيطرة على بحر الغزال ومساعدة الحكومة
المصرية في اخضاع دارفور . وبعد سفره الى القاهرة عين ابنه سليمان
لبحل محله . وعين الحاكم العام من جهة حسن باشا حلي ليكون ممثل
الحكومة في دارفور .

وكان السيفان هارون المطالب بالعرش لا يبي بحرك الفتن والقتل .
وفد احسنى هو وبعض انصاره بحل مرة الوعر ولكن حسن باشا حلي
تمكن من كسره مرتين وأرغمه على الانسحاب .

وعندما وصل غردون الى الخرطوم (١٨٧٧) كانت دارفور تدخل
تحت السيطرة المصرية . وقد عجل غردون بالذهاب الى دارفور ليرى
أحوالها بنفسه ، وهناك اتخذ اجراء متعوسا اذ أنقص حامية دارفور
انقاصا جائرا وورع عددا كبيرا من الرحالة والفرسان بين الأبيض
والخرطوم .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٨٤ مجلد ١٥١١

ومن رأى سلاطين « ان هذه الاجراءات الاقتصادية كان لها فيما بعد
تفدح لعواقب » .

وفي أبريل سنة ١٨٧٩ عن غردون مسدال بك الايضالى الذى
كان مند بضعة اشهر حاكما لداره (فى جنوب دارفور) مكان حسن باشا
حمى^(١) وقد حل محل مسدال بك فى داره سلاطين بك الذى وصل اليها
فى أغسطس سنة ١٨٧٩ وكان قبل ذلك اشغل بعض الرمن مندشا للمالة .
وبعد وصوله علم ان ميسيداليا يريد التغيب فى اجارة فتصحبه بالبقاء
بمرا لآن هارون لم ينحصر كل لاختصاص فيؤمن جانبه فكان رد ميسيداليا
« ليس هناك مطلقا ما يدعو الى العس و ن جود الحامية كفى وزياده
تهدة جميع المضاعب المحنة الصعيرة » .

وبب ذلك كانت فلالل حضره وئمه فى بحر لعرال وكردفون وكان
خطرها يتهدد دارفور .

كان بحر لعرال فيما مضى لا يفضيه لا الرنوج الدين هم السكان
يصلون . ولكن حدث بعد ذلك لعهد قريب ان العرب الدناقلة (من
دنهلة) وان الجملى الدين كانوا يشعلون بالزراعة فى وادى السل
هاحروا الى مديريات الخوب وانضوا لمح رانه كبير الخاسين الدين
انتهبوا البلاد ويطوا عليها سلطانهم .

وكان الزبير باشا رعم الجملى الامر الناهى فيها . وكان ابنه سليمان
مند سنة ١٨٧٥ قد انسحب على رأس عصابات مسلحة الى لشاكة فى
دارفور الجنوبية . وكانت الدوائر الحكومية تخشى ان تنضم قواته الى
قوات هارون .

(١) كان غردون يقول ان حسن باشا حلمى « مجنون قد سيب خراب
المديرية » وهذا المحزون فى رعمه كان رفض ترحيل الجنود من المديرية
رعما من هدوء الاحوال الطاهر . فاضطر غردون الى الذهاب الى دارفور راسه
ليشرف بنفسه على تنفيذ اجرائه (سجلات عابدين . خطاب من غردون
الى باروت بك من سواكن بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨) .

وفي بحر الغزال كان يقيم ادريس أبتو وهو « دنقلاوى » وكيل الزبير
مند حملة دارفور ^(١) . وكان يوحد وقتئذ شيعتان تتنازعان السلطة
الأولى شيعة الزبير أو العرب الجعليين وهم من سلالة عباس عم النبي
والثانية شيعة (الدنقلاوى) وهى من سلالة دمل (العبد) . وكانت
الأولى . وهى أشد بأسا وعددا . تظهر كل ازدراء لأبناء العبد . لذلك
ما كاد غردون يصل الى الخرطوم حتى بادر الضاح وكيل الزبير وأوحد
في نفسه الحذر من سليمان زبير ومن ضموحه الى الاستقلال ونصحه بأن
يعمل على توطيد سلطة الخديوى في تلك المديرية .

عندئذ أرسل غردون الضابط المصرى ابراهيم فوزى الذى كان تحت
أمره في حط الاسواء الى بحر الغزال وكلفه باحراج البلاد من سلطه
الشركاء . وعمره وصول الحاكم الجديد بادر عمورى وعطاس ووكلاؤهم
بمهر حصوعهم والسار عن ثلاثة أحماس الصنع وربش النعام والعاج
الذى كان حكرة للحكومة .

وكان سليمان زبير مستقلا بالأمر في شاكه ومعه أربعة آلاف مقاتل .
فما علم بمقدم غردون الى دارفور . وكان لحق بمورى — طلب عموه
وذهب اليه بنفسه في داره في أغسطس سنة ١٨٧٧ . فما كان من غردون
الا أن ورع قواته بين وكلائه سعيد بك حسن (الذى عين مديرا لشاكه)
وبور بك عمره (الذى عين مديرا لسرجا وأربيا في دارفور الشرقية) .
ثم أصدر أمره بعد ذلك الى سليمان بأن يعود الى شاكه . وقد امثل
سليمان للأمر رغما من تصرفات غردون المهينة وأرسل عدة خطابات الى
غردون يستعطفه فيها استعطاف الابن « لأبيه » ويتوسل اليه أن يعينه
في وظيفة .

^(١) في زمن رحله الدكتور شفايفورت « أصبح ادريس وكيل عطاس ،
وكان في الزرية شخصية كبيرة يستبد بالأمر والسلطان بعد أن كان
عبدا بسيطا في الخرطوم ، وهو من أصل زنجى وكان له مع ذلك نفوذ
على التوبيين » .

ولكن غردون كان شخصية شادة غريبة الأطوار لا يعرف المصانعة كثير القلب . سريع التأثير . يلين وقت الشدة . ويشد وقت اللين ، عندا حائرا في أحكامه . قليل المعرفة بالرجال . يفضي معظم وقته في التأمل والتصوف والسجون على ظهور الجبال في أرجاء السودان وصحاريه . أتى غردون أن يحب سليمان الى طلبه واستبعد حلمه حتى بات يخاف انقاصه عنه اذ كتب يقول من داره بتاريخ ٧ سبتمبر انه قضى ليلة منحوسة وهو يفكر في حق سليمان الذي ألقاه في أحضان الداس بينا لا يزال يملك قوه مؤلفة من ٤٠٠٠ رجل في بحر العزال « ولكن رعيما أكبر قوه (ادريس) معي الآن . ولذلك فاني لا أعبأ بذلك القوه » . وفي آخر سبتمبر (١٨٧٧) ذهب غردون الى شاكة من طريق داره وفرر تعبى سليمان . بعد لاي . مدبرا لبحر الغزال . ممككه أبه العديعة ، ومنحه لقب بك .

ولما وصل سليمان الى مركز مديريته ، ديم زبير (نسبة الى أمه) مالب دريس أبتز بتقديم حساب عن أعماله . وفي أثناء ذلك كان الضابط المصرى ابرهم فوري من ناحيته قد جمعت لديه الأدلة القاطعة على أن ادريس رجل « شرير وخطر ودساس من الطراز الأول » فقرر إلقاءه في غياهب السجن . ثم أخذ معه الى الخرطوم حيث اضطر الى الذهاب للعلاج .

وقد دفع فوزى بعد وصوله الى هذه المدينة الى ادريس كما دفع الى جميع شركات بحر الغزال . مبلغا كبيرا من المال كتمس لمقدار كسر من العاج الذى كان صادره ، فاستمال ادريس بماله قنصل ألمانيا . فردريك روسيه . الذى نادر بالابراق الى غردون في سواكن — وكان قد بلغها في تطوافه المستمر — زاعما أن ادريس برىء وأنه سجن ظلما .

فلما عاد غردون الى الخرطوم (بتاريخ ١٨٧٨) حاول أن يقنع فوري بترك ادريس يعود الى مديريته ففضل فوري تقديم استقالته من وظيفة

مدير بحر الغزال . وقد قلَّ عددون هذه الاستقالة ولكنه أراد استغلالها
لارضاء فوري وادريس معا فعين الأول مدير لخط الاستواء مكان
الأمريكي بروب Proux الذي كان يحكمها منذ ديسمبر سنة ١٨٧٦
والثاني مديرا لبحر الغزال برتبة بك .

كان رد سليمان الوحيد اراء هذا نحدي أن أعلن عصيانه ورفض
أن يدعى الا للقوة . ثم أخذ قواته في ديم زير وهاجم مباغنة قنطرة فسلم
حصنها بعد مقاومة عنيفة في الأيام الأولى لسنة ١٨٧٨ .

كانت فواب سليمان تفوق فواب ادريس وكان القضاء على هذه
الأخيرة مسألة حادة أو موت للرير وشيعته . كتب الزبير الكبير الى ابنه
سليمان . بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٨٧٨ يقول : « لقد أصبح ادريس أبتر
مديرا وسيكون همه القضاء على أعمال وخدماتنا للحكومة . فعجل
نفرده هو ورجاله ودريته ولا يصب في لوقت نفسه أن تعمل على طاعه
أوامر الحكومة وتوثيق صلاتك بها » .

فبدلاً من استدعاء ادريس واعادة سليمان الى وظيفته لينتخب بذلك
نحو معركة النفودى حرب طاحنه لا تؤنى غير الدمار والفوضى لم ير
عددون في كتابات الزبير الى ابنه الا تحريضا على العصيان . وسرعان
ما عقد مجلسا حربيا أصدر حكما بالاعدام على الزبير واسه بتهمة الخيانة
« العظمى » !

ولما كان عددون مصمما على اعداد العدة لحرب نظامية أخذ يفتش
عن رجل « حازم » قوى . وكان يونكر وقت اقامته بخط الاستواء ، في
أثناء رحلانه . ضاعنا على ابراهيم فوري لأسباب شخصية . فانهز هذه
الفرصة وأوحى الى عددون بخلع ابراهيم فوري وتعيين الدكتور أمين
مكانه مديرا لخط الاستواء (١) .

(١) عند عودته الى مصر في سنة ١٨٧٩ تبين لعددون أن اتهامات يونكر
لفوري كانت باطلة فطلب الى الحدوي ترفيقه الى رتبة كولونيل ومسحه
٣٠٠ جنيه كسندكار للأيام التي قضياها معا في السودان (انظر : Neufeld

A Prisoner of the Khalifa

وكذلك ابراهيم فوري باشا : السودان بين يدي عددون وكشنفر .

وكان في ذلك الوقت جسي الايطالي قد ترك خدمة الحكومة و استعان
بالمصور الفان بوخت Bucht ويدكتور في العلوم الطبيعية لاكتشاف
وادي السوبات وبلاد الخالا في لسودن الشرقي لحساب ايطاليا .
فوقع يومكر غردون بحمل جسي على ترك حملة السوبات وقبول رئاسة
الحش المنوط به تأديب العصاة . وشتبب الحوادث ان هذا الرجل
(جسي) كان كبر معاصر بين اأحاب الدين تكاثروا في السودان في عهد
الادارة المحلطة وأقدرهم على تطبيق ساسة العنف وهو رابع الثلاثة .
بكر وملكول وغردون .

سافر جسي ومعه يوسف باشا الشلالى وحوالى أربعين من الجنود
ولصا ط لبدء حملته . وقبل وصوله الى رومست كان يسمى الحدث
باستمرار على طول الطريق من فشوده ولادو ومكركه وغيرها . ولم
تكن لأحوال . من يوبه و داسر سنة ١٨٧٨ . في فصل الأمطار .
تسمح بحرب هجومية .

وقد تجمعت عنده قوة تزيد عن ٧٠٠٠ رجل فأنجحه بها الى قنده حيث
الرم الدفاع مدة ثلاثة أشهر مكث برد محض الريير . ثم وصت
انه نجداث حديده في مارس سنة ١٨٧٩ فشرع في الهجوم . وتمكن في
أول مايو ، من كسر الزبير وارغامه على هرب وترك ثروته الكبيرة في
دبم ريير فاستولى على معظمها الدفلة من أعوان ادريس .

وقد حاول جيسى اللعان بالريير ولكنه لم يجد اليه فعاد دراحه الى
دم زبير وهناك جاءه أمر من غردون بالذهاب للدائه في دارفور حيث
استقر به المطاف .

وكان غردون في العهد الاخير هائجا يعارض في كل فكرة سلمية
ولا يفكر الا في البطش القتل ، ذكبت في ٢٤ يناير (٧٩) يقول : « ان
اهلاك عصابة الزبير يعتبر نقطة تحول دقيقة في مشكلة الرقيق » . مع
أن عصابة ادريس كانت تؤيدها حكومة غردون .

وفد كات حكومة القاهرة تعلم استفحال الشر في السودان وتفكر
في وضع حد لسياسة غردون فكتب نوبار الى حاكم السودان يقترح عليه
فيه الموافقة على ارسال الزير رحمت فكان رد غردون في التاريخ السابق
(٢٤ يناير سنة ٧٩) :

« اننى أعين في جميع نقط الحدود وكلاء أوربيين ليمنعوا مرور كل
فاقله من قوافل العبيد ... »

« وسأسمح جيسى ألف حبه ادا نجح في القبض على ابن الزير .
وآمل أن يشنقه . لأنه لو أرسل الى القاهرة لرحلوا به . »

وفي أثناء اقامته الثانية في دارفور ، حوالى ١٨٧٩ ، كان سليمان زير
بعث اليه في شكاة تسعة رؤساء من أعوانه لطلبوا اليه أن يصدر
أمره لى جيسى باحلاء بحر العزال .

روى جيسى أن غردون باشا استبان في أولئك الرؤساء التسعة نفرا
من المحرضين على مذابح ديم ادريس فكان رده عليهم أن أمانهم في الحال
رميا بالرصاص .

وقد روى سلاطين حادثة أخرى كان لها أثرها قال : علم غردون أن
تجار الأبيض في كردفان كانوا يبيعون السلاح والذخيرة الى عصابة
سليمان . فكان الجلاية يهكون هذه الأسلحة ويهربونها وسط نضائى أخرى
في مديرية بحر العزال حيث كان يشتريها الثوار بشم فاحش . ونظرا
لندرة النقد كان العبيد يستخدمون للتبادل والمقايضة .

ورغما من الغاء كل تجارة في المنطقة الواقعة في جنوب طرين القوافل
(الأبيض - داره) كانت تجارة الأسلحة تزداد كل يوم . فعمل غردون
« عملا أخرقا كانت له نتائج مدوية في أنحاء السودان » اذ أصدر
أمره الى مشايخ القبائل العربية (القارة والريقات الخ) بالقبض على
جميع الجلاية الذين يصادفونهم في أراضيهم وجلبهم تحت الحراسة الى
داره وطولبشة وأم شنقة والأبيض .

وقد فرح العرب بهذا الفرار الذي أرضى جشعهم . ولما كان من الصعب في هذه الحالة التمييز بين البحار الشرفاء — وكان منهم فئة كثيرة أو قليلة — والمهريين لم تفكر السطة مطلقا في التفرقة بين الصالح والظالم وانطلق العرب في كل مكان وراء طريقتهم الجلابية وكانوا يسلبون أمتعتهم وما يملكون ويسوقونهم أفواجا شبه غرايا سوق الأنعام إلى داره وطويشيه وأثم شتفه .

ونظرا لأن الجلابية كانوا جميعا — إلا ما قدر — من سكان منطقة وادي النيل الزراعية وخصوصا الجعليين فقد وسع هذه الحوادث مسافة الخلف وجمعت العداوة القديمة أصل بين قبائل العرب العربية وبين سكان وادي النيل .

« فإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية الانسانية لم يسعنا أن نذكر أن صرد الجلابية بهذه الطريقة الظالمة العنيفة مدعاة للقول . »

« وكان الجلابية المطرودين من البلاد الجنوبية من أهل كردفان ووادي النيل (الجعليين ولشايقة والدافله) . هاجروا من ودهم للآثراء من مملوكه الحرة والرفس وبركوا وراءهم أضدادهم وذويهم الذين كانت بهمهم شؤونهم ومصالحهم خصوصا وأهم كانوا يشاركونهم مالي في مشاريعهم . »

« وهذا لسبب كان أمر غردون بطرد الجلابية ذا أثر بعيد في سمعه ومكانته بين سكان وادي النيل (١) . »

التقى غردون بجيبي في طويشيه وبعد أن علم مجرى الحوادث أمره بالعودة إلى داره للبحث عن سليمان على أن يعود هو إلى الخيمة . وقد

(١) سلاطين باشا — الحديد والنار في السودان . بحث الرجوع إلى أصل الطبعة الألمانية لهذا الكتاب أو إلى الترجمة الفرنسية . أما الترجمة العربية المنقولة عن الترجمة الانجليزية فهي كالحق ناقصة مشوهة لا يمكن التعويل عليها وقد تصرف وبحث باشا في الترجمة الانجليزية ولم يكن أمسا .

طلب الصايف المصري يوسف بك الشلالى الى غردون أن يصطحبه في رحلته
ذ كان لا يريد البقاء بأية حال تحت إمرة جيسى .

وفي داره علم جيسى أن سليمان بعد أن ترك بحر الغزال ذهب مع
دواته الى منطقة دارفور الجنوبية فادر الى تعقبه وأخذ معه اسماعيل أفندى
برنو وهو من أصل مصرى . وقد ولد بدارفور . « وكان يمار بشجاعته
معروفة السمة بأحوال البلاد » .

كان جيسى يريد إرغام سليمان على التسليم . بئى ثمر . فلجأ عند
بلوغه الكلكة الى اسماعيل برنو . وكان صديقا لسليمان منذ زمن طويل ،
وكلفه مهمة لدى الأخير في معسكره في غرة (١) .

وكان جيسى يعرض في حالة الخصوع تأمين حياة سليمان وأعدائه وصرف
مرتب شهري لا تق له ولهم .

وقد أتى راجح كبر أنصار الرير أن يسلم أمره الى جيسى ونصح
سليمان بالرحيل والحذر ولكن اسماعيل أقنع سليمان بأن المقاومة لا طائل
من وراءها وكسب الى جيسى يسندمه على عجل في غرة فحضر ومعه دنافته
من رعاى ادريس . وهناك نجح اسماعيل (١) في اغراء سليمان وصحبه بناء
على العهد الذى قطعه جيسى على نفسه ولكن جيسى كما يظهر لم يكن أميناً
على العهد وكان مخادعا يريد « رأس » سليمان لتنفيذ وصية غردون
فاستند الى وشايات لدنافته الذين زعموا أن الرير يبعث الرسل الى
راجح . وأصدر اليهم الأمر بإعدام سليمان وأعدائه رميا بالرصاص .

حدث ذلك في ١٥ يولييه سنة ١٨٧٩ . وكان حملة مشايخ قد انفصلوا

(١) من العجيب ، ولهذا السكوت مغزاه ، إن جيسى في مذكراته التى
ظهرت بعد موته (سمعه أعوام في السودان) لم يشر اهل إشارة الى هذه
المهمة الخطيرة . ولم يرد ذكر اسماعيل برنو مرة واحدة في كتابه .
وسلاطين هو وحده الذى تكلم عنه ومن مهمته في كتابه (الحديد
والنار في السودان) .

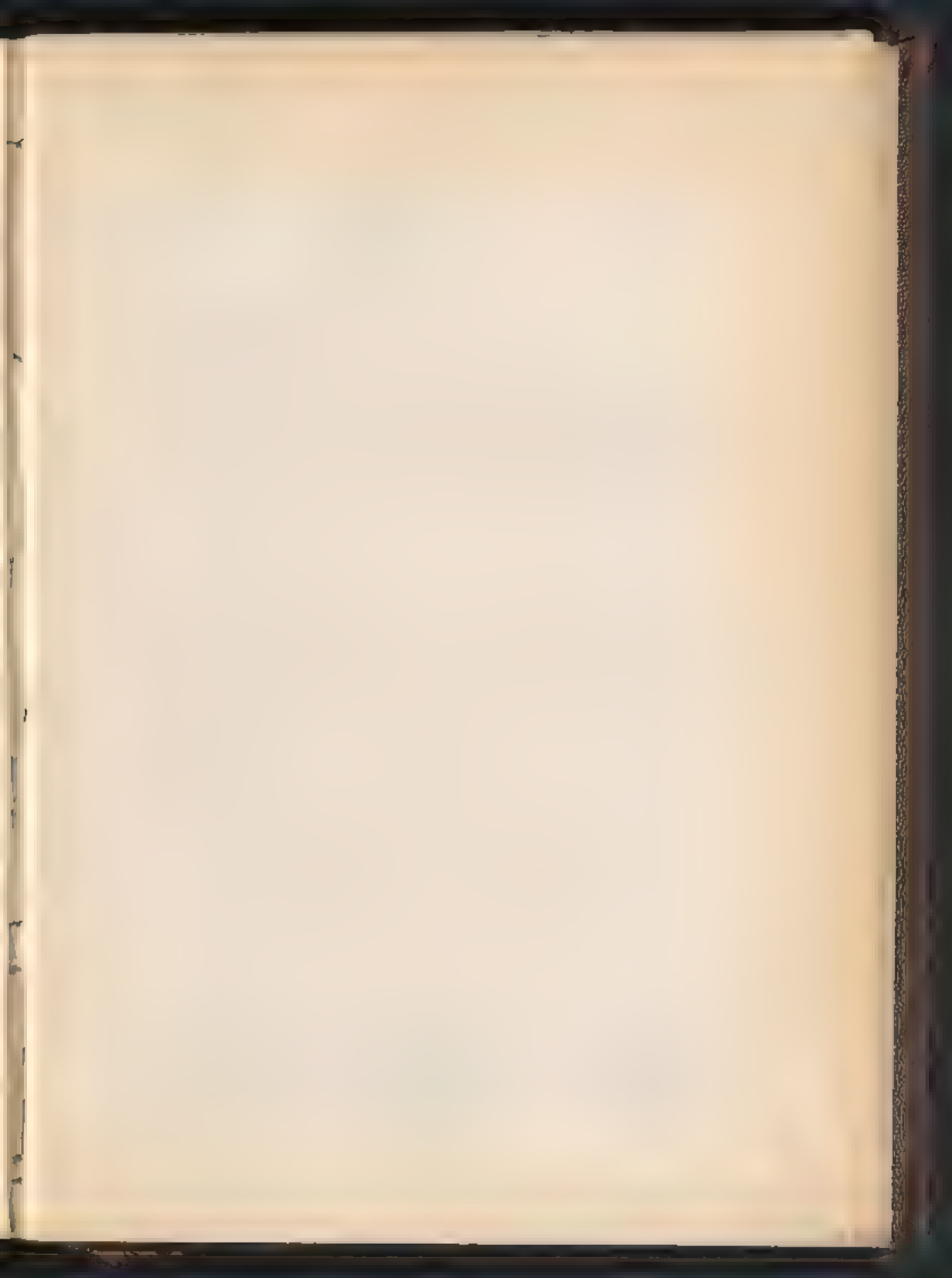
من سليمان ورابع^(١) وطلوا في البلاد فأصدر جيشي أمره بالبحث عنهم
واحضرهم الى القاهرة . وكان يحكم لمدينة ميسيداليا بت « لدى
شنتهم في ساحة السوق دون محاكمة » .

تلك خاتمة الحرب التي توقع بعض المؤرخين الرسميين « أن تكون
نتيجتها المحتومة قطع دابر الفتنة » .

وقد أحمل سلاطين نائج هذه الحرب فقال : « ان الحكومة في هذه
الحرب قد تكبدت خسائر فادحة في الرجال والأسلحة والتخزين ، في
حين أن قبائل الحواري العربية البقارة والعايشة والحامنة والريشات
التي أصابت ، قبل خضوع سليمان وبعده ، غنا كبيرا من السلاح
و لارنجر . أصبح من ذلك لوقت تعمد بما كسبت من جاه وقوة خفت
لنا فيما بعد مشاكل وعرة » .

وأخيرا استدعى غردون في يونيو (٧٩) ولكن بعد أن تخرجت
الأمور وطمح الكيل . وقد اثبتت لحوادث صدق حكم شاي لونيح
الأمريكي الذي ذكرناه من قبل « لقد وجد غردون السودان في سلم
ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩ . ينوء بالدين ويهم بالثورة » .

(١) ذهب رابع بنفر من جنده الى منطقة بحيرة تشاد وتمكن بدعائه
وتدبيره من تأسيس امبراطورية قوية هناك . وقد تمكنت فراسا بعد
حرب هوان من قتل رابع والاستيلاء على ملكه (٢٢ ابريل سنة ١٩٠٠) .



الكتاب الثالث

السودان من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٥

الفصل الثامن

الثورة المهدية لغاية قرار إخلاء السودان

إن السودان في الوقت الحاضر يحده جنوبا بلده بيمول بحوار دوفيله وتبلغ مساحته مليون كيلو متر مربع .

وعلى الرغم مما أصاب مساحة السودان الجغرافية من نقص وزيادة وتقلبات كبيرة أوجدتها الظروف العسكرية والسياسية منذ عهد محمد علي خصوصا من ناحية الجنوب (البحيرات وممالكها) . و لشرق والجنوب الشرقي (أراضي البحر الأحمر والمحيط الهندي) ، فإن مدلول كلمة (السودان) لا يزال إلى اليوم مبهما . فلا يجليز في كتاباتهم يخلطون بين السودان والنيل ووادي النيل ، والمصريون يطالبون تارة « بالسودان » وطورا « بوحدنة الوادي تحت تاج واحد » .

وكانت أنشئت لأول مرة في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ في مصر وزارة « السودان وملحقاته » . وفي نفس السنة اعتبر الكولونيل سوارث الملحق جزءا من السودان في تقريره الشهير الذي وصف فيه حدوده : « أن حدود السودان المصري » في سنة ١٨٨٢ . هي كالآتي : تتحدى الحدود بالقرب من رأس بناس على البحر الأحمر وتسير على درجة ٢٤ من

خط العرض الشمالى حتى تصل الى نقطة غير مائة بين ليبيا والصحراء
الكبرى . ومن هذه النقطة تتجه نحو الجنوب الغربى حتى ملتقى الزاوية
الجنوبية الغربية من دارفور . ومن هناك تنحدر رأسا الى الجنوب لغاية
الدرجة ١١ من خط العرض الشمالى . ثم تتجه نحو الجنوب الشرقى من
طريق موبوتو وبحيرة بيارا حتى تصل الى مدخل بحيرة فكتوريا نيانزا .
عندئذ تصعد الى الشمال الشرقى ، مشتملة على مديرية هرر ، حتى تبلغ
المحيط الهندى عند رأس جردوواى (أوجردفون) . ومن هناك تتبع
ساحل البحر الأحمر لغاية رأس بناس » .

فى أن مساحة السودان المصرى كانت تعادل مساحة فرنسا وألمانيا
وأسبانيا مجتمعة .

والواقع أن ساسه التوسع المصرى فى السودان كان فضها الذى
تدور حوله : النيل ومنابعه . وكانت تهدف الى تكوين كتلة متجانسة
متماسكة تؤلف بينها وحدة اللغة والدين والثقافة .

ولكن التدخل الاوروبى فى أفريقيا وسببه « القسم » كان لهما
القسم الأكبر فى ايجاد عوامل التحلل والتفكك فى مصر نفسها وفى
امبراطوريتها السودانية .

١ — أسباب الثورة

كانت مصر والسودان منذ أواخر عصر اسماعيل فى حالة « هيجان »
وكانت أسباب الاستياء العميقة فى مصر تؤدى حتما الى الثورة العمامة
ولكن هذه الأسباب كانت فى السودان سطحية فى مجموعها لا تؤدى الا الى
ثورات وفلاقل محبة مقطعة لولا الروح الدينية التى انتظمتها
ونمحت فيها .

جند المهدي أنواعه وأعوانه من أشد عناصر السودان تأخرا
وأكثرها تعلقا بالبدع والحرافات والعقائد الساذجة : البقارة والدرأويش .

البقارة أو رعاة البقر كانوا من أكبر تجار الرقيق في الغرب وقد أصابته خساره كبرى من جراء تصرفات غردون الفاشمة ضد النخاسة .
وحسبنا أن نذكر أن عثمان دجنة أفضل قواد الخليفة في السودان الشرقي
بان الثورة كان أيضا من تجار الرقيق الذين أزهقهم غردون وصادر
أموالهم وثروتهم (١) .

أما الدراويش فقد وصف الكولونيل ستوارت في تقريره المرسى
من الخرطوم . بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ . نظام الفقهاء والدراويش
للمؤيدين لهم . ومذهبهم . قال ستوارت ان الفقهاء كانوا يفرضون
صريبة على العرب ويأخذون منهم الاموال والهبات نظير علاجهم أو القضاء
على عقم النساء والحيوانات وما شاكل ذلك من طرق الدجيج والتطبيب .
وقد أصبح الفقهاء مع الزمن أغنياء ذوي نفوذ .

وكان الفقه يسخول الدراويش ويخذ منهم حتما يتعهدون ماله
ويعمون شأنه وكان الدراويش يسابقون لخدمته حبا في الكسل والبطالة
ونهبيا من الضرائب . لان الحكومة رغبة منها في مصدعة السكان والغرب
الهم كانت أتت عملا آخرقا باعنائها الفقهاء والدراويش من دفع الضرائب
فانتشروا في كل قرية وفي كل قسمة بالسودان وكانوا هداة لشعب
الروحانيين ومعهم الشنسة . وكانوا يرغمون الناس على دفع صريبة
« عشرية » وليس أدل على تعللهم في الخاء العامة وقوة نفوذهم من أنه
في قسلة دياره . في جنوب المصارف . كانت لقرى اسبغة للفقهاء لا تقل
من ٦٢ . وقد نتج عن ذلك أن الاهل لم تكن في استطاعتهم دائما الاتفاق
على القسمة ودراويشه ودفع ضرائب الحكومة في الوقت نفسه .

كان أنصار المهدي اذن يكونون أعنة الشعب وان لم يكونوا من

(١) قال غردون : « ان بيضة الثورة الحالية قد وضعت في حلال الثلاثة
الأنعام التي أتيح لي فيها ان احكم السودان على مبادئ غير المبادئ
الركبة » .

خبره وأفضله . وكانت المدائن المصاحبة لجري النيل خصوصا من سارى دققة . حيث استأصلت المدينة المصرية مد سنين عاما . يتألف من عناصرها الحضرية التي تؤيدها بعض عناصر البدو . حزب المقاومة . وهذه العناصر السودانية والمصرية من جند . ونجار . وموظفين ، ورعية . كانت لها طوال الشهور والسنين في الثورة موقف رائعة من لطوله والصحة .

٢ - غير القادر على في المردانية :

كان غردون استقام من وظيفة حاكم عام السودان في يناير سنة ١٨٨٠ . فعين مكانه ، في مارس سنة ١٨٨٠ ، محمد رؤوف باشا . وقد ذهب بمعه رؤوف محمد مختار ومحمد عزت وضباط آخرون لدرس مناطق الحدود من الحبشة لغاية مصوع ووضع خرائط للمناطق التي لم تكنشف .

وفي تلك الاثناء رفع المهدي راية العصيان وقد رادب هزيمة راشد بك في قدير (٩ ديسمبر سنة ١٨٨١) الحالة السياسية والعسكرية في البلاد تعقيدا .

والذي لا ريب فيه أن رؤوف باشا لم يكن حازما في علاج الموقف في بدايته . وكانت حكومه القاهرة من نحيبها . أمام التهديد الانجليزي . عاجزه عن مده عاجلا بالمعونة اللازمة . مما ساعد على تقوية المهدي ورياد نفوذه في نظر العامة التي أصبحت تعتقد في « رسالته » .

شرعت من ذلك الوقت البقارة والدرأويش تلتف حول رايته لمحاربه « الكفار » و « المشركين » سواء في ذلك الأتراك (المصريين) أو الأوروبيين المسيحيين الذين وفدوا على السودان منذ بيكر والاداره المحلطة وكان لهم القسط الأوفى في اسقاط هيبة مصر ومكانتها في السودان .

وقد فطنت الحكومة المصرية الى خطورة الموقف فاستدعت رؤوف باشا

وعينت مكانه عبد القادر باشا حلمي وهو من خيرة قوادها .

وفي أثناء الفترة التي انقضت بين استدعاء رؤوف (٤ مارس ١٨٨٢)
ووصول عبد القادر (١١ مايو) قام جيجلر باشا الألماني ، الذي كان
عنه غردون مديرا عاما لمصلحة البرق (التلغرافات) ، بأعمال وكيل
الحاكم العام بالخرطوم . وكان هذا الموظف كمعظم الأوروبيين ، تنقصه
لكفاءة والاخلاص فسرعان ما أوبرق الى القاهرة بأن حاله لا تستدعي
إرسال فرق جديدة . وأرسل في نفس الوقت حملة الى ليل الأبيض
كانت هزيمتها سببا في استفحال الثورة في هذا الصقع .

وفي أغسطس (٨٢) ترك المهدي مدير ميمبا الأبيض عاصمه
كردفان فوصلها في ٣ سبتمبر . وقد جرت أمام المدينة موقعة هزم
فيها المهدي وخسر رهاء ١٠٠٠٠ رجل فعول على ضرب الحصار حول
الأبيض وباراه .

وكانت هذه أول ضربة أصابت المهدي ، وبينما ذلك كان عبد القادر
حلمي ، وهو من أوسع الرجال خبره ودرايه بشؤون الحرب
والتنظيم (١) ، لا يفتر يعمل على تدعيم وسائل الدفع عن الخرطوم
واعادة تنظيم البلاد وفقا لأحدث الطرق وذلك على لرغم من قلة
موارده واقطاع كل معونة من القاهرة خصوصا في أشهر الحرب
الانجليزية والاحتلال من يولية الى سبتمبر .

وكان عبد القادر باشا يدرك بصائب فكره ان نجاح المهدي يرجع
الى انتصاراته غير المسطرة على جيوش نظامية ولى دعايته الدينية
الكاذبة وتسلطه على عقول احماءه لاذجه فشرع يصل بزعماء البلاد

(١) تكلم أمين باشا في مذكراته عن عبد القادر بمناسبة زيارته له
في الخرطوم في مارس سنة ١٨٨٢ قال : « تبدو على عبد القادر سما
الدكاء العالي وقد تلقى العلم في أوروبا ، وتبحر فيه ، وهو يجيد
الفرنسية ويكلم الألمانية » .

ومشايحها ويوزع عليهم رسائل يثبت فيها لعماء بنصوص من القرآن
والحديث بطلان دعوة المهدي . وكان في الوقت نفسه القوة المحركة
للدفاع ، لا يكتفى بقيادة الجند بنفسه وضرب العصاة في ناحية
سنار بل يرسل الحملات في كل جهة بقيادة خيرة ضباطه ليحول دون
انتشار الثورة واتساع رقعتها .

ولكن كان لابد من التفكير في فتح الحصار عن البحر الأبيض
عاجلا وكان لا يبرح يطالب القاهرة بارسال نجدات قوية عديدة
تمكنه من الزحف الى هذه المنطقة البعيدة على أن يترك جيشا « للتغطية »
وراءه .

وكانت الأبيض محاصرة منذ سبتمبر ولكن عبد القادر لم تنصله
من القاهره لحدثة الأولى الا في ديسمبر . وذلك أن أول احراءات
الاحتلال كان حل جيش عراقي نظامي فكانت الفرق الجديدة اتجنده
المرسلة الى السودان . ضباطا وحنودا . تعوزها الدربة والالهام الكافي
بصون الحرب .

فلم يكن أمام عبد القادر الا أن يعول على نفسه ويسفل في أقصى
حد موارده المحدودة . فعزل جيش المدينة (الخرطوم) في معسكر
على الضفة الغربية من النيل . وكان الحاكم العام يقوم بنفسه بإعطاء
دروس للضباط وتلمين الجند بمبادئ الفنون العسكرية وتدريبهم على
التمرينات البدنية واصابة الأهداف (ضرب النار) .

وقد كتب ستوارات الرقيب الانجليزى في أواخر ديسمبر يقول
« ان التعليم يسمر وأن بعض الجنود قد ساروا بخطى واسعة في طريق
التقدم » .

وكانت حنة عبد القادر التي كشفت عنها ستوارات ترمى بمحرد
الانتهاء من جمع جيش مؤلف من ٥٠٠٠ جندي وتعليمه وتدريبه الى

اتخاذ الطريق الذي يذهب من الخرطوم الى الأبيض وعمر بدارة وبلاد
قلعة الكدبش البنية الموالية لسعود المصرى .

وكان عبد القادر يعد عدته وعديده من جمال ومدافع جبلية وميرة
وذخيرة بضم نجاج حملته .

وفى رأى بعض المؤلفين كانت خطة عبد القادر ترمى الى حشد
جيش أكبر لا يقل عدده عن ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ مثلا ليتمكن من
ترك عدد كبير منه يكفى حماية الطريق الطويل الذى يفصل الخرطوم
من الأبيض . وفى حالة عدم وصول العدد المضروب (من القاهرة)
كان مضمنا على البناء بقواته محصاة فى الخرطوم وفى سار . وعلى
اقامة تحصينات حول كردفان لعزل أنصار المهدي ويدع الثورة تآكل
بعضها فى غرب السودان . ولاشك أن فصل قوى المهدي الروحانية
والمادية عن ماصو النيل خصه ومراكز الحدسه بها كان سيؤدى
حتما الى تحللها وموتها .

وعلى أية حال كان المهدي لانه لم يفر وفى حالة رجع مسمر لعنه
بلساع مذهب عبد القادر الله والإدبه بدرجه انه كان يوصى
أنصاره بالدعاء بصوت عال فى ختام كل صلاة :

اللهم يافوى بقدرك اكف شر عبد القادر

ولكن وجود الانجيز فى مصر لم يكن من شأنه تدليل المهمه
لجند القادر . وقد كتب الخرب ولس . فى ٢٨ أكتوبر . يقول ان
الجيش المصرى قد تم تخضمه وأن الحكومة المصريه لا تملك الوسائل
الكافيه لصد تقدم المهدي .

ولأجل أن تثبت ماهية هذا التحطيم ونتائجه الخوفه فى السودان
يجب أن يذكر ماكان كتبه شريف باشا الى القنصل ماليت بتاريخ
٢١ أكتوبر « ان لسلطات العسكرية البريطانية تدمر ذخيره

وعنادنا الحزنى . ولا شك أن اجراء كهذا كان من الممكن تبريره كل
التبرير وقت أن كان الجيش لعاصى تحت السلاح . أما الآن فيبوح
أنه لاسبيل الى تبريره (١) .

وفى أول يناير سنة ١٨٨٣ أرق عبد القادر الى الحديوى طالبا
ارسال فرقين أحريين لأليف قوة احصاية فى الخرطوم .

ومما جاء فى هذه البرقية « أنه ترتب على تأخر ارسال الجنود
سمحل الثورة فأصبح من الضرورى ايجاد نقطة ارتكاز للمعرك
الداخلة لا تقاذبارة وكردفان » .

وفى اليوم ذاته قرر عبد القادر الذهاب الى المسلمة ليقود الجنود
نفسه ونظر جمع المنطقة الكائنه بين سنار ورنه . لأن أحمد المكاشى .
وهو من كبر أنصار المهدي . كان قد تمكن قتل وصول عبد القادر
(٧ يناير) من قطع المواصلات بين سنار والمسلمة وقل القواب
لمصرية .

وكان المائد المصرى يريد اخراج الحركات المتشعبة فى الأقطار
محاوره قبل الرجف على الأسف ويرى أن فقدان هذه المدينة بفرقيها
سودانيين ومسودعاهم الواسعة من مدفع وذخيرة نكهة لاطافة
لنا بها ستتضاعف من جرائمها مصائبنا فى الحرب .

وبينا هو فى سنار يحارب ويسوس ويدبر اذ وصله (فى أواخر يناير
سنة ١٨٨٣) برفه من الحديوى بوفى يأمره فيها بحشد قواته كلها
فى الخرطوم وانتظار وصول بعض كبار الضباط من القاهرة . ولما كان
عبد القادر يحس أن أولئت الصط هم هيكس وأعوانه الأوربيون
يهددون على الجب العلى بأن الثورة قائمة فى بعض أراضي المديرية

١ سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٤٤٢

الشرقية وأن الجود إذا انسحبت تخرج الأمور لنفاية . وإن حيش الأبيص إذا لم يحرك في الحال لانقاذ المدينة صامت وصامت معها دارفور .

وقد أيد الكولونيل ستوارت في برقية له إلى فصل المجترة بالقاهرة . بتاريخ ٢٦ يناير ، كل أقوال عبد القادر وزاد « بأن الحالة أصبح في منتهى الخطورة وأن الخديوى يجب عليه أن يترك عبد القادر وشأنه » .

ولكن ستوارت كان في ناحية وكان الخديوى ومستشاروه الانجليز في القاهرة في ناحية أخرى . وقد أفهموه أن عبد القادر يطمح إلى الاستقلال في السودان . وذلك لحقق خطة مدبرة في وراره الخارجية الانجليزية (١) .

(١) يتضح من البحث في سجلات عاندين أن أحمد حمدي بك ياور جناب الخديوى كيف بالسفر إلى الخرطوم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ « ليقابل الكولونيل ستوارت ويعلم أن مأموريته (حمدي) ليست سوى مشاهدة الأحوال والعرض منها (كذا) للاعتاب الكريمة ... ويستحضر عبد القادر باشا إلى الخرطوم ويسلمه الأمر العالي بالعناء نظارة السودان وانعزاله عن حكماداريها وحلول علاء الدين باشا مكانه في الحكمادارية ... »

وفي ١٧ ربيع أول سنة ١٣٠٠ هـ (٢٦ يناير سنة ١٨٨٣) أرسلت ارادة سنية برقية إلى حمدي بك لحرر سراً علاء الدين باشا من يرأب حركات وأحوال الكولونيل ستوارت ويرسل بها تلفرافات شفيرة .

وقد جاء في أول تقرير له (برقية ٢٦ فبراير سنة ٨٣) ما يأتي : « حينما كنت مع سعادته هكس باشا في الطريق كان يسأل من المسافرين عن الأحوال ولما يحبروه بحسن الحالة يرى عليه علامات الكدر حتى أن سعادته كان ذات يوم إذا كان الأمر كذلك فلا فائدة في حصوري من لدرة . »

وظاهر من التقارير الأولى أن مبعوث الخديوى كان لا يعيل إلى عبد القادر باشا والكولونيل ستوارت . ولكنه أمام سلطان الحوادث وأعمال عبد القادر اضطر إلى تغيير واه ومطالبة الخديوى بإبقائه .

جاء في تقرير ١٦ مارس : « .. كذا علم أن سعادة عبد القادر باشا لم يحضر للخرطوم بسبب إحرايات دافعه نحو تلاقى الحالة .. ولو كان صار أسعافه لما كان اتسع الأمر .. »

وقد اضطرر عبد القادر الى العوده من رانة الى الخرطوم في ٦ فبراير
قبل أن يتمكن من تطهير سائر من العصاة « مع أن الانتصارات الاخيرة

تت « ومراعاة للحالة الراهنة والاجراءات التي باشروا وظهرت ماديها
الحسنه بجهات سائر والبحر الأبيض وماله من الحل السياسي في جذب
القلوب مع ابعاد الرعب بين الاشعاء يكون مدوّد على ما هو عليه لحين
يهو الحركات في الجزيرة أوفق ..

« يتراءى للداعي أن كل جهة يستتب فيها الأمن والراحة يصير
استبدال حكامها بغيرهم ممن لهم كفاءة في الادارة وأن لا يصير توظيف
اشخاص من اهالي السودان في وظائف مهمة .. »

وحاء في تقرير ١٤ مارس : « بلغ الداعي اكيدا أن سعادة الجنرال
مكس الذي ادرى أمره بأنه لا يتدخل في اشغال جيجلر باشا سيسر
اعلانا للاهالي ظاهره نوع وباطنه التدخل في اشغال الحكومة بحجة ث
العدل ورفع القمم عن المشككين اليه وحدث قنوت الاهالي وميهم للدولة
الانجليزية الذي هو من رحلتها العظام الموصوفة بالعدل والكرم ، وحيث
ان الاهالي ذاقوا حلاوة ذلك مدة غردون باشا المؤسس لما هو واقع
مسهل الأمر الخ .. »

وحاء في تقرير ٢٠ مارس « بما أن سعادة الحكماء الحالي وسعادة
موسى ان مسعودين على لب الجانب ووفرة الانقياد فدواعي الوقت
واحد كاتب موجه لفصول ، بعد) سعادة عبد القادر باشا الآن لما عنده
من الادارة والسياسة ... ولئن كان ما نسب اليه قريبا من الصحة
يكن لما دعا منه من العزم والسياسة هو لا يعول عليه في حث الصالح
العمومي وحيث ذلك فالحال يدعى يدعو لان يكون وكيل الحكماء
والمديرون الذين يبيعوا ومديرو شرف السودان ووسطه وعمره من ذوي
الادارة والسياسة لممكنوا من تنفيذ اقراض الحديدوي ويعيدوا رونق
اعمار والاصلاح ..

« سعادة الجنرال مكس ومن معه ليسوا على شيء وانما هم متبعين
(مسعود) تعليمات ولو وحد امامهم أسس يدركوا الامور ويعملوا امام
اجراءاتهم التي يحسب منها حواجر بطرق غير محسوسة لا يمكنهم ان
سمكوا من تمشية اقراضهم وينقادوا خوفا من ظهور أمورهم .. »

وفي ٥ أبريل كتب حمدي بك يقول : « لا يزال يتراءى للداعي أن
دواعي الوقت وما هو مشاهد من اجراءات سعادة عبد القادر باشا
بقصر بوجوده بالسودان ... حيث لم يكن موجودا من بضاهيه .
ومما ان التقارير الواضح الموصحة به الحالة يساخر وصولها بحسب
عوديني ومراعاة للصالح العمومي وحب عرصه عرض الأمر / تلفرافيا
والرأي معوض انندم »

أثبت . كما قال ستيوارت في مرقية ٩ فبراير . أن المصريين إذا حسنت
فاداتهم منحسوا الهزيمة » .

وأمام الحاح ستيوارت وعند لصدر تذن الخديوي للأخير بالذهاب
إلى جريده سار لمحاربة المكاشي فوصل واد مدني في ١٣ فبراير في طريقه
إلى سار ومن هناك قاد عسكره إلى مشرع الدعي حيث كان يقيم
المكاشي مخفيا مع ١٢٠٠٠ مقاتل في غابة على جانب الطريق فهزمه في
٢٢ فبراير وقتل له ٢٠٠٠ (واقعة الداعي) .

وقد هرب المكاشي إلى ود برجوب في الجليل فاستمر عبد القادر
في مطاردة زعماء الثورة والسكيل بهم وتشتت شملهم ونصر عليهم
نصارا كثيرا في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ . روى مؤرخ أن عددا كبيرا
من العربان أنصروا لمهدي قد قتل في مواقع الأخيرة فاعم أحد كبار
مشائخهم وقتل لعبد القادر باشا . لعبد أفب الرعية يبطشك
يا سعادته الشا فدع عنك هذه المشوشة وقل الدية من رأسها »
فأجابه عبد القادر باشا « إذا لم نصر برأسها يا شيخ العرب نقطع من
ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقه » .

وكان عبد القادر جريا على خطه « تقطيع الذنب حتى يتويع الرأس »
يريد السير جنوبا على طول النيل الأزرق لضمه الثورة وقطع دابرها
في هذه المنطقة لغاية جبل خولي .

ولكن في ٥ مارس كان هيكس دشا الانجليزى وصل الخرطوم يحل
محل القائد المصري وهاهر أن محمدا . سيده لذلك . كانت تؤثر أن
تدع الثمرد تمتد وعموى في ربوع السودان فكان لابد من كسب
لوقت بكل وسيلة حتى تمكن قوات المهدي المعززة من تهديد
مصر وإرغامها على إحلال السودان بعد استبعاد فوسب السياسية
والاقتصادية إلى أن يهكها الحرب والاحتلال ويحويل لاحتلال المؤقت
إلى احتلال ثابت محتوم .

٣ هيكس في كردفان .

لاشك أن استدعاء عبد القادر وتعيين قائد أوروبي مسيحي غريب عن البلاد مكانه لاخذاد ثورة دينية بحجة كان لها أثر بعيد في القضاء على البقية الباقية من هبة مصر وتقوية الحركة المهدية . وهما بداية فصل جديد في تاريخ السودان .

وصل هيكس الخرطوم على رأس ١٠٠٠٠ مقاتل وكان جلهم من جنود عرابي القدماء الذين سئموا الحرب وكان يراد التخلص منهم . ولو أنهم أرسلوا قبل ذلك لكون منهم عبد القادر جيشا قويا مدربا قادر على اهاذ كردفان ولنكل بالمهدى . ولكن الخديوى توفيق كان يرفض كل مطالب عبد القادر الخاصة بإرسال وحدات بحجة أن ما أرسله الى السودان حتى ذلك العهد بلغ ١٠٠٠٠ جندي .

وفي أثناء ذلك سلمت حاميه بارة . وكانت مؤلفة من ٢٠٠٠ رجل . على أثر انهجر مسودع الدخيرة (٥ يناير) وسلمت عاصمة كردفان . الأبيض بعد حصار دام ستة أشهر (١٧ يناير سنة ١٨٨٣) .

وكان يحاصر الأبيض ٨٠٠٠٠ من الأنصار سلاحهم الوحيد الخراب والسيوف (لا بندق ولا مدافع) ، وكانت القوة المدافعة لا تزيد عن ٥٠٠٠ رجل محذفين في الحصن يذودون ذباد الشجعان وقد اضطروا الى تسليم بسبب لقحظ وانجاعة . روى شاهد عيان أن أربعة أو خمسة من السوريين يعيشون سوية دفعوا ٥٧ ريالا ثمن كلب . وكان غذاء المدينة الصمغ وأوراق الشجر « وما رأيت الجنود السود يقتلون عبيدهم ويأكلونهم كلب أن ألوذ بالفرار » .

وقد روى شاهد آخر . لأب يونومي رئيس المشركين السابق في الأبيض « ان الجنود بعد مقاومتهم مدينته بالبطولة كانوا يموتون جوعا في الخنادق . وان أردب القمح كان يساع : ٢٢٠٠ ريال . ورأس الحمير

٣٠٠ ، والفروخة ٣٥٠ وليضة بريالين . . وأن القائد كان يرفض التسليم وأخيرا بعد أن صدر الجند هياكل عظمية . تركوا السلاح بهج من أيديهم وانطلقوا يمشون عن ضعاء لهم . وكان ذلك في يوم ١٧ يناير فدخل الدراويش لعبر قال « .

قتل لعصاة الاعميان والموصفين بعد أن أخذوا منهم مرسوم ريال وباعوا النساء والأطفال كالعبيد . وقد أدمج ثلاثة آلاف جندي سوداني مدرب (جنود الحامية) في جيش المهدي ووكل الى ضبطهم ثلثين قواته فنون الحرب . وعدا ذلك فقد استولى المهدي على ٥٠٠٠ بندقية وخمسة مدافع ومستودعات ضخمة من الذخائر .

تلك كانت « النكبة الفادحة » التي كان عد القادر محب لها ألف حساب ويعمل على تلافيها . وقد ترك عودته خلفه فراغا تعج فيه القوضى . وكان لشوار بعد سقوط الرئص بيوون تقسيم قواهم الى ثلاث جماعات : جماعة يهودها القصة من للرحم على دينه . وجماعة ترحف على دارفور بقيادة الشيخ رحمه فتح باره . وكان المهدي نفسه سينوي فاده لحش لثالث في الخرطوم .

وفي هذا الوقت بالذات صدر مرسوم في القاهرة . بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٨٣ . بانحاء « ورره لسودن وملحقاته » وألشئت مكانها دارة حاصه « في رئاسة مجلس الوزراء .

وقد بلغ خباير مصر في سودن الى ذلك العهد ١٦٢٩٦ رجلا و ١٧٦٦٩ مدقة و ١٤ مدفعا و ٢٨٧٩٠٠ خرصوته كما ورد في تقرير لسوارت بتاريخ ٦ مارس . وبفضل ماغمه بعدو في بره والابيص بدأ يستعمل الأسلحة السرية ضد جنود هيكس .

وكان بلورد دوفرين موجودا في القاهرة . في هذه الاونه فكتب اليه هيكس . في ٢٥ مايو . يقول له « بعد احمد لثوره » في سار سيحب حوده تو اي خرصوم وسرر حباب في كاه والدويم » .

وانه يتضح من جمع الحقائق التي عملها « ان الحركة الثورية
في مجموعها حركة دينية بحجة » وهذا ما يحمله على النظر بأن المهدي يقصد
الكثيرين من أنصاره وان الاعتقاد في المهدييه أخذ يضمحل وشيكا .
وليس أدل على جهل هيكس بالحقائق وافتقاره الى النظر الصادق
من حسن ظنه وتفاؤله . والذي لا شك فيه أن فرقته كانت قليلة العدد
قليلة التدريب قليلة الأجر . أما الفرق القديمة التي تتألف منها حاميات
الحصون وكانت في كفاح مستمر في أطراف السودان فقد تحمد لها مبلغ
محم من المرتبات المتأخرة . ولذلك كان علاء الدين باشا الحاكم العام
الجديد ورفيق هيكس باشا في حملته يطالب حكومة القاهرة بإرسال
٦٠٠٠ جنيه شهريا لدفع مرتبات الجنود والموظفين .

وهذا المبلغ كان لا يشمل على الديون المتأخرة وأثمان الصناعات التي
تمت فعلا وبلغ مجموعها ٨١٠٠٠ جنيه وكان لابد من دفعها .

وكان هيكس من ناحيته يضال قسما كبيرا ماليا بأن يساعد
على إرسال ٦٠٠٠ جندي آخر لقيام بحملته في الكردفان بمجرد انتهاء
فصل الأمطار . جاء في كتابه مؤرخ ٣ يونية : « كلما فكرت في أن
الطريقة ليس معها فندان دارفور وكردفان فحسب بل سنار أيضا ومن
المحتمل الخوض . . لم نجد بدا من الاستهانة بأي خطر في هذه السبيل » ،
وكان يقدر مصاف حمله في السنة اثنى عشر ألف جنيه ١٢٠,٠٠٠ جنيه خلاف
أجور النقل .

وقد صدر مالب . في ٥ يونية سنة ٨٣ . باحار غراميل بحقيقة
الحال . ان سعادتك تعلمون أنه من المستحيل على الحكومة المصرية أن
تقدم الأموال المطلوبة للسودان وان العمليات الحربية المقترحة قد تبوء
بالفشل اللهم الا اذا جرت العمليات على خط واسع وأمكن تمويل الجيش
التمويل الكافي . ويحق لنا أن نتساءل عما اذا لم يكن من اللازم أن ترسل

تعليمات الى القائد هيكس لكي يحصر عمله داخل حدود نفوذ الخديوى
الحالية فى المناطق الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق .
ولكن الحكومة الانجليزية لا تحرك ساكنا وتترك الأمور فى أعنتها
لعلة ظاهرة .

وفى شهر أغسطس (فى ٥ منه) كتب هيكس الى ماليت ينبئه أن
التأخر لجنود كركوج خمسة وعشرين شهرا . ولقارو على تسعة . وانه
لا كساء عندهم ولا غذاء . وان متأخر ال ٨٠,٠٠٠ جنيه الموعودة لم تصل
بعد . وان الجنود يخرجون عن الطاعة . وان وسائل النقل معدومة كلها .
وأخيرا ختم القائد رساله قائلا . « نظرا للحالة العامة فى مجموعها
لا يحاجنى شك فى أن الافضل الاحفاظ بالنيلين ومديرية سار والتريث
حتى تحل مشكله كردفان من نفسها » .

وتلك كانت الحطة الأجره الى نادى بها عبد القادر بتنفيذها بعد
عودته الى القاهرة . قال نعم شقيق بك فى كتابه (تاريخ السودان) :
« وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر فالتج على الحكومة
ببقاء الجيش محافظا على النيل الأبيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع
امدد الثورة الى جريده سار وترك المهدي وشأنه فى كردفان الى أن
يظهر الناس نفاقه أو تصيق به البلاد فيصمحل من نفسه » .

على أن تحالف المؤلف حين يقول بعد ذلك : « وكان هذا رأى
الكثير من سياسة الانجليز ولكن الحكومة لم ترو مصممة على سحق
المهدي فى كردفان خوفا على دارفور وبحر العزال فأمر هيكس باشا
بالرحيل على المهدي فى الحار فكتب بنجرافا فى ١٦ مايو الى حكومة
مصر يقول انه لايتحمل مسؤولية الحملة الا اذا كانت له القاده العامة
عنها ولما لم تلبثت الى طلبه قدم استعفاءه فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٨٣
فاهتسب اذ ذاك بالأمر ونقلت سليمان باشا يبارى محافظا على عموم

شرقى السودان وجعل هيكس قومندان عاما على الحملة وأمر
علاء الدين باشا بمرافقته كقومندان ثان للحملة .

فالحكومة المصرية انتمت بأمر الانحياز أو بعبارة أدق بأمر وزارة
الخارجة الانجليزية . حين استدعت عبد القادر حلى فى ظروف دقيقة
كانت نقطة تحول فى ثورة السودان وعينت مكانه هيكس ثم احشت
القائد الانحيزى على الزج بنفسه وبجيشه المتخاذل فى مجاهل كردفان ..

ولقد كان كل رد ماليه على اقتراح هيكس المتقدم (ه أغسطس) ،
الخاص بالاحتفاظ بالنهرين وسار وترك مشكلة كردفان تحمل من نفسها ،
ان حمل الحكومة المصرية على تعيين هيكس قومندانا عاما على الجنود
لمصريه فى السودان (بدلا من رئيس أركان حرب) وبادر ، فى
١٨ أغسطس . بارسال تهنئه اليه . وقد حاول فى الوقت نفسه أن
يحمى ساسه فكد له . بهذه المناسبة « أن هذا التعيين قد أحرته
الحكومة المصرية من تلقاء نفسها .. وان تعيبات حكومه تمنعه من
إداء الصلحه . فيما يتعلق بأعمال الحكومه المذكوره . لطر لأن سياسة
حكومة صاحب الجلالة ترى لزاما عليها أن تتحاشى ، بقدر الامكان ،
مدخل فى شؤون الحكومه المصرية فى السودان » .

ومعروف أن حظه هيكس ، التى رسمها عبد القادر ، قد لقيت أكبر
رأسد من اللورد دوفرين فى القاهرة . ولكن الحكومة الانحيزيه كانت لها
حقها البعيده اهدف وكانت تخرج بالصمت عن جواب حاسم متطاهرة
تترك الأمور وشأنها مكتفية بتصريح مبهم بعدم مسؤوليتها .

وبصبح حلى من الطر فى المحفوظات الانحيزيه أن الرأى السائد
فى مراره الخارجيه . فى شهر مايو . كان يميل الى وقف كل مكاتبه رسميه
من هيكس وماليت ، لتخلص الحكومه الانجيزيه من كل مسؤوليه .
وفى نفس ذلك الشهر (مايو) غادر دوفرين القاهرة الى الآستانة .

وقد كتب هيكس الى دوفرين ، في يوله . كتابا توجس فيه الكارثة التي
 حلت به في نوفمبر . قال . بعد أن ذكر أنه « أصبح ولا سند له منذ
 رحيل دوفرين » ان أوامره لم تكن محل عناية السلطات المصرية المحلية
 وان « التأخيرات » لا نهاية لها وان المؤن والحمل اللازمة غير مهياة
 رغما من الحاجة الملحة وان الفرسان تنقصهم الخيل وان فصيلة من الرجال
 (البيدة) انضمت الى العدو بأسلحتها .. وكان حمامه في النهاية :
 « انى لا أرى سبلا الى الرحف قبل سبتمبر . اذ يتم جمع المحصول واعداد
 مؤونه الجيش ولكن لن يوجد وقتك وعشب لقوب الخيل ودواب الخيل .
 وقد بيع استهبار الموظفين وبعثهم أسوأ حد . وكثيرا ما هددانى اعمال النظر
 في مشروع الحملة الى قطع كل أمل ... وقد أرقى حى حس بث
 قومندان النيل الأزرق (سار) بأن حيثه أصبح بلا ميرة » .

نشر الرسالة السابقة الفريد لايل في كتابه عن الورد دوفرين
 وعنى عنها قائلا : « حما لا يوجد أحد سوى الورد دوفرين . يظهر
 عظم صادق نحو المومندان الدئس الذى تحط به الأعداء وتغلى عنه
 الحكومة التى يشعل في خدمتها . فيما تشايلدر Childers ، فى إنجلترا ،
 مد تعاضد وريرا للمالكة فى مايو سنة ٨٣ . لا ينظر بعد رجع الى كل
 ما قد يطرأ أنه محاولة لمديد المعونة اليه (أى هكس) فى حمله تصلب
 فيها الحكومة (الانجليزية) من كل تبعة ^(١) » .

ولكن يجب علينا أن نقرر أن هيكس لم يكن الرجل الذى فى
 استطاعة مواجهة الموقف . وكانت تموزه خبرة عبد القادر واقتداره
 وعزمه . وكان سريع التأثير كثير الاستسلام للأوهام . وشاهد
 ذلك ماكتبه الى ماليت ، بتاريخ ٦ سبتمبر ، ينبئه بعزمه على السير
 بجيشه الى كردفان فى اليوم الثامن ثم يقول انه سيلافى مشاى

(١) Alfred Lyall, The Life of The Marquis of Dufferin Ava. 2 vols.

انظر الجزء الثانى ص ٥٥ .

كيرة في طريقه من جراء الماء ولكنه عظيم الأمل في أن تكون للترتيبات التي عملها . في هذا الصدد . نتائج طيبة .. وفي ختام برقيته : « ان الاعتقاد في المهدي في تناقص مستمر » .

الحدد هكس أمثال هذه التصريحات وسار بجيشه في الصحراء ولطرق الجدياء مسافة أربعين يوما والعدو يتعقبه ويراهقه من بعد . من كتب فلما عادر هكس الرهد صوب منهل البركة حيث يكثر الماء والآبار كانت قوات المهدي سقه اليه فاضطر الى الاتجاه الى غابة شيكان حيث وصل في ٣ نوفمبر . وفي اليوم الخامس كان الأعداء مختبئين في كمين فباغوا الجيش وأعملوا فيه القتل فمحوه بعد أن قضى الجوع والطأ على نصفه . وكانت الخسارة في الرجال والعتاد ٩٩٧٧ جنديا و ٤٠٠٠ خيال و ٣٩ مدفعا جيليا و ٧ مدافع كروب و ٦ مدافع من نوع آخر ومسور خرطوشة .

وقد عسى اللورد دوفرين على رأس هذه المحررة البشرية بقوله في كتاب أرسله الى اللورد فيرموريس بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٨٣ : « ما كان يحور هكس المسكين أن يطوح بالجيش الصغير الوحيد الذي تملكه مصر في معمرة حادثة الى أقصى حد . ومهما كان من الأمر وفي لا نص أن الخرطوم وسنار والنيل والمواصلات بين بربر وسواكن تحب التفكير في احلالها نهائيا أيا كان المهر المؤقت الذي تمليه الطبيعة .. »

« ولا يسعى لسكوب على صاع الخرطوم . وفي لأميل الى القيام بعض المضحات في سبل الاحتفاظ بموقع في وسعه صد تقدم المهدي صوب الشمال . موقع مصري ولكنه في الوقت نفسه مركز أمامي من مراكز المدسه » .

ولكن كان لوراره الخارجة لأجيزية خطتها البعيدة الغور وكان لها هدفها الذي لا يحيد عنه .

الفصل التاسع

غردون في الخرطوم

منذ ابتداء الثورة والهزائم المتوالية في قدير وبارة والأبيض وشكان خسرت مصر في السودان ٢٧٠٠٠ رجل و ٥٦ مدفعا و ٢٠٠٠٠٠ بدقيه و ١,٥٠٠,٠٠٠ خرطوشه .. وفي مصر نفسها لم ينس الا جيش صغير جديد تحت امرة السردار الانجليزى وود وقوه بولس برأسها بكر . وكاتب الفكرة السائدة في وزارة الخارجية الانجليزية ارغام مصر على اخلاء السودان . وقد هتفت هريه هيكس في المجلتراف الفرصه لتكليف غردون بتنفيذ هذه السياسة . وقد كتب ترويح (اللورد كرومر فيما بعد) الذى خفف مالب في مصر . بهذه السياسة . الى حكومه . بتاريخ ٢ ديسمبر (٨٣) يقول : « بالاشارة الى برقه تمس من سيادتكم آتشف بأن أحيطكم علما بأن الحكومة المصرية ضد استعمال غردون على الاطلاق لأسباب أهمها أن حركة السودان ذات صمعه دينيه فمعين مسيحي في القادة العلما قد يكون من شأنه تعبير أنفس القائل الى لاتزان مواليه الحكومة » .

وفي مذكرة كتبت في سواكى . بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٩ أى بعد ذلك بحمسة أعوام . قال اللورد كشر « حين اشرب بأهزعة هيكس الكاملة في كردفان اعتقدت في الحان جميع قبائل البدو والعرب في السودان الشرقى أن مهديا جديدا ظهر لانقاذهم من أبدى المسيحيين . الذين كانوا ، على حد قولهم ، يسيطرون في القاهرة » .

والواقع أن الحكومة الإنجليزية كانت لا تجهل هذه الاعتبارات وبالأخص نتائج تعيين أوربين مسيحيين في السودان منذ سنة ١٨٧٠ .
من هذه الاعتبارات هي التي جعلتها تفرض غردون فرضا على حكومة مصر لاخلاء السودان كما فرضت من قبل بيكر وملكولم وغردون وهبكنس وخليطا من الأوروبيين أمثال جيسى وأمين وسلاطين وغيرهم لضمهم مهمات كبرى دقيقة في المناطق المصرية في أفريقيا .

وكان غردون ينتظر وصوله المقرر في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ . فلم تدخر الحكومة لمصريه في أثناء ذلك وسيلة لتصحيح الموقف . وقد أرسل شريف باشا رئيس الوزارة المصرية ووزير الخارجية . بتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، الى بيرنج ، مذكرة شفوية تبين وجهة النظر المصرية في سياسة الاخلاء ، هذا نصها :

« ان أول اعتراض يخضر على البذل عند النظر في اخلاء السودان بواسطة مصر هو نص فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ لدى يحرم بصفة قاطعة على الخديوى كل تصرف في الأراضي المصرية .

على أنه لو فرض أن مصر كان في ممدورها ، وبمحض ارادتها ، النازل عن ممتلكاتها السودانية ، لوجب عدلا أن ننسب النتائج المترتبة على ذلك :

« ان الحكومة ، في الوقت الحالى ، تحتفظ بسلطانها على السودان جميعه . ما خلا مديرية كردفان والمراكز المصاوبة لسواكن . واذن يكون المراد بالاخلاء ترك الثورة تحتل السودان الشرفى كله ومديريته بربر ودقنة وكذلك مجرى النيل من مباحه الى نقطة لم تحدد بعد كحد جنوبى لمصر . واذن يصير المهدي السلطة الوحيدة المسلم بها في هذه المناطق الواسعة كما أن القبائل التى ظلت موالية لمصر والقبائل المترددة كالكبابيش سنضطر الى الانضمام الى العصاة وتضخم صفوفهم .

« وبعد أن تكون ساعدت على ازدياد نفوذ المهدي تضاءل مصر في
أضيق حدودها وتتعدد ثمت لكي تلاقى مباشرة صدمة الجماهير
المعصية . وعليها أيضا أن لاتهمل أمر قبائل البدو العديدة التي
تخطط من كل جانب . ولاشك أن هذه القبائل المجبولة على حب الهب
والتي تجدها مصر جند السراب لن تبقى صماء لا تسمع دعوة
المهدي إليها .

« وبعض هذه القبائل كالعبدية وقسم كبير من البشارية الموالية
حتى اليوم والى محمد من بربر الى اسيا وما قد تصبح مصدر قلق
دائم لحكومته .

« وسرى مصر نفسها . وقد سلب حدودها الطبيعية ففسارت
عوراء من كل الواحى . مضطره ، في سبيل أمنها ، الى استبقاء جيش
صخم فوق طاقتها .

« واحلال السودان . على العكس . مع حسن الاداره . يبيع لمصر
تحيد الجند بشم زهيد في هذه الممالك بل وتحمل هذه الممالك نصيبا
من ثقت ذلك الجيش الذى يساعد في وقت واحد على حفظ الأمن
في السودان وحماية مصر نفسها .

« والثالث . منذ أقدم العصور الى محمد على . أن مصر كانت دائما
تتجأ الى الهجوم صوب الجنوب لتتقى غارات شعوب النيل الأعلى .
« ولذلك فان حكومة سمو الخديوى لا يسعها أن تسلم بترك أراض
ترى أنها لازمة جدا لأمن مصر وسلامتها .

« على أننا لو نظرنا الى الأمر من ناحية المدنية لم يسع المصنف .
أيا كانت وجهة النقد الموجه الى الادارة المصرية في السودان . الا أن
يعترف بأن الى جهود مصر يرجع الفضل في أن الممالك الممتدة حتى
البحيرات أصبحت اليوم ضمن العالم المعلوم ، والى مصر يرجع الفضل

في أن بيوتا تجارية أوربية أمكن تأسيسها في السودان ، وأن رحلات
علمية استكشافية قد عملت . وأن بعثات من المبشرين المسيحيين قد
وطئت .

« وليس من اليسير انكار ما قامت به مصر للحد بقدر الامكان
من تجارة الرقيق مما ساعد المهدى على تجميع أكبر انصاره من بين
أولئك الذين عرقلت الادارة المصرية تجارتهم الشائنة .

« ولكن لأجل أن توالى عملها في السودان وتوطد سلطتها وبالتالي
تحصى مصر تخناج حكومة سمو الخديوى لى معونة مؤقنة قوامها جيش
مكون من زهاء ١٠٠٠٠ رجل .

« وستعمل هذه القوة المسلحة أولا فى فتح الطريق بين سواكن
وبربر ثم تسقى كحامية لوقف محدود الى أن تتمكن الحكومة من
جميع وحشد قوات تحمل محلها .

« ولا حاجة بنا الى القول انه لا يخطر على بال الحكومة مطلقا ارسال
جمله الى كردفان . ولكنها ستكفى بالتهبؤ لبقاء فى الخرطوم لتأمين
جانب السودان الشرقى وتأمين على مجرى النيل .

« وبطرا للصفة الدينية التى تنسب بها الثورة ترى حكومة صاحب
السمو أن أنسب تدخل فى هذا الطرف هو التدخل التركى . وهى
تعتمد أن الباب العالى لن يحجم عن تقديم هذه المعونة لى بلد كصر
سبق أن مده بقوات فى القرم وكريد والصرب وبلغاريا . وأن الحاجة
الملحة العاجلة الى مثل هذه المعونة لن تخفى على الباب العالى ليحول
دور انتشار الثورة فى طرابلس الغرب وبلاد العرب . على أن الحكومة
شديدة الرغبة فى أن كل ارتباط من هذا النوع ينسجم باتفاق مع بريطانيا
العظمى سواء كان ذلك بأن تتولى حكومة صاحب الجلالة المفاوضة
باسم مصر أو بأن تتفق مصر رأسا مع الباب العالى » .

وقد عرقلت المجتراء مشروع ارسال جود تركية بتحتيمها أن تقوم تركيا
بالانفاق على الحملة من مالها كما عرقلت كل فكرة أخرى تعارض في شكل
من الأشكال مع سياستها الخاصة باخلاء السودان حتى أصوان أو
وادي حنفا . وقد أظهرت في الوقف نفسه استعدادها للمعاونة على
حفظ النظام في مصر والدفاع عن هذه الأخيرة وعن مين البحر الأحمر .
أرسل شريف باشا ، بتاريخ ٢ يناير سنة ١٨٨٤ ، مذكرة سرية
الى بيرنج يشير فيها الى مذكرة ٢١ ديسمبر وبين له « الضرورة التي
تحتم على مصر الاحتفاظ بأعلى النيل » .

والواقع أن مصالح مصر أصبحت تضطهد مع مصالح المجتراء
اصطداما عما خلف سياسته الاخلاء . وقد بدر بيرنج . في ٥ يناير ،
بانلاغ الحكومة المصرية أن حكومة صاحب الجلالة لا تعتقد أن مصر
في امكانها الدفاع عن الخرطوم . وترغب في سحب القوت من داخل
السودان . بما فيه الخرطوم .

ولكن شريف لم ينزعزع . وفي هذه المرة وصلت برقية عراسل
الشهيرة الى أبلغ بيرنج بمقتضاها . الحكومة وشريف باشا . بتاريخ
٦ يناير « انه من الضروري في المسائل الهامة المتعلقة بشؤون الادارة
وسلامة مصر أن تتبع مشورة حكومة صاحب الجلالة مابقى احلال
القوات الانجليزية المؤقت في البلاد » .

لم يبق أمام شريف الا أحد أمرين : الخضوع أو الاستقالة وقد
آثر الاستقالة ونشر على الملأ نصها (٧ يناير) :

« ان حكومة صاحب الجلالة تحتم علينا اخلاء السودان . وليس
لنا الحق في الموافقة على ذلك الاخلاء لأن الباب العالي وهو المالك
الشرعى قد وكل اليه أمر هذا البلد .

« تقول حكومة جلالة الملكة أن مصر يجب أن تتبع مشورتها دون

مناقشة . وفي ذلك اعتداء على مرسوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ الذي
بحكمه لجديوى بمقتضاه مع وبواسطة وزيره . اما لتقبل لأنه حيل بينا
وبين الحكم طبقا للدستور .

ولكن المحلرا ما كان ليعنيها انتهاك الدستور أو حقوق بلاد احتلتها
بالموه . ومهم كان من الأمر فإن الاخلاء الذى تريده لم يكن ذلك
الاخلاء لمرب المظم الذى تقتضيه الظروف ولكن اخلاء مضطربا عاجلا
من شأنه ازاله الخواجر دفعه واحدة أمام قواب الثورة والقوضى فى
أرجاء لوادى وبوكبد فصل لسودن وملحقته . وتعريض حياة
الحاميات المصرية والمدنيين لخطر محقق واليجاد حاله تهديد ضاربة على
أبواب مصر .

وقد أبت وزارة نوبار ، التى آلت فى ١٠ يناير ، اخلاء مجردا ،
ولا ريب أنها كانت تريد اخلاء مرتبا مضمنا كما يبدو من ابلاغها ببربح ،
مند يوم ١٤ يناير . أنها قررت ايضد عبد القادر باشا حلمى وزير الحربية
أن الحزنوم ليشرف على سحب الحاميات من السودان .

وكار نوبار يقول : ان القيادة العيب لن يسلم زمامها الى يد أفصل
من يد عبد القادر الذى يعرف من السودان مالا يعرفه غيره فضلا عن
أنه ضابط شجاع كفء .

ومن تحصيل الحاصل القول أن الحكومة الانجليزية عارضت فى
فكره نوبار الى كان يؤيدها بيرنج لأنها لا تتفق مع المهدف المرسوم .
ومن العدل أن تقرر أن جميع الممثلين الانجليز . فى أثناء ثورة السودان
وفى أطوارها المختلفة . كانوا باسئمر رعى خلاف تام أو جزئى مع
حكومة لندرة من جراء سياستها المصرية لأنهم كانوا يجهلون أو
نجاهلون أحدا هدها الحقيقى الذى لا يأتلف مع منطق الحوادث
والحقائق الظاهرة .

لذلك نرى الفائتة فلنساير بيكر باشا الذي كان في السودان الشرقي منذ ١٧ ديسمبر يعلن الى بيرنج ، في كتاب مرسل من سواكن ، بتاريخ ٧ يناير ، « انه يعتقد كل الاعتقاد أن ضياع السودان سيكون ضربة قاصمة لمصر وأن النفقات الضرورية للدفاع عن مصر نفسها ستكون مصدر خراب مالي لها في المستقبل وأكثر أضعافا من المنافع التي تكون قد أنفقتها في السودان في الماضي » .

وقد بعث بيرنج نفسه بكتاب سري ، بتاريخ ١٩ يناير ، الى اللورد شرافيل . جاء فيه : « قابلت الخديوي هذا الصباح ، وقد أطلعني في أثناء الحديث ، على خطاب وصل اليه أخيرا من السير صمويل بيكر . وقد أبدى بيكر في هذا الخطاب أسفه الشديد على إخلاء السودان مؤكدا أنه . بفضل ساسة غلادستون . أصبح مصر في حالة يرثى لها وأنها قد استبدلت العموده بحرنها . ثم رجا الخديوي أن يعمل كخديوي وأن يحارب بكل عزة هذه المقترحات — يعني بصفة خاصة الاقتراح المعلق بإخلاء السودان (١) » .

وأحررا في ٢٥ يناير . وصل غردون الى القاهرة . وقلده الخديوي سلطات الحاكم بأمرة . وفي اليوم السادس والعشرين سافر الى السودان . ولكنه في اليوم ذاته أوصى بارسال الربر الى السودان نظرا لكفاءته وحزمه وتفوذه الواسع في ذلك الاقليم .

وفي أثناء الطريق كان غردون يرسل مذكرات الى بيرنج . وهذه المذكرات تكشف عما كان يشغل باله من ناحية « إخلاء السودان » . ومنها يصح أنه كان يريد « إخلاء » مرتبا متدرجا من شأنه حصر المعوصى في حدود ضيقة واتخاذ أعمال المدنية التي قامت بها مصر في السودان . ولاريب أن هذه السياسة « المنطقية » التي لا تستغرب على

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٦٦٥

طبعة غردون والتي لم ترق في عين حكومة لندرة تفسر لنا من ذلك الوقت السر في ملكت الحكومة لانجيرية ازاء غردون وامتناعها عن ارسال النجيدات الضرورية في معادها والنضحية به في صورة من الصور .

جاء في مذكره غردون الاوى الى وحسب القاهرة في أول فبراير . « ان مشكلة المشاكل هي معرفة كيف ولمن تترك ترسانات الخرطوم ودمبله وكسلا ؟ ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة في هذه المدن وان الخرطوم وكسلا حديثان لان بدايه نشأتهما ترجع الى أيام الفتح في في عهد محمد علي » .

وفي ٨ فبراير (سنة ١٨٨٤) كتب غردون الى بيرس من أبو حمد امك لا كهل أن نظاما عاما للسريد والرق موجود في السودان وأن محاكم قد أنشئت وادارات مالية وغيرها قد أسست ، وأن البلاد ، نصفه عامه . قد ثبت . رده صوبه من ابرمن . حكومه ترافب وتوجه وتدير الى حد ما .

« فلاحا لا يجد البصر ن . يمكن محوه . في الضرف الحالي . معاه . في نظري . دفع البلاد الى الموصى لكاهه . فكر فيما تؤول اليه لاحول ... »

« من اجل ذلك أرى أن الحكومة لمصريه يجب عليها الاحتصاص بركزها كدولة متبوعة ، وتمعين الحاكم نعام ومديرين وأن تكون في ممارسه سخطها شه محكمه استئناف عب . على أن لا يخرج اشرافها وادارتها العليا عن الصفة الأدبية البحتة .

« وعلى الرغم من كل ماحدث . أراني في اعتباط لشعوري بأن هيئة حكومه القاهرة . الا فيما يتعلق بملكت جنودها في ميادين القتال . لم يصيبها محضل حدى . وأن القوم لا يزالون ينظرون الى حكومة القاهرة

باعتبارها امثلة للشرعة للسلطان في شخص الحديوي . وان الانفصال
التام . في نظرهم ، اذا تحقق ، كان أمرا ادا .

« لذات الح في أن تكون الخطة التي تتبعها قائمة على الاخلاء ،
evacuation لا الترك abandon وأن يحل محل الفرمان الذي
أستمد منه سلطان فرمان آخر يعترف برقابه مصر الأدبية وبمركزها
كدولة متبوعة (١) » .

هذه الوثيقة الهامة كانت تحمل امضاء غردون لصفته (الحاكم العام
للسودان ومديريات البحر الاحمر) .

وفي ٢٨ فبراير كتب بيرنج الى حكومه يقول انه لا يوجد الا أحد
أمري : اما اخلاء السودان كله ونحب أن نجهود لايجاد حكومة ما فيه
قل الرحسن واما العمل بكل الوسائل الممكنة في الوقت الحالي على
توطيد حكومة ما تحل محل الادارة المصرية السابقة .

« ان غردون من انصار الفكرة الأخيرة وني على اتفاق تام معه . .
« وأيا كانت وجهه النظر من الناحية السياسية أو العسكرية أو
المالية لا مرء في أن الموقف سيكون في منتهى الخطورة اذا نحن سمحنا
للقوى المنظمة أن تنهض في جنوب وادي حلفا . هذه القوضى التي
ستعقب حتما ذهاب غردون » .

وقد أوصى بيرنج في ختام رسالته بارسال الربر باشا خصوصا وأن
طلبه هذا يؤيده بقوة غردون ونوبار .

ولكن الحكومة الانجليزية غسكت برفضها بحجة أن الربر من نجار
الرقيق القدمات . والحقيقة أنها كانت تخشى أن يؤدي استعمال الربر
الى سحق حركة المهدي وايجاد حكومة وطنية قوية ، بعد رحيل غردون

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٢٦٦٧

وبالتالى الى عرقنة الخطة الانجليزية الميثة في لندرة وأهدافها البعيدة
في السودان .

والحق يقال كان غردون معارضا للترك وللإخلاء معا اذ كان يرى
١ برقيه ٢٦ فبراير) أن المهدي يجب سحقه اذا أرادت مصر أن تعيش
في سلم وضمانته « اذكر دائما هذه الحقيقة وهي أنه اذا تمكن المهدي
من أخذ الخرطوم أصبحت مهمسا أكثر وعورة منها بالأمس ... واني
تكرر أن الاخلاء ممكن ولكم ستحسون بآثاره في مصر ، وانكم
ستعمون على مواجهه موقف جديد أشد خطورة للدفاع عن مصر » .
وأخيرا طلب غردون في برقيته ارسال ٢٠٠ هندي الى وادي
حلفا ومال ...

والحكومه الانجليزية ، كدائها ، لا تحب طلبا لغردون أو للسلطات
لخلة الانجليزية أو المصرية ، في القاهرة : لا رير ولا جندا من تركيا
ولا جندا من الهند .

وفي أول مارس ، بعد أن أعلن تمسكه بسياسة الاخلاء المحتمل ،
قال : « لقد كان الرير أملي الوحيد . سأعمل جاهدا ، قدر الطاقة ،
على تنفيذ تعياني ، ولكنني موقن كل الايقان انني سأؤخذ في الخرطوم » .

وفي ٨ مارس : « أمام العاصفه التي سننصب على كدنا لماذا لا نستعمل
وود وقواته (المصرية) للسير الى دقهلة ومن هناك الى بربر . ان الطريق
مأمون والجمال كثيرة » .

الواقع أن غردون كان يضرب على حديد بارد . وكانت كل تصرفات
سلطان في لندرة والقاهرة معه وسكوتها عن نصرته بما يساعد على
اتساع الثورة وانضمام أنصار جدد كل يوم لها . وقد كان لاعلان
بأ ترك لسودان على ملاء من السودانيين ، في ذلك الوقت أكبر الأثر
في تقوية نفوذ المهدي واضعاف قضية مصر .

لم يسع عردون الا أن توفر على تنظيم المقاومة في الخرطوم وقد سار على نهج عبد القادر في تحصين الخرطوم والاستعانة بكبار الصباط المصريين والسودانيين ولكنه على الرغم من قوة جلده وذكائه كانت تنقصه راحة عقل عبد القادر وقدرته الواسعة وبصره بالرجال ولم يكن على أية حال « رجل الساعة » للقيام بمهمة دينية عسكرية معا . وقد حاول أن يقلد عبد القادر فكسب بتاريخ ٢١ فبراير ، الى الشيخ الصير ، أحد أقرباء المهدي ، ورئيس العصاة في النيل الأبيض خطابا مملوءا بلايات الفرية والأحاديث التي تثبت كذب دعوة المهدي . ولكنه في الوقت نفسه أظهر روحه الإنجليزية بوعده بانقاص الضرائب ومعاملة الموظفين الوطنيين بالعدل والحسنى .

ولا ريب أن أخطاء الإدارة المصرية . وهي أخطاء في طبيعته كل إدارة لتشر — إذا استئسنا اجراءات العنف التي اتخذت ضد تجارة الرقيق وما إليها من مصادره وبطش وعدوان — لم تكن إلا عاملا ثانويا جدا في الاستياء العام . ولا نعدو الحصة اذا قلنا انه لم يكن هناك استياء عام بالمعنى الصحيح وأسباب جدية كافية لايجاد ثوره . ان الثورة المهدية ، بصيغتها الدينية البهنية . لم تكن كغيرها من الثورات . انها حركة قد نشأت ونمت ووجدت غذاءها ومادتها في القوس لا في العوامل المادية البهنية . وقد كان الدراويش والفقهاء والأعراب الذين تتألف منهم كئائب المهدي نهضوا على الموت توقعهم فكرة روحانية وعقيدة تسلطت عليهم وأهلت تعصبهم وتحمسهم للقتال . واذا حللنا منشورات المهدي كلها تبين لنا أنه لا يوجد أية إشارة الى الإدارة المصرية وإلى الضرائب وحتى الى تجارة الرقيق . كان المهدي يستحث أنصاره وعصبيه على محاربة النصارى (الأجانب) والترك الذين زعم المهدي « أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره صريحا بقتالهم وأخبره بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول بأثامه وارتادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي

أراد به اظهار عدله » ، وكان يعدهم الجنة والثواب في الآخرة . وكانت
اصاراته ودعاواه المصطنعة من رؤى يرى فيها النى فيقول له كيت
وكس ويشره بكيت وكيت تخدم دعايته بين القبائل والجهل والمشعوذين
والسذج وهم السواد الأعظم في البلاد .

ولذلك كانت منشورات غردون على أهل الخرطوم في شهر فبراير
لاقت بصلة الى الحقائق الراهنة ، وكانت تنم عن فكر مشوش
مضطرب . وهي فائتة على بحارة الثورة بالقضاء على الأسباب التي
مهدت لها . وهذه الأسباب في نظر غردون أهمها تجارة الرقيق ووسائل
العنف التي استعملت للقضاء عليها وفداحه الضرائب وطرق جبايتها
وهي تتلخص في غشم الولاية وظلمهم .

وقد بنا من قبل أن معظم السعة ، ان لم يكن كلها ، يقع على
« الادارة المحلطة » التي بدأت تثير القصة في السودان منذ دخولها في
سنة ١٨٧٠ . وان العامل الذي كان هو المحرك الأكبر الذي اسطم الحركة
في البلاد .

ول غوردون في أحد منشوراته : « ان السودان قد فصل عن مصر
فصلا تاما وقد جنك حاكما مفوصا عليه فجعلت محمد أحمد سلطانا على
كردفان . وألغت الأوامر الصادرة في منع الرقيق . وأغضيت عن
التأخر من الضرائب لعاه سنة ١٨٨٣ وعن ضرائب سدين في المستقبل ،
وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ،
وقد نددت الشيخ عوض الكريم أباسن ليكون مديرا على الخرطوم . »
كان المهدي مند موقعة شيكان يستعد لزحف على الخرطوم
وقد ظهرت الحكومة المصرية أمامه . في شخص غردون . بمظهر العاجز
الحائر . وبينما كان العصاة يشرعون في حصار الخرطوم (١٢ مارس
سنة ١٨٨٤) كانت الثورة تنتشر حوالى النيل ، في سنار وفي النجاء بربر .

وكان خطرهما من ناحية المدينة الأخيرة يهدد بقطع طريق لنيل (حلفا - أبو حمد - بربر) وطريق السودان الشرقى (سواكن - بربر) أمام كل حملة تركية أو انجليزية لانهجاد غردون .

والذى يزيد من حرج الموقف ودقته اشتداد الحالة فى السودان الشرقى . حيث كان الايدن بدء الثورة فى منتصف سنة ١٨٨٣ حين نجح عثمان دقه . وهو أشد أعوان المهدي بأسا ودهاء وجندا على الكفاح . فى حمة قلة المهددوه والقائل الاخرى على الانضواء تحت رايه المهدي ونظويق سواكن . فلم يمض نصف عام (فى أواخر سنة ١٨٨٣) حتى كانت الحميات المصرية كلها فى المدن المحصنة المحلقة لعبه حدود الحبشة محاصرة (سنه و طوكر وكسلا وأماديبي وغرة والقضارف والقلايات) .

وكان القائد الانجليزى بيكر يريد انقاذ سنكات أولا ولكنه علم من قومندان حامية طوكر أن المدينة قد نفذت ذخيرتها فذهب لتجديتها من سواكن على رأس حلف من الفرسان المصريين (٣٠٠) والفرسان الاتراك (١٥٠) وجندرمه القاهرة ولاسكندرية (١١٥٠) وعساكر مصوع (٤٥٠) والمشاة الاتراك (٤٢٩) وعساكر الزبير باشا السودانية (٦٧٨) والطوبخانة المصرية (١٢٨) ومجموعهم ٣٦٥٠ . ولما نزل فى ترنكات (٢٨ يناير سنة ١٨٨٤) احترب مع عبد الله أمير الساحل وانجبت الموقعة عن محزره خسر فيها بيكر ٢٢٥٠ جنديا و ٩٦ ضابطا و ٤ مدافع ونصف مليون خرطوشة و ٣٠٠٠٠ بندقية فمقل راجعا الى سواكن وترك سنكات تحت رحمة الفناء أو التسليم .

وقد قاومت سنكات مقاومة البطولة قل سقوطها فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ بدأ حصارها فى ٥ أغسطس سنة ١٨٨٣ ، ومنذ ١٨ أكتوبر من نفس السنة كانت جميع المواصلات مع الخارج قد قطعت بأكملها . ولعد أن أكلت آخر قطة وآخر جمل عاش القومندان توفيق بك

والمدافعون على الميران والكلاب والأحذية ... وأخيرا أكلوا الحشرات
وأوراق الشجر والطيور الجارحة التي كانت تحلق أو تحوم حول المكان .
وعلى الرغم من الجوع وتهدم الحصن الذي كانت تحميه أكياس من
الرمل فإن الجنود كانوا لا تخور عزيمتهم . فلما لم يبق شيء يقتاتونه رمى
توفيق وجنوده المدافع في الآبار ودمروا كل ما قد ينفع الدراويش ثم
خرجوا - ونسأؤهم وأطفالهم في أعقابهم - وكان اجمع ٧٠٠ نفس -
وحملوا على العدو حملة شعواء ودوحوه وغلبوه مرارا حتى اضطر العدو
الى جلب نجدات جديدة وسحقهم تحت عدده وقد ذبح الرجال وأسر
النساء اللواتي نجون من الموت ، وباع الأطفال عبيدا . وقد قاتل
توفيق بشجاعة الى الممات .

كتب جاكسون في كتابه عن (عثمان دقنه) يقول : « في أثناء السنة
الاشهر الأخيرة من المعارك كان دفاع البطل توفيق بك الصفحة الوحيدة
الرائعة » .

وعلى أنه حال كانت هناك صفحات رائعة كثيرة في السودان شرقا
وغربا منذ الأبيض » .

وفي أثناء ذلك كان بيكر غادر سواكن على عجل بفلول قواته في
حالة هرج ومرج لا يطر لها . ولما كانت منطقة البحر الأحمر تهم المجترة
ببوع حاص فقد قررت ارسال حملة بقيادة جراهام لانقاذ طوكر ، وكانت
مهمته محدوده . ولكن طوكر سقطت قبل انجاده (٢٠ فبراير) .

وكان توفيق بك قل صرب الحصار الكامل حول مدينته . من
يولية الى سبتمبر . أوقع بعثان دقنه هراثم كثيرة ، فكان لا بد من سحق
دقنه نهائيا اذا ريد . من جهة . انقاذ كسلا والمواقع الأخرى المحاصرة
ومن جهة أخرى فتح طريق بربر لمع سقوط هذه المدينة الأخيرة وانجاد
الخرطوم .

وقد انتصر جراهام ، في أواخر فبراير ، على العدو في معركة التيب
فترك ٢٠٠٠ قتيل (من ٦٠٠٠) خلاف الجرحى ، واحتل من جديد طوكوكر
في أول مارس ، وفي ١٤ منه هزم عثمان دقنه في تمای ، مركز جيشه ،
وقتل له ٢٠٠٠ من « الأنصار » .

وكان النيل جميعه ، اسداء من الخرطوم ، يتطلع في محنته نحو السودان
الشرقي ، كتب الكولونل ستوارت في أول مارس الى بيرنج يقول :
« لقد تبين لي في ساحي الأخيرة على النيل الأبيض أن السكان
يسخفزون . ويظهر أن المهدي يؤثر أن لا يتحرك الى الأمام ينظر قبل
أن يتحقق من نبأ الحملة الانجليزية المتطرة .. » فإذا نظرنا الى الأمر
من هذه الزاوية لم يسمنى الا الاعباط من كل فصي . ينزول جراهام
في سواكن . وأرى أن يتقدم الى بربر بعد هزيمة عثمان دقنه . فهذا
هو السيل الوحيد لاتقاذ حاميات سنار وغيرها .. »

وفي ١٣ مارس أبلغت وزارة الخارجية الانجليزية بيرنج انها لا توافق
على الاقتراح الخاص بالزبير ولا على ماورة بربر . وبعد ذلك بثلاثة
أيام . في ١٦ مارس . كتب اللورد غرانفيل الى بيرنج : « اننا موافقون
على الحركة التي قام بها جراهام شطر سنكات ولكننا لا نسمح مطلقا
بتقدم أية قوة في اتجاه بربر حتى تصلنا المعلومات الكافية عن الأحوال
العسكرية وحتى نتأكد تماما من ضرورة هذا التقدم لتأمين غردون
لا أكثر » ..!

وفي شهر مارس ، وعلى الرغم من هزائمهم ، انتهز عرب عثمان دقنه
فرصة سكون جراهام القهرى وقطعوا الطريق بين سواكن وبربر
وأخذوا يهددون طريق كوروسكو الذي يعتبر خط الانسحاب الوحيد
لبربر ولمدافعها النساء والآلاف الرجال والنساء والأطفال .

وفي ٢١ مارس كتب بيرنج الى حكومته : « يلوح لي أنه ليس من

المستحسن مطلقا منع جراهام من مهاجمة عثمان دقته ، اذا اقتضى الأمر ،
لفتح الطريق الى بربر .

وفي ٢٣ مارس جاء رد وزارة الخارجية الانجليزية : « وصلت برقينتكم
المؤرخة ٢٢ الجاري بخصوص اقتراح جراهام الرحف الى ايمانيب ومهاجمة
عثمان دقته في مقره الحالي .

» ان حكومه صاحب الجلالة تسكر كل عمل حربي جديد ليس
له هدف معين .

على ان وزارة الخارجية لابلث ان نقول بعد ذلك : « ولكن اذا
كان جراهام يرى ان تأمين طريق بربر يسدعي هذه العملية فاما دذن له
بالتقدم لغاية ايمانيب .

ثم بعد كل هذا الرومان والبردد حشيت ورايه الخارجية مغبة الابهام
الساسى والوقوف بين لا ونعم فكاشفت بما تطوى عليه وقررت ابلاغ
بربر . « رفضها ارسال حملة انجليزية الى بربر .

وفي نفس اليوم ارسلت وزارة الخارجية برفيه سرية الى بيربر ليقول
له « ان اردون مضى الحريه في البقاء بالخرطوم او في الانسحاب عن
طريق الجنوب او عن أى طريق آخر » .

معنى ذلك ان انجلترا كانت تريد الضحكة على طول الخط يغردون
وبربر ودهنة وكسلا والسودان جميعا وحامياته وآلاف المدنيين والانس
وكل ما يمكن انفاذه . وانها كانت تريد في نفس الوقت اطلاق العنان
للموضى والمذايح والنهب والسلب لمعمل فعلها وتاتي على جمع منشآت
الحضاره والعمران الى اقامتها الادارة المصرية مند عهد محمد علي .

وبذلك كانت نجتريا تريد ان توجد في السودان حالة تسمح لها
بتطبيق النظرية القانونية « الأرض التي لا مالك لها »

لتمهد لنفسها فرصة الاستلاء عنه من جديد عندما تسمح الظروف
وامتلاكه بحق الفتح .

وهذا الغرض المستر الذي تهدف اليه الحكومة الانجليزية منذ
تدخلها في السودان وارغام مصر على استدعاء عبد القادر باشا أو بعبارة
أدق منذ تعيين بكر على رأس حملة خط الاستواء كان لابد من بلوغه
بى ثمن . وهذه السياسة العليا منطقها الوحيد في وسائلها الجارية التي
تزرعها الغاية . وكان بيرنج وأمثاله من الممثلين الانجليز . كما قلنا ،
يعارضون في هذه السياسة لأن مضى الحوادث كان يهولهم .

وعنا كتب بيرنج الى حكومه . بتاريخ ٢٦ مارس يقول ردا على
برقه ٢٥ السريه : « تشرفت باستلام برقة أمس . . واني على كل
الأحوال لا أستطيع أن أحاول تلميح رساله كهذه قبل أن أعرض الأمر
من جديد على سيادتكم . فاستحووا لي أن أتقدم برجاء حكومة صاحب
الجلالة أن تضع نفسها مكان القائد غردون والكولونيل ستوارت . ان
مدبري الضابطين قد أرسنتهما حكومة صاحب الجلالة للقيام بتسييد مهمة
من أصعب المهمات وأخطرها . وقد رفضت الحكومة اقتراحهما الخاص
بارسال الريير باشا الى الخرطوم مع أن هذا الاقتراح لو نفذ ، من بضعة
أسابيع . لسفر الموقف كله ولأمكن تقادي نتائج المتوقعة .

« وفي حالة اسلاء غردون وسيوارت التعليمات التي تشمل عليها
البرقية المشار اليها آنفا فانهما سيستخلصان منها ، ان الحكومة الانجليزية
ستدخل عندهما وعن معهما . وانهما لا يجوز أن يفكرا في وصول مساعدة
ما من هذه الحكومة بعد اليوم . . .

« والحق يقال اني لأعتقد في استحالة انجاء غردون حتى في الصيف
باستعمال الجنود الهندية . . واذا فرص وبعثت المساعدة في الوقت
الحالي فاني أقترح بالحاح أن يكلف غردون بالاحتفاظ بمركزه في الخرطوم

في أثناء الصيف وأن ترسل إليه حملة في أول الحريف بحيث تصل النجدة في حينها إذا كان الحصار لا يزال باقيا . . »

ثم يقول يربيع في الختام : « بما أننا أرسلنا غردود الى الخرطوم يسوح لي أن في عنهما التزاما أدبيا . من الحايين الانسانيه والسياسية ، يقتضى منا عدم التخلي عنه » .

ولكن قصي الأمر . وظلت فكره الحملة الشهيرة (حملة بعد الأوان The Too LATE Expedition معلقه بين التردد والاحجام ولم يتقرر أمرها في لدره الا في آخر أغسطس . أي بعد خمسة أشهر من تاريخ عرض اقتراحها .

وقد كان غردود بالهامه على بينه من الامر يستشف أبعد البواطن في ساسه حكومه . شاهد ذلك برفسه الى يربيع بتاريخ ٣١ مارس : « أخاف أن تكون الآن موعلا في نصيب وقت بلا جدوى وأن لا يُنتج عملك الا بعد الأوان » .

وفي أثناء ذلك كانت السلطات تكفي بإبقاء سواكن والساحل تحت حماية السفن الانجليزيه بينما في داخل السودان الشرقي ، على أثر انسحاب قوات جراهام . اصفر معظم السكان ، على كره منهم ، الى الانضمام الى العصاة .

وقد كتب الكولونيل تشيرمساید . في ٩ أبريل . من سواكن ، يصف الحالة : « ان العصيان الحالي قد أدمج في « اتحاد » جميع القبائل العربيه التي كانت بطونها وأفخاذها المتعددة المختلطة يسدر في التاريخ أن تتحد وتتألف منها كمة واحدة الا اذا استتبنا عصور الحركات الدننه القويه . وهي تؤلف مؤقتا شعبا خاضعا منظما رزق شجاعة خارقة مستمينة . ويؤدي عثمان دقنه مهمته كعامل للمهدى دور أن يتقاضى أجرا أو يتلقى أقل مساعدة مادية من مال أو غيره » .

وقد أرسل عثمان دفة ٤ مدافع الى العرب المحاصرين الذين كان عددهم في ارباد حول بربر ، في حين أن المدينة كانت لا تملك الا مدفعا واحدا وقوه حربية صغيرة (٢٨١٠ جنود نظاميين وغير نظاميين ضد ٥٠.٠٠٠ مسلحين بالساق والحراب والسوف) . وعث أرسل حسين باشا خليفة المدير النداء بعد النداء طالبا من حكومة القاهرة المجاهدة من طريق سواكن أو من أصوان حيث وصلت قوات مصرية جديدة (منذ مارس) .

سقطت بربر في ٢٠ مايو . وقد أعمل العرب حين دخلوها القتل في الأهالي والمدافعين على السواء (٢٠٠٠ قتل) ونهبوها عن آخرها . وكان لهذه الحوادث المأساة وقع أليم في مصر . وقد أبلغ بيرنج حكومه أن الرأي العام في مصر نائر . وأن إحدى الصحف المصرية كتبت تقول :

« ان الصحف الانجليزية حين علمت التخلي عن بربر للعصاة تعلن غير هيابة ان المدن الأخرى ستلاقى نفس المصير وشكا .

« وهذا أمر لا يطير له في الدريخ . وأن هدف السياسة الانجليزية واضح . لن نخطو خطوة واحدة لانقاذ السودان ، في الصيف ولا في الشتاء ، أو لانقاذ غردون .

« وقد نجحت إنجلترا بهذه السياسة التي لاضمير لها في تقض عمل محمد علي وخلفائه في السودان من أساسه (١) » .

وبعد الاستيلاء على بربر قصد الدراويش دنقلة حيث صدهم مرارا فائد الحصن مصطفى باشا ياور وأوقع بهم خسائر جسيمة فبقيت الخرطوم وكسلا وسنار ودنقلة والقلابات تقاوم في أخرج ساعاتها .

(١) لم نعتز على النص العربي الاصلى .

وأخيرا وصلت الحملة الموعودة (حملة بعد الأوان) مصر في شهر
سبتمبر . ولم تصل حلقا الا في شهر أكتوبر لانتقاد الخرطوم من طريق
النيل . ولكن حين وصلت طلائعها بالقرب من الخرطوم كانت المدينة
قد سقطت (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) .

وقد عانت المدينة في أثناء الحصار صروب البلاء وأصابها في الأشهر
الأخيرة الجوع والفحط وفقد غردون خبرة أعوانه من القواد المصريين
والسودانيين ومن بينهم القائد السوداني محمد علي باشا الذي انتصر مرتين
انصارا رائعا على الأعداء ولكنهم تمكنوا منه وأخذوا جيشه على غرة
على النيل الأزرق في سبتمبر فمزقوا شمله .

وباستدلال من أقوال شهود العيان ان جنود الحامية في الشهر الأخير
أكلوا حمر المدينة وان اردب الاذرة كان يباع بألف ريال .

وقد افصح الدراويش المدينة في مطبخ الفجر وفلوا كل الرجال
حتى لشيوخ والمرضى وأعملوا النهب والسلب كما دتتم فلم يبقوا على
شيء ، وباعوا النساء والأطفال بضع العبيد . وذبحوا جميع موظفي الحكومة
وأسرهم وكثيرين من التجار والسكان الآمين ومعظم جنود الحامية .

ويقدر عدد القتلى في الخرطوم بـ ٢٠,٠٠٠ ، وقد استمرت المذبحة
سبع ساعات . ودم النهب والتخريب ثلاثة أيام أصبحت لمدينة بعدها
كومة أنقاض . وقتل غردون فيمن قتلوا ...

وقد اضطرب همه بعد الأوان أن تعود أدراجها بعد أن بلغت هدفها
الحقيقي : الوصول بعد الأوان . وقد كذب كرومر في هذا الصدد
يقول . « ان سوء التقدير الذي اركبه غلادسون وصمه في سمعة
البحر واليس في وسع التاريخ المصنف ولا القاضي المحير محوها أبد
اندهر » .

وكان غردون يصدق حبه والهامة ومعرفة بواسط السياسة
الانجليزية يوقع وصول الحملة بعد الاوان اذ كان كتب في يومياته بتاريخ
١٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ : « لقد كتب على الخرطوم ان تؤخذ تحت عين
الحملة وأنها في اللحظة التي تصل فيها تماما . ولقد نظن الحملة ان عليها
ان تسترد المدينة . ولكن مثل هذا العمل لن يقدم ولن يؤخر وسنجر
الى معركة دامية بلا جدوى : والخير كل الخير في ان تعود أدراجها في
امن وسلام وهي تاكل الخزي وتشربه » .

وقد علق مترجم (يوميات غردون) الى الفرنسية على ذلك بقوله :
« يلاحظ ان الحكومة البريطانية قد ضربت بجميع آراء غردون عرض
الحائط الا هذا الرأي فقد أخذت به » .

وكان غردون توقع انه « سيؤخذ في الحرم » وقد أخذ فعلا وقبل
محاولت السياسة الانجليزية ان تستغل موته مع انه من ضحاياها .

ومن العجب ان الصحافة الانجليزية : بعد موت غردون . أصبحت
تسمى السودانيين « عصاة » و « متعصين » مع ان الحكومة الانجليزية .
على ملائ الرلمان . في سنة ١٨٨٤ . كانت تصرح ان السودانيين يقاتلون
في سبيل استقلالهم ... وهذه الحكومة نفسها . لم تردد بعد انتصارات
جراهم في التيب وتماي . في الاعلان عن أسفها لموت ٥٠٠٠ من
الدرائش ...

على ان سيل الحوادث لم ينف . فقد كتب مدير كسلا . بتاريخ
١٣ أبريل سنة ١٨٨٥ يقول . « لقد تكلمنا كل الخير . ولا يوزع على
الجنود الا قليل من الخبث . ولقد وصلني كتب من قومندان سنهت
يصحى فيه ان النحو من المدينة عبر حضرة العدو ولكنى لن أبرح
مكاني وسأحمل على العدو » .

وبعد احتر أكل المحاصرون الكلاب . وكان يموت جوعا من حدود

الحامية ، في يولية . من ٤٠ الى ٥٠ يوما فاضطرت المدينة الى التسليم
في يوم ٣٠ . وبعد التسليم جاء الى كسلا عثمان دقنه وثلاثة أمراء
وبسطوا فيها حكم الارهاب . وقد وضعوا البطل الذائد عن المدينة في
الحديد ثم قتلوه .

واسولى الدراويش على جميع أملاك الحكومة والتجار والأهالى ؛
وأحدوا كباب عظيمة من الذهب والفضة ومستودعات ضخمة بلغت
حمولة ٦٠٠٠ حمل توجهت الى الخرطوم .

وفي ٢٠ أغسطس . بعد مقاومة بشة طويلة أسلمت سنار بدورها ،
ومحق المدير والحامية كلها محقا (من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ رجل) .

أما دقنه فان الماجور كنشر كان كتب الى السير وود من المدينة في
٣ أغسطس سنة ١٨٨٤ : « ان الحاله في هذه المديرية أصبحت دقيقة
لنعيه . وهى بدى على أهل بالسكان والناس فيها باقون على ولائهم ،
وقد تطوعت كل قرية بإرسال رجال منها للضال الأخير . وكلامهم يختلف
كل الاختلاف عن أنصار المهدي الذين لم يترددوا ، لو أتيح لهم ، في
غزو البلاد وتحريها . وهم لا يظهرون أقل ميل الى المهدي .

» وقد اسلم المدير ثلاث مرات الأمر بالانسحاب ولكنه يقول :
كيف أترك أولئك القوم الذين أولوني كما أولوا الحكومة المصرية ثقهم ،
ويقول ان دقنه مفاح مصر وأن أنصار المهدي متى استولوا على موارد
هذه المديرية أمكنهم السير الى الأمام عن طريق النيل . .

» ويلج المدير والأهالى في طلب ارسال جند لنجدتهم وانى أؤيد
هذا الطلب بكل قواى » .

وفي ٦ أغسطس (سنة ١٨٨٤) كتب البحرتون ممثل إنجلترا في مصر ،
الى وزارة الخارجية البريطانية ، يشئ على شجاعة مدير دقنه ، الذى
لا يزال ، رغما من أمر الانسحاب ، يضرب العدو ويخذه ، ومن رأيه

أن بعض الفوات المكلفة بالدفاع عن مصر يكون استعمالها أتم وأفضل
لو أنها أرسلت صوب الجنوب قليلا . الى ما وراء الشلال . لعرض
مد اليد الى غردون ، وتيسير سبيل النجاة له عبر دبة ودقلة .

« ولكن النيل سيكون عاليا بعد رمس وحيز . وائدة قصيرة محدوده
لامكان ارسال حمة هرية . لذلك يتحتم ارسال الحملة في الحال والا كان
ارسالها في حكم العدم » .

وقبل سقوط الخرطوم برمس لم تسعف دقته بل أخذت بالقوة .
وقد كب المجرئون الى حكومته . بعد ذلك بعام . في ٢٠ سبتمبر
سنة ١٨٨٥ يقول : « اني أتذكر جيدا أن الحملة التي نفذ بها قرار
ترك السودان هي التي كانت أصل الررايا والنكبات المادحة التي
لا عدد لها وان الحملة التي نفذ بها أيضا اخلاء دقته هي التي تسببت
بأعمال التخريب الواسعة بهذه المديرية » .

الفصل العاشر

المدينة المصرية

وصف الدكتور آت باش رئيس الجمعية الجغرافية بالقاهرة حالة دنقلة ، بعد إعادة فتحها في سنة ١٨٩٧ ، فقال : « ان أراضي دنقلة كانت كثيرة السكان كثيره الحطب والماء بح الحكمة لمصرى قبل عروة المهدي لى فص عليها .

« وقد كانت صنادقها عامرة بالسواقي التى لا سبيل الى الاستغناء منها وف هبوط النيل . وكان عددها بلغ ال ٨٠٠٠ لم يبق منها اليوم الا حوالى الالف . وبتلك نكة مضعة توقف حياتها على الماء والرى ، ان الآن تمت الزراعات ومحصولها الوفرة / ايان يذهب لا يرى الا آثار لاهمال والهرج . ونحن لنا ان نأمل ان تتمكن الحكومة المصرية من صلاح هذه البلاد التى دخلت لحس الخط من جديد فى حورتها ، ووضعها بضمن من التقلبات الطارئة ، وذلك باعادتها تدريجيا الى حالة الرفاهية واليسر الأولى (١) » .

Dr. Abbate Pacha, Aegyptus, 1909. (١)

« فى اثناء الخمسة اشهر التى قضيتها فى مديرية دنقلة ، سنة ١٨٩٧ ، تماهدت فى كل مكان اشبع انواع الوُس والشعاع ، وقد هلك اربعة احماس السكان ، وقتت معظم الاراضى مقفرة بلا ررع ، واهملت الخيل اهمالا جعل محصول البلح لا يكاد يكفى لقوت بقية السكان التى كانت تضطر جاهدة لتعيش . وكانت معظم السواقي قد حرقت او حطمت واكل الدراويش كل السدواب التى كانت تديرها ولم يكن فى البلاد بر بحارة او مال . وكان الفيل قد اهلكهم حروب المهدي والحليعه . وحملت الفسات الى مارل القنار حريما لهم .

أما الخرطوم فإنها بعد سقوطها وموت المهدي لدى وقع في
٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ أقام الخليفة عبد الله في ثم درمان وجعلها مقرا
لأن الخرطوم كان أصابها من التدمير ما جعلها غير صالحة للسكنى .
والمصريون هم الذين أنشأوا الخرطوم وكسلا في السودان النيل
وبربرة على خليج عدن وجلدية في هرر وأدخلوا وسائل العمران
لحديثه في حواضر السودان المختلفة .

وقد كانت الخرطوم قبل الفتح المصري قرية للصيادين مكوّنة من
بعض الخيم والعشش المتفرقة ، وفي سنة ١٨٢٣ ، على أثر إنشاء معسكر
دائم . حيث الكلاب " محل اللحم وحيث محل العشش المساكن المبني
بالتوب (اللس) اخضع في الشمس ومن ثم محصنة للضباط . ثم

= " وكانت حالة البلاد بين أبو حمد والخرطوم أشدّ تعاسة . وكنا
نرى هنا وهناك الذين أحسّ عنهم السؤس . وخصوصا المسيحيين والمعانين ،
احتملوا معا لمحاولة تكوين قرية . والذي حارب في فهمه وراد من عجبتنا
كيف يوم كان أولئك العوم يعيشون ! وقد كان الباب المشوك يغطي تقريبا
كل الاراضي التي كانت من قبل مراعى راهرة . وكانت مظاهر الحرب
والتدمير ماثلة في كل مكان . وقل الاتيس فلا ناس ولا دواب . واختفت
الكلاب وانقطع كل اثر لها . معدمه (Wallis Budge, The Egyptian Sudan)

ويمكن ان نضيف الى ما تقدم ان الخراب عم سكان السودان قاطبة
ففتكت بهم الثورة والحروب والأمراض فنقص عددهم من ٨,٥٠٠,٠٠٠
في سنة ١٨٨٢ الى ١,٩٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٠٥ أي بعد ٦ سنوات سلم .

(١) تكل (بصم النساء والكاف) وجمعها تكلات مساكن من حطب
ابرد وانهيم على شكل دائرة ترتفع عن الأرض نحو متر ويعلو هذه
الدائرة شكل هرمي بارتفاع مترين تقريبا . انظر عرائف الرمال في صح
السودان لمحمود طلعت طبع سنة ١٢١٤ هـ .

ويقول هاري جوسبور في كتابه عن النيل The Nile Quest ان الخرطوم
كانت قرية صيادين مكوّنة من العشش وان ابراهيم باشا في سنة ١٨٢٣
احارها كمعسكر سيطر على النيل الاسفل والنيل الاربى معا ويسهل
الدفاع عنه . ومن ذلك الوقت اخذت تنمو نموا سريعا بفضل موقعها حتى
اصبحت حاضرة السودان .

شيد جامع فسوق فمبان أخرى • وفي سنة ١٨٣٠ جعلها خورشيد باشا.
الحاكم العام للسودان (١٨٢٦ - ١٨٣٩) عاصمة البلاد الرسمية . وأقام
فيها قصرا للحكومة ومباني عموميه وحوصين على النيل الأبيض والنيل
الأزرق وحدائق . ولما زار محمد علي الخرطوم ، سنة ١٨٣٨ ، كان يوجد
بالخرطوم ثكنات عسكرية . ومستشفى . وحوالي ٤٠٠ أو ٥٠٠ بيت .
وقد كان خورشيد باشا أول حاكم حث الأهالي على ترك عششهم
المصنوعة من سيقان البامبو وجلود البقر وبناء مساكن بالطوب الأحمر .
على أن معظم هذه المساكن كانت دائما مهددة بالانهيار عند ارتفاع
النيل من نهط الأمطار وقد مات الدكتور توسكابللي ، بالخرطوم ،
سنة ١٨٤١ ، تحت انقاض بيته اذ جرفه فيضان استثنائي .

ويقول الدكتور أبنت باشا أن مزار أكثر متانة ارتفعت رويدا
رويدا هنا وهناك ، وكانت مباني الحاكم والمديرية وبعض منازل الموظفين
والبحار بالأحر (الطوب المطوح) فكانت لها روعة وسط المساكن
المحطية بها . ثم بيب ترسانة . وثكنة . ومخزن ذخيرة ، وجامعان ودار
للمبشرين وبدى في غرس شجر الين والبرتقال والليمون والموز
والنخل في الجناب . وأحدث حدائق الخضراة تنتشر في وقت معا حول
أهل الماني وأحفر الاكواخ التي كان يقطنها جنود الحامية . «

وكان بران روليه ، في سنة ١٨٥٦ ، يقدر عدد سكان الخرطوم من
٤٠ إلى ٤٥ ألفا ، وقدرها أبنت ، في سنة ١٨٨٢ ، من ٥٠ إلى ٥٥ ألفا .
والواقع أن الخرطوم قد أصبحت منذ عهد محمد علي ، على حد قول
المؤرخ اسلم بوردجوا ، « رأس جسر المدنية في أفريقيا » .
وقد نشأت كسلا بجانب القرية القديمة في هذه الناحية .

وكان يقطن القرية قبيلة الخلافة التي تدعى أنها هاجرت من سواحل
بلاد العرب الجنوبية مدسة قرون . وقد كان وصول الأسرة المرغنية

في سنة ١٨٤٠ سببا في حدوث انقلاب في أحوال البلاد لأن الجنود المصرية ، في هذه السنة عجزوا ، قد تمتعت منطقة كسلا وأخضعت قبائل الهدندوة التي لاتهدأ .

وقد ساد الأمن والنظام في ربوع السودان الشرقي كله مما أدهش صمويل بيكر : « ان ضم السودان واحتضاع القبائل العربية الكثيرة لتنفيذ مصر كانا الخطوة الأولى الضرورية لاصلاح شؤون هذا البلد ، وعلى الرغم من أن المصريين سادوا قسدا لا يعنيهم أن يكفلوا بلرفاهية المفبلة للشعوب المملوبة (كدا) لا يحل أن ننسى أن جميع القبائل ، قبل الفتح ، كانت في احتراب مستمر . ولم تكن هناك حكومه ولا قانون ، فكانت البلاد من أفصاها إلى أفصاها مملوكة في وجوه الأوربيين (١) لا يجرؤ أحد منهم على دخولها واليوم يتجول السائح في أرجاء مصر العليا (السودان) آمنا مطمئنا كما يحول المتره بحب (هاند بارك) في لندره . وفي وقت ريارنى لكسلا . سنة ١٨٦١ . كانت القبائل العربية مهابية يحكمها رؤساؤها أو مشايخها الذين كانوا مسؤولين أمام السلطات المصرية عن جباية الضرائب المفروضة على رهطهم . وبعد ذلك العهد وضعت القبائل كلها بجميع أسمائها وضروريها تحت سلطة الشيخ الكبير أحمد أبو س .

« وقد حلت يد الظلم الحديدية تطورا يثير العجب عند العرب فان نظام الحكم الذي أوحده المصريون قد عجزهم وجعلهم أذلة (٢) » . وكانت زراعة القطن في كسلا راهبة بين سنى ١٨٤٠ و ١٨٧٤ . كتب فليمنج ، سنة ١٩٢٢ يقول « بعد مضي ثلاثين عاما على احلال كسلا حارت الزراعة مرحلة الجارب وقرر أحمد باشا مزار الذي كان

(١) بلغ تعداد الأوربيين في سنة ١٨٨٢ في السودان من ١٠ إلى ١٥ ألف سنة .

(٢) S. Baker, The Nile Tributaries of Abyssinia (٢)

أدخل الصناعة الفظنية في طوكر ادخال الحلج « الميكانيكى » في كسلا ،
ولا يزال زراعة القطن في السودان الشرقى ، حتى اليوم ، تسمى
بمسار .

« ولعاية العهد الأخير كان سكان كسلا يزرعون هذه الشجرة
الغريبة الى كاب لا تعرف أثناء نموها باسم « القطن » ولكن باسم
« مسار » . ولا يزال الزارع على صفاء الزهد يزرع « المسار » وينسج
منه دمورا أحد النوع .

« وهو الذى أدخل مصنعا للنسيج في كسلا وبني معملا لحلج
القطن . وقد جلب الآلات من مصوع عبر الجبال . وكان مشروعه قد
أشرف على التمام في سنة ١٨٧٤ .

« فلما سقطت كسلا في يد الدراويش سنة ١٨٨٥ لم تلبث هذه
الآلات التجارية السلمية الى كلف تقاها فوق الجبال مصعب ومشاق
لاحد لها أن أصبحت حديدا ضربوه وحولوه الى آلات حرب (١) .
وفي تقريره الى ماليت ، المؤرخ ٢٣ بوبه سنة ١٨٨٣ . تكلم سنيوارب
عن زيارته لكسلا ومعمل القطن الذى بلغت تكاليفه من ٢٥ الى ٣٥,٠٠٠
من الجنيهات ثم قال « لقد كان المعمل ناما في كل ناحية منه دأ محر كات
قوة ١٠٠ حصان و ٢١ آلة حلج (٢) » .

وقد احتل المصريون دارفور سنة ١٨٧٤ وشرعوا منذ توطيد
احلالهم في أوئل سنة ١٨٧٥ في تنظيم إدارة حكومية في البلاد واصلاح
شؤونها .

كاتب مدنه العاشر عبد دحون مصريين بمجموعة نوكون أو عشش
مدينة لعبر لواء حون قصر دأمر على شاطئ البركة الى توسط المدينة .
وكانت الحرائق في كل عام نجاحها . وكانت البركة في كل عام تملى .

(١) Sudan Notes and Records, vol ٧, No. 2, 1922

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٥٥٦ .

بالماء الذى يفيض من واد فى غرب المدينة وكان الأمير عبد الرحمن بنى
سدا لتحويل الماء حتى يمكن تموين السكان به فى الحصة الأشهر التى يحق
فيها البركة وكان يكفى فخر آبار صغيرة فى قاعها لبيع الماء بعرارة .

وسرعان ما شرع (اسماعيل باشا أيوب) فى بناء سور من حول
مقر رياسته الجيش ثم ابنى لنفسه شقما مؤلفة من غرف نوم بحمامات
الخ واقتدى به الضباط فابتنوا بيوتا متينة ذات نوافذ وأبواب من
الخشب . وقامت وراء هذه البيوت مساكن للجنود (قتلاقات) مبنية
بالطوب الاحمر ولكن بطريقة محكمة . ثم بنى ديوان المديرية بطريقة
هندسة فخمة . وأخذت المدينة رويدا رويدا تتش . عددت صدر أمر
من السلطات المصرية بتحريم بناء عيش من القش مسميلا . ووضع
لصميم عام للمدينة تقرير بمقتضاه أن تبنى الشوارع الجديدة فى راوية
قائمه وأن لا يعل تساعها عن عشرين قدما . وقد اقتدى التجار فى الحال
بالحكومة وأخذوا فى بناء بيوت حمله على حط مسقيم بجناء السوق
وشرع محمد بك خير من أهالى القاهر فى بناء صف من المساكن التجارية
بالخجر بدلا من القش ثم أنشأ محار آخرون من الأغنياء فى بناء صف
آخر من العمارات موار للأول وقد تركوا بينهما قضاء حرا خصص
للمحصول الذى يجلبه الملاحون من حمولهم . وقد وجهت العناية الى
رعاية الخضر وكانت جميع فصائل الجنود تزرع الخضر على حافة البركة
وتقيم الأسوار حول حدائقها وكان الجنود قبل حلول فصل الأمطار
يزرعون الدخ حول المدينة وكان لكل كتيبة مساحة معينة من الأرض
لهذه الزراعة . وبحرر ابتداء مياه البركة فى المقاد يزرعون الصمغ فى
قاع البحيرة . وجملة القول بدأت القاهره تحت تأثير المدينة المصريه
تبدو فى شكل مدينة جديدة مبيه كلها بالطوب الأحمر ^(١) .

(١) هذا ملخص مذكرات خطية مأخوذة من تقرير الكولونيل بردي
Purdy وهى مأخوذة بالجمعية الجغرافية بالقاهرة . انظر كتاب دوان
تاريخ عصر اسماعيل . الجزء الاول من الكتاب الثالث ص ٤٧٠ - ٤٧٤ .

وكل ما عيب على الادارة المصرية أن بعض الحكام كانوا من المرتشين وان الضرائب كانت مرهقة في جبايتها وتوزيعها ولا شك أنه لا توجد ادارة « لشريفة » منزهة عن الأخطاء . وحسب الحكومة المصرية أنها كانت دائما تعمل على اصلاح كل مختل وانها لم تتردد في القاء ممتاز باشا في السجن تحت الحقيق مع أنه كان من كبار الحكام المصلحين .

وكثيرا ما ذكر الانجليز الشاورق وقسوتهم في جباية الضرائب وبحسب بنا أن يذكر هذه المناسبة ما كتبه غردون من الخرطوم بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٨ الى ريفرس ولسن على أثر اطلاعه على تقرير لجنة التحقيق التمهيدى الخاص بالحالة المالية في مصر .

« . . يسرى أن ألاحظ أن الاخلال الذى تكلم عنه لم يوجد قط في السودان وان المساوىء القليلة الموجوده قد محوتها كقرص الضرائب على النخل فل أن يحمل الثمر أو على الأرض الى ابلعتها الرمال أو جرفها الهر الخ . أما فيما يتعلق بحياة الضرائب فمما لا ريب فيه أن الأهالى دائما هم المأزور لأنهم قادرون دائما في هذه البلاد الواسعة على الفرار من الجباة . وقد زاد متأخر الضرائب وتعاطم . ولا فائدة من تهوين الأمر . فالسكان لا يدفعون الا اذا فسرهم على ذلك قسرا . وقد استعملت الوسائل اللينة فلم تجدد نفعا ^(١) . . »

هذا من ناحية السكان . أما من ناحية الحكومة فاننا نكتفى هنا بنشر الكتاب الآتى ^(٢) المرسل من الجناب العالى الى حكمदार السودان بتاريخ ٦ رجب سنة ٨١ (نوفمبر ١٨٦٤) :

« ان أحمد أغا من بلوكات المحافظين (بدشلة) سابقا قد قدم الى ديوان معاونى عريضة مفادها أنه في سنة ٧٣ قد أنشأ ساقية بالغابة

(١) Rivers Wilson, Chapters From My Official Life, pp. 195-197

(٢) دفتر ٥٢٩ معية تركى مكتوبة رقم ٤ نمرة ١٩٧ (سجلات عابدين)

والتلول الواقعة خارج رمام مديرية دققة وأصلح فعلا قسما من تلك التلول وعرس فيها نخيلا وأشجارا من الليمون والسنط وانه يريد انشاء حديقة وسبيل بها . وبما أنه قد فرض مال أميرى على تلك الساقية كما فرض مبلغ ٨٨,٥ قرش سويا على النخيل قبل طرحها الثار وذلك فى الاحصاء الذى عمل سنة ٧٨ . وبما أنه لم يسبق فرض أموال أميرية على بعض الحدائق الموجودة فى المديرية قديما وأن السواقي الى فرض عليها الأموال الأميرية واقعة على البحر يرمى رفع المال عن الساقية والنخيل المذكورة فعليكم باعفائه من الأموال المفروضة على الأشجار التى غرسها والسواقي التى حفرها . وانه لمن البديهي فى حالة اعفاء الحدائق الموجودة بالأراضى السودانية من الأموال سيرعب حينئذ كل شخص فى عرس تلك الأشجار وسيكون سببا فى ارباد تلك الحدائق يوما فيوما وعمران الأقاليم السودانية والاكثر من اصلاحها ومدنيتها . وهذه زبدة أفكارى فى ذلك » .

كل ذلك يدل . على أنه رغما من الأخطاء التى لامناص منها . خصوصا فى عصر الأسيس الأول . وهو أخطر عصور الانتقال ، كانت الروح المحركة للإدارة المصرية فى جميع أرجاء الوادى وملحقاته روح اصلاح وتعمير . وهى أبعد ما تكون من الروح الاستعمارية وأساليبها . ولعل من أهم خصائص الإدارة المصرية — الى تعجز أية إدارة أخرى أن تشاركها فيها — العمل على ترقية اللغة العربية والثقافة العربية والدين والهوض بالجماعات الاسلامية المتأخرة من هذه السبيل الروحانية الكبرى . وهما نحن أولاء نضرب مثلا واحدا :

أرسلت محافظة بربرة الى المعية السنية فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٣٠ مايو ١٨٧٦) الكتاب الآتى (١) :

(١) دفتر نمرة ٣٧١٤ (سجلات عابدين) .

« بمناسبة تعيين الشيخ محمد بيومي قاصيا في بربرة واقترح ارجاعه
وتعيين قاص من أهل البلاد لمعرفة أحوالها ... يرى رضوان باشا
أفضله بمائة لجهل قضاة البلاد بالسنة والشرعة ويقول : « ان عقال
القائل والسومال قد تحولت أحوالهم من الأمور المخالفة لسنة نبينا من
نحو عمد الأنكحة والطلاق وتهذيب الأخلاق وتذوية الصلوات الحسن
ورفع المواد غير اللائقة بالشعائر الدينية .. »

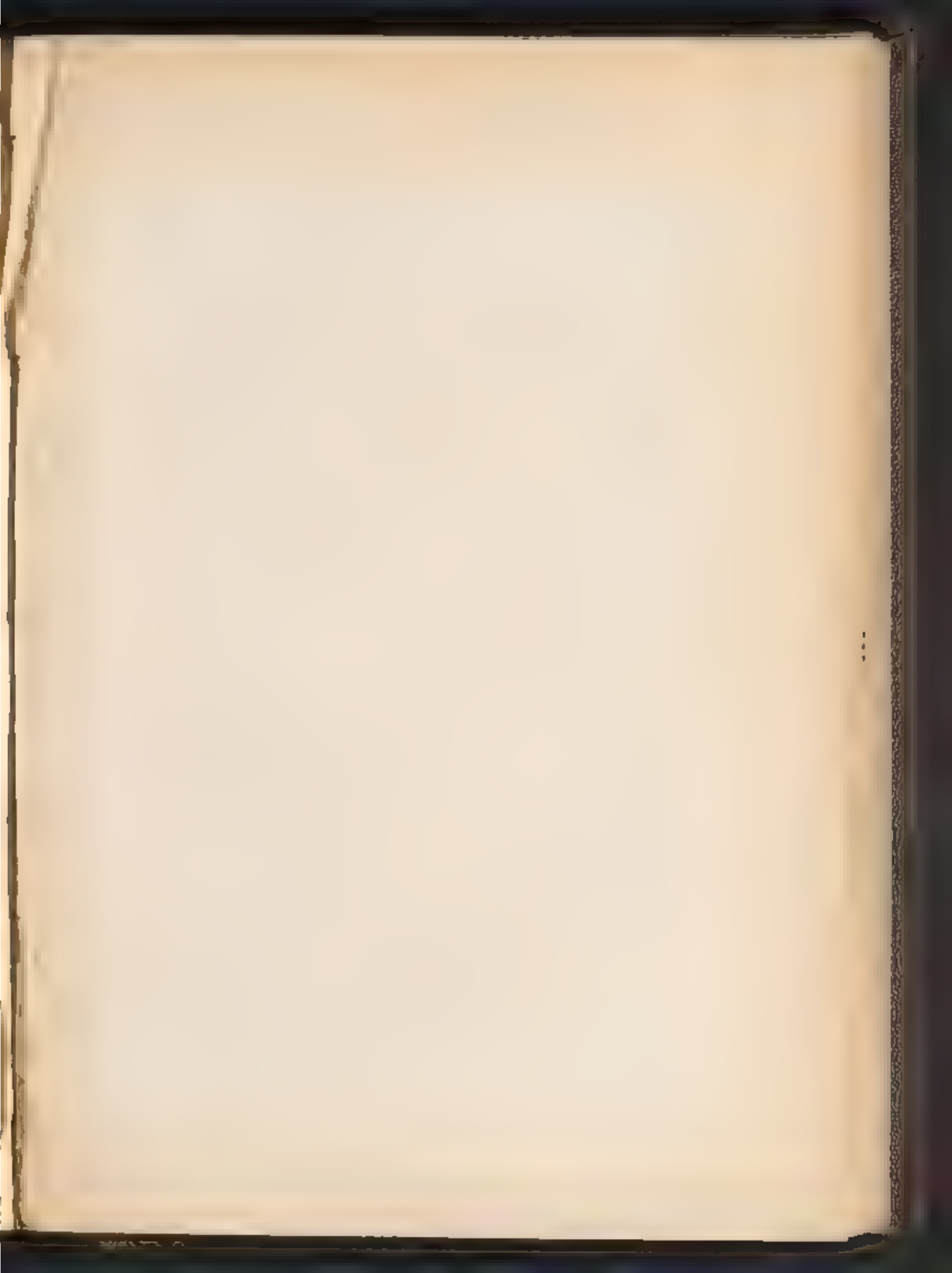
« حاشية — خصوصا وأن السومال ما كانوا يعرفون كيفية تقسيم
الموارث من سنوات عديدة وكل من توفي عن ذرية أو زوجة حرموا
الجميع من حقوقهم الارثية وحملوا الميراث للعم واس العم ونحوه من
أقرب الموفى . ولكن مع انتشار الشريعة والشعائر الدينية بهذه الديار
صار تقسيم الموارث حسب الحارى شرعا » .

والسومال قائل موحشه مسمة ولو أن الحكم المصرى دام قليلا
لصورت نتائج كلها من الناحية الدينية والاجتماعية ولتهديت طباع القوم
وحسب مصر أنها نشر السلم بين قبائل كان شغلها الشاغل الاحتراب
والسارع والعدو وبدأت تحثهم على الافلاع عن العادات الممجة القديمة
بارشادهم الى حفاظ الدين وتعاليمه الصحيحة . وقد قسمت بلاد
السومال بعد احلالها بين الفرنسيين والاحتيز والطلبان والأحباش
فرجعت الى اهمية الأولى .

من ذلك نعلم حقيقة ما كبه الرحالة الألماني « هلدبراند » في
٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بعد عودة حملة نهر الجب الى الدكتور شفايمورت
رئيس جمعية الجغرافة المصرية « يلوح لى أن مصر لن توفق الى بسط
نفوذها في أفريقيا الشرفية وهذا أمر يحزن له اد لا توجد أمة أصلح ،
في اعتقادي ، من مصر لرفع مستوى المدنية في أفريقيا » .

وقد رفع مصر فعلا مستوى المدنية بين الحالا الوثنيين في هرر

وشجعتهم على زراعة الأرض وفلاحتها ورفعت مستوى المدنية بين رنوج
السودان الجنوبي وخط الاستواء مما يناه وسبيله ، وقد شاءت
السياسة العاتية التي تسلطت على أفريقيا تبديد معالم هذه المدنية لتحل
محلها مدنية أجنبية لا تعيش الا من طريق الاستغلال المادي وقتل
الروح والحيوية الكامنة في نفوس الشعوب واعاقة كل تقدم .



الكتاب الرابع ممالك السودان المتطرفة

(١٨٨١ - ١٨٩٨)

لسودان من لاخلاء والاستعادة

تمهد كتاب ممالك السودان المتطرفة : « الاسوائية » أو مديرية
حد الاسواء في لحوب ، ومديرية هرر في شرق الحبشة ، ودرلج وبربره
على خدج عدن وجميع ساحل البحر الأحمر وأهم منه سواكن ومضوع .
أقول كل هذه بلاد النوبة الى بحكمها مصر كانت مسعصه على نفود
انهدى شئها في ذلك شأن حواضر السودان ولا ماكن الى تطور فيها
المساكن في مثل الاداره مصريه .

كان الحديوى عقب رحيل غردون في آخر سنة ١٨٧٩ ، قرر تقسيم
أراضي السودان الى ثلاثة أقسام وتعيين ثلاثة حكام عموميين للسودان
وهرر والساحل . فوقع الاختيار للسودان على اسماعيل باشا أيوب
ولكنه اشترط . اطرا لحالة السودان بعد غردون ، أن يمنح سلطة مطلقة
ويأخذ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه و ٢٤,٠٠٠ رجل هذا الى ١٥,٠٠٠ الذين كانوا
هناك . ولم لم يكن من استطاع اجابه هذه المطالب بسبب اضطراب
الحاله مابه والساسه عين رؤوف باشا في السودان وعين ركنى باشا
في هرر (يناير ١٨٨٠) وعلى رضا باشا في الساحل (أبريل ١٨٨٠) .
كتب ماليت بهذه المناسبة ، بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ ، الى حكومته

يقول : « لقد رجوت الخديوى ، قبل تعيين أى شخص كان في منصب الحاكم العام للسودان تعيينا نهائيا أن يعطه تعليمات بالغة منتهى الشدة والصرامة فيما يتعلق بتجارة الرقيق (١) » .

والغريب أن غردون حين ألقى في فبراير سنة ٨٤ لاجراءات الخاصة بتجارة الرقيق استعمل نفس ألفاظ مالبب فصل « شديدة الصرامة » وصفا لهذه الاجراءات الى كانت سدا في تغير السودان وتحويله عن مصر .

وقد حاربت مصر في كل عصر هذه التجارة المنكرة التي كانت مؤصلة في طباع السكان وعاداتهم ولكن كان يجب ، كما قلنا ، محاربتها باستعمال الحكمة والكياسة وتجنب أساليب العنف ولفظه . قال أبيب باشا : « بعد وصولنا بآباء . سنة ١٨٥٧ . صدرت أوامر رسمية مشددة بحرق هذه التجارة . في الخرطوم بوجه خاص . فهدمت سوق لعبد وسورهم وحرر أولئك الساكنين الذين كانوا فريسة الجلابية » .

« وقد تمت هذه الأوامر ردحا طويلا من الزمن لاتبع محرفيا . وبعد سنة ١٨٦٢ قُتل مجاهدات بكر وغردون وأمين وجسى كلها رعدا من تآبد الحكومة المركزية وحسن استعداد الخديوى ونسبه . وقد أساء بعض المائل ثوبل هذه الأوامر والنواهي وساعد في الحلاله وقلوبهم في هذه الأوساط التي كانت المهدية قد لطرفت إليها واستكنت في مطاويها على إشار نار الثورة التي أصبحت من الآن فصاعدا غازية جبارة ، دافعه متدفقة (٢) » .

وبالرغم من السياسة التي حرت عليها الحكومة الإنجليزية منذ احتلال البلاد في سنة ١٨٨٢ وتجنب الثورة بطريق غير مباشر حتى انظمت معظم الأصناف وانتشر الخراب من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى

(١) سجلات وزارة الخارجية لأعمري رقم ٧٨ عدد ٣١٤

(٢) Dr Abbate Pacha, Aegyptica Le Carre, 1892

الشرق فان ممالك السودان المظرفه التي بقى العنصر المصرى مهسا
على ادارتها نقت على ولائها لم تحوطا عنه تلك الاحراء « الصارمة
الشديده » ولم تستطع المهديه من ناحية اخرى اجدائها أو التوغل فيها .
ولكن انجلترا لم تشأ أن تترك هذه البلاد الهادئة الموالية المسعصة على
اشورة وشأنها وحتمت أن يشملها قرار الاحلاء قوة و قدارا لتحمى
أعراسها في السودان ومخفاته جميعا .

الفصل الحادي عشر

ساحل السومال وهرر

في سنة ١٨٨٠ كانت فرنسا والمجبر مهيمين على مصر ماليا وسياسيا وكان المراقب المالي الانجليزي أوكلاند كولفن يفكر في ذلك العهد على ارغام مصر على التخلي عن قسم من مديرياتها المضرة المنفعة للحبشة بحجة النفقات الباهظة التي تتكلفتها .

وقد كتب ، في ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، مالت الى حكومته ، بهذه المناسبة يقول : « قد افهم تماما ان بعض مستر كولفن بسبب النفقات التي تبهظ موارد مصر . ولكن من المشكوك فيه جدا ان يكون سحب اسلطات المصرية من هرر ومن بعض الاراضي الكائنة في جنوب مصوع والسودان علاجا للموقف . ولثبت الذي لا ريب فيه ان الأحباش سيقدمون في أعقاب انسحاب المصريين ويتبعونهم ويصير للبلادين من جديد حدود مشتركة . أما بخصوص امكان تخلي مصر عن ربيع وتاجوره وبربرة وبلهار فاني أعتقد ان عملا كهذا يتنافى مع مصالح حكومة صاحب الجلالة لأن هذه المين اذا قدر لها ان تقع في يد الأحباش أو قبائل محلية فمن أين يتأتى لها حكومة مناسبة . واذا قدر لها ، من ناحية أخرى ان يملكها الظباط أو المرئسون ، وهذا أقرب الى الاحتمال ، فقدت نقطة عدن هيمنتها ^(١) » .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٢

والواقع أنه منذ تدهور أحوال مصر الاقتصادية والسياسية اتجهت أطماع الحشنة وفرنسا وإيطاليا والمجترات إلى الممتلكات المصرية ، وقد جاء في مذكره لوزارة الخارجية الإنجليزية ، تاريخها أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أن القائم بأعمال السفارة الألمانية في لندرة البارون فون دن برنكن كان أرسل إلى اللورد سالسبرى كتابا جاء فيه :

« ان أراضي الساحل التي كانت من قبل تحت السيادة التركية قد حصلت عليها الآن الحكومة المصرية مقابل تضحيات جسيمة . وهي في الوقت الحالي جزء لا يتجزأ من أراضي المصرية ، باعتراف الباب العالي ، وتشرف عليها ادارة بالمعنى الصحيح (١) » .

على أن انجلترا ، وإن كانت تطمع في هذه المناطق ، أثرت في ذلك الموقف الاكتماء باقصاء الدول المنافسة باسمساكها باحترام القانون العام والمعاهدات .

لذلك كتب وزير الخارجية الانجليزية الى ماليت . بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠ . بالاشارة الى اقرار كولمن السابق الذكر الخاص باخلاء المناطق المصرية : « ان خطه كهذه تناقض على طول الخط نصوص اتفاقية ساحل السومال التي توليها حكومة صاحب الجلالة أكبر قسط من عنايتها واهتمامها لأن مصالح هذا البلد مرتبطة . الى حد كبير . بالمحافظة على حقوق مصر في جميع المناطق المعترف بها حاليا في هذه الاتفاقية وفي فرمان سنة ١٨٦٦ و فرمان سنة ١٨٧٣ . ومهما كان من الأمر فإن حكومة صاحب الجلالة مقتنعة أن التخلي عن هذه المناطق قد يوقع مصر في ارتباكات أفدح بكثير من النفقات التي يشكو منها مستر كولمن (٢) » . وكانت انجلترا بالطبع لا تغفل لحظة عن مراقبة السودان وأصفاعه

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٢

المطرقة فعينت . في أول مارس سنة ١٨٨١ ، عاملها هنتر قنصلا لساحل
السومان من ناجورة الى راس حافون . وفي شهر نوفمبر من السنة
نفسها ، رار القمصان سبي المقيم المساعد في عدن . زيلع والساحل وبعث
بتقارير محمده الى حكومه .

ومن جهة أخرى فان ملكولم العامل المدمم المكلف بالقاء تجارة الرقيق
في البحر الأحمر والذي صُطر الى الاستنقاع بسبب اعتراض غردون
والحكومه على اجراءه الشديده المرهقة . كان معكفا في مدينة عدن
بالسبا وكان يرسل من هناك تقارير شتى الى اللورد نورثبروك .

وفي أحد هذه التقارير المؤرخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، أظهر ملكولم
خوفه من اصاع فرنسا الى كانت تفكر ، بعد تونس ، في بناء امبراطورية
لها في أفريقيا . وكان يرى أن أفضل وسيلة للحيلولة بين هذه الدولة
وتونس هي بحسب ما رآها هي أن تخرص الحكومة الانجليزية
كل الحرص على أن لا تدع لها سبيلا يتدرج بها يتدخل في أملاك مصر
وذلك بأن تحفف من وفاد لاجراءات المتحدة ضد تجاره الرقيق فسمى
بذلك كل سبب لتدمير واشوره .

وفد قال ذلك في غير موارد بعد أن أشار الى خطر الدخل الأجبي
أو عبارة أدق الى «عدم الخطر» بالنسبة لتجيار من ناحية اجراءات
الرفق . نظر ، لأن ذلك البلد كان موضوعا تحت حماية بريطانيا العظمى :
«أما مصر فان حالتها تختلف تماما (عن حالة رنجبار) لأن السودان في
الوقت الراهن غير موال لمصر اطلاقا ويكفي أقل سبب لضمه في ثورة
عامة . والحبشة معادية .

رواني ون كس رعب . لو قدر . في سحق تجاره الرقيق كل
مسحق . لا أرى أنه يحب علينا أن لا ننسى أن هذه مسألة معضلة
وأنا أحب أن نخدمى تعريض مصر الى أية صعوبة من الصعوبات التي

ذكرناها وذلك بارعامها في الوقت الحالى . مع علمنا بحالة الرئى العام
في مديريتها . على اتخاذ اجراءات شديده أكثر من اللازم Too decided
بل بالعكس يجب علينا أن نكفى باجراءاتها نحن . الناجحه الرادعة .
في البحر . وأن نمدد أقصى جهدها . بواسطة وكالات قصديتنا ووكالات
الدول الصديقه لتحقيق مركز مصر الادبى والتجارى . وأن نعمل
المستحيل لأصلاح ذات الين بين مصر ولجيشة (١) » .

ولكن هذه الصيحه الكاشفه جاءت متأخرة لأن اجترأ سنعرف
كيف تستمد من ثورده في مصر لحملها وفي السودان لترغم مصر على
احلاؤه كما أنها سنعرف في الوقت نفسه براعتها ودهائها كيف تخلص
من الدول لمناصفه لها . فلم تكن اجترأ اذن بحاجة الى مصانعه مصر
ومداراتها قبل الثورة . ومن باب أولى بعدها . فما كادت تسمر قدمها
في مصر حتى أخذت تملى ارادتها املاء (نرفه عراقيل في ٦ يناير سنة
٨٤ واسمائه شريف) بخصوص السودان . ثم لما رأت أن الثورة الى
تذرع بها لم تعد الى ممالك السودان المطرقة . أى الى محققاته . كما
كانت تتوقع . وذلك بسبب بقاء الاداره مصريه بهذه البلاد منفصله عن
سلطة حاكم السودان لجأت الى القوة لسفد سياسة الاحلاء العام دون
تعبير .

وقد حاط بحرتون ، في ٢ يونيه سنة ١٨٨٤ ، نوبار باشا في
موضوع اخلاء هرر وساحل السومان فاعترض نوبار . وكان بعض
ممثلين الانجليز يؤيدون سياسة عدم الاحلاء لعجزهم عن ادراك كنه
تمت السياسة التى لا قلب لها . المرسومه في وزارة الخارجيه البريطانيه ،
والكشف عن أغوارها وأغراضها البعيده .

(١) هذه التقارير المطبوعه مكتوب في اعلاها « سرى » وهى موجوده
في المجلد ١٣ من القسم الخاص بمطالب مصر Claims To Sovereignty
(سجلات وزارة الخارجيه الانجليزيه رقم ٧٨) .

كتب هنتر من عدن في مذكرة ، مؤرخة ٥ يونية سنة ٨٤ ، معترضا على كل اخلاء لا روية فيه . وامتدح ادارة المصريين في بربره «والأعمال العمومية الجيدة التي تجد فيها أية ادارة مصدر فحار لها» . وفي ٢٩ يومية قررت ورايه الخارجة الانجليزية «الاحلاء في أول فرصه» . وفي ٢١ يولية كتب المحررون يقولون ان نوبار . بعد استشارة الحديوى ، أعطى الأوامر اللازمة لتسلم بربرة الى القنصل هنتر «أما فيما يتعلق بالاحلاء هرر فانه لا عمل سانا الى اتخاذ أى اجراء فعلى في الوقت الحالى . لما قلت له ان الحاميات تكلف مصر مالا بطريق مباشر أو غير مباشر أحاب أن الحديوى يؤثر الاحصاء بهرر لأنه يعلم تماما أنها لا تكلف مصر شيئا وأنها تكفى نفسها» .

وقد بلغ دخل هرر في سنة ١٨٨٣ مقدار ٧٥٠٠٠ جنيه والنفقات ٦٠٠٠٠ بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه .

وكان السكان في بربره . رعبا من دسائس هرر وتوريع الذهب بين العمال أو رؤساء القبائل المحاورة . ورسولون الى الحكومة المصرية عرائض لحملوها على عدم التخلي عنهم . وقد جاء في احداها : «منذ ١٥ عاما سمع سكان بربره بالهبة لحكومة حديوى مصر التي تحنو عليهم وتترفق بهم . وهم لا يريدون هذه الحكومة بديلا . وقد نعت الماجور هنتر ، سرا وبغير علمهم . ترحمنا الى العمال الذين ذهبوا للمفاوضة والتعاقد معه بغير توكيل .

«انا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلك» . وفي أغسطس

صرح نوبار أن دخول الجنود الانجليزية في زيلع قد يجر الى مصاعب مع الباب العالي وأن مصر تدفع سويلا الى تركيا . ١٥٠٠٠ جنيه جزية ، نظير امتلاك هذا المناء . وفيما يتعلق بربرة كان يرى أن نفقات الاخلاء والتعويض عن الأشغال العمومية والمنايا التي شيدتها مصر يجب أن تدفعها سلطات عدن .

وفي ١١ أغسطس أصدرت وزارة الخارجية الانجليزية الأمر الى الحكومة المصرية «أن تساعد دون ريث ولا ابطاء على اخلاء هرر ومن ساحل السومان . وفي ١٢ صدع نوبار بالأمر وفي ٢٥ أغسطس قررت الحكومة الانجليزية أن تكون تفقات الاخلاء على عاتق الحكومة المصرية وأن يظر فيما بعد في مسألة التعويض عن المباني العمومية وخلافها .

وقد وقعت أوامر الاخلاء على المصريين في هرر وقع الصاعقة . وكان لابد من ترحل ١٤٥٠٠ مصرى من مديين وعسكريين بأسرهم . وقد كتب حاكم هرر في ١٩ شوال سنة ١٣٠١ (١١ أغسطس) يقول . « . . على أن جميع الصباط والموصفين والعساكر أصبحوا بلا مال لأنهم أنفقوا كل ذرهم في بناء المساكن بناء على أوامر الحكومة الى كانت يريد أن تحمل منهم قدوه للسكان الآخرين ونبعث المنافسة بينهم^(١) » . وجاء في عريضة أرسلها الى رئيس الوزاره المصرية ٥٣ من الأعيان والتجار الوطنيين والأوربيين بمدينه هرر . في ١٠ أغسطس : «من خمسين سنة حلب كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها موك صغار . وكان اهراق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق .

«وقد همنت الحكومة المصرية على هذه البلاد . قبل تسعة أعوام . فوطدت النظام والأمن وحملت من مدينة هرر مركزا من أهم مراكز التجاره . فإذا كان قرار الحكومة لامرد له لم يكن لنا بد من الهجرة مع الجنود وترك أملاكنا للنهب . . »

ولم تحف دقة الموقف واختلاطه على هنتر سينا وأن الحكومة الانجليزية كان قر رأيها على احتلال الساحل بمجرد اخلائه أما هرر فكان قرارها

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

لا يبعدوا الاخلاء . الاخلاء الذي يسطوى على أفدح العواقب لمصر
ولسديرية .

واذا كان اخلاء الساحل قد يبرره في منطق السياسة الانجليزية رغبة
البحر في احتلاله مع ما في ذلك من اهدار حقوق مصر . واذا كان
اخلاء السودان وما صحبه من تخريب شامل وقتل الملايين من الأنفس
وتعطب الممجة على المدينة قد تبرره الى حد ما هذه الرغبة نفسها فان
حلاء هرر الآمه المضئ الرأهه الراهره في ظل المصريين لا يحد ما يبرره
لا شهوة التخريب المجرد وتزريق مصر كل ممزق واذلالها .

كتب هنر من عدد الى المجرتون . بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ،
هو . « انى اعترف ان فكره الاخلاء ثقيلة على النفوس لأن تنفيذها
سندعى حواره حسمه في السمع والأموال وتنتجته التخلي عن كل
ما تحصل ونجمع شئ عام من التضحيات العظيمة والتفقات
النهضة » .

وفي ٤ سبتمبر اقترح هنر اعادة استقلال المدينة تحت حكم ابن الأمير
السوق ولاعراف بالسادة الانجليزية بواسطة قائل السومال والجالا
في الطرق بين الداخل والساحل .

وفد اسولى الانجليز على ريلع في ٢٤ أغسطس وأصبحت ادارة
ساحل السومال جمعه تابعه للحكومة الهندية .

وكان هنر يفكر من ذلك الوقت في نشر المسيحية في اقليم هرر
فكتب . في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ . يقول : « لا يحب الاعتقاد أن الجالا
الذين لا يدينون بالاسلام مسيحيون . انهم لا يزالون وثنيين لأن
الدعوة للصليب لم تنشر بينهم » .

« ومن المهم أن يلاحظ أن أولئك الذين يسمون « مسيحيي الباشوب » : أي الجالا الذين اعتنقوا الاسلام منذ وصول الباشوات لمصريين . ليسوا متعصبين أو متعبدين . ومهما كان من الأمر فانهم ليسوا مستغنيين أمام النفوذ المسيحي . وقد حاز القسيس كاهان Cahagne كل ثقتهم بطريقة ماهرة ملموسة . وهو من أصدقائي الذين يعمل عليهم وولي حميم^(١) . »

ويفسر لما تقدم يجب أن يذكر أن امتداد النفوذ المصري كان مطردا من سنة إلى أخرى . ولم تكن سادة الخديوي معترفا بها . في بدء الاحتلال . إلا على ساحل لومال وفي حدود امارة هرر التي هي ، كما بينها رؤوف باشا . حديسه من ناحية الساحل . وهر الواش في الشمال الغربي . وقبيلة أوجادين في الحوب الشرقي . ومطمة لأروسي في الحوب^(٢) . ثم أخذت مصر تسيطر على البلاد الواقعة وراء هذه الحدود الصغرى . حتى بلغ عدد القبائل الخاضعة لها . في سنة ١٨٨٣ ، رقما ضخما . مليون ونصف مليون من النفوس^(٣) اعتنق قسم كبير منها ، من بين الجالا الوثنيين ، الاسلام .

وكان الأب كاهان قسيس الجالا قام في سنة ١٨٨١ برحلة حول هرر وشاهد في مختلف البقاع مزارع حمله من شجر السن والمور « لم يمس على وجودها إلا سنوات قليلة » .

وقد تكلم ذلك المبشر عن انتشار النفوذ المصري بين الجالا فقال : « قل الاحتلال المصري كانت قبائل الجالا . التي لا تعترف لأمر هرر

١ سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٢٧٢٨
٢ سجلات عابدين . تقرير من رؤوف باشا ساريح ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ أبريل سنة ١٨٧٦) .
(٣) سجلات عابدين . تقرير من محمد نادي باشا بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٨٢

الا بسلطه اسمية . تحكم نفسها بحسب تقاليد السلف ، تلك التقاليد التي
اعتراها بعض التحوير والتبديل في الأصقاع التي تقذف منها الاسلام ، وكان
لكل نظر من قبيلة . كالنوب عند الآلا . وال معين بمقتضى نظام وسط بين
انورثة والانتخاب . يديون له بالطاعة ثمانية أعوام . اسمه البوكو .

« يأتي من بعده ، وللمدة عنها ، الدورى ، وهو محدود السلطة
جدا . ثم من بعده . الرابا . يقوم ببعض الشؤون القبلية الأهمية . وقد
اجتهد المصريون في محو كل هذه التقاليد القومية ليطمعهم بطابعهم
ويدمحوهم في جسد . فاخفى البوكو عند القبائل الخاصة وانزعت
منه كل سلطة وأصبح فقيرا ذللا . وعين مكانه موطف . ينتسب في
معظم الأحيان الى هرر . يقوم بحماية الصرائف . ونورين العدالة في
صورة من الصور . وحل الجراد محل الدورى . وهو غالبا من أصحاب
الاملاك الكبيرة السابق . . . وشارة منصبه العمامة . ومن هنا كان
يسمى : لف الناش العمامة حول رأسه (ساباتا مارى) ورع منه اللقافة
(ساباتا نيقة) بمعنى قلد الجراد الوظيفة أو عزله (١) . »

على أن المبشر كاهان لم يرقه الناحية الدينية من التوسع المصرى
فقال في حاشية مقاله « ولاشك أن احلال عادات أجنبية محل عادات
قومية (كدا) لطريق العنف هو الذى يحول دون تقدم السيطرة
المصرية . »

وبلاحظ أن المصريين كانوا يحنون تعاليم الدين الاسلامى محل الوثنية
وفد أشار المبشر في بداية مقاله الى هذه التعاليم . « رحلنا في يوم
٢٥ أكتوبر . في ساعة مكره . فكنا نسمع صفار الأطفال في هذه الساعة
ينون القرآن . وقد نشر هذا التعليم في صواحي هرر وكان المصريون
يعملون على تعميقه في البلاد على الرغم من ظهور الجلالا منه » .

والواقع أن الجالا ما كانوا يأفون من هذه التعاليم وكان أقباهم على
 لاسلام . الذى كان يسن على تلك القبائل الموحشة سننا من الأدب
 العالى ، يزداد كل يوم بدرجة أفقت الانجليز . وقد كتب هنتر المكلف
 بالاشراف على اخلاء هذه المناطق . من عدن بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤ ،
 ما نصه . « لو استمر النظام الحالى بضع سنوات أخرى لالغوب القبائل
 كلها تقريبا تحت راية الاسلام ^(١) » .

ولا يفوتنا أن نقول بهذه المناسبة ان مصر اد كانت تنشر الحيفة
 السحاء بين أولئك الوثنيين ما كانت تفكر مطلقا فى منع المسيحية من
 نشر تعاليمها العالة بين الجالا والقبائل الأخرى . وبالعكس من ذلك
 كان تسامحها الدينى وميلها الى الانسانية تدفعها الى حمايه المبشرين
 ومساعدتهم على التوطد وبذية مهمتهم على أحسن وجه فى الامبرطورية
 السوداية . وشاهد ذلك ما كنه جبرائيل سيمون فى كتابه عن ريارته ،
 فى سنة ١٨٨١ ، لقرية كرن المصرية بديرية بونغوص المجاوره للحشة :
 « هناك كان يقيم المشرون الاراريون وكان المشرف عليهم وقتئذ كبير
 القساوسة توفسه : وقد ابنتوا مساكن رافيه . وكانت لهم فى الصواحي
 املاك يستغلونها . وكانت لهم كيسة فخمة مبنية بالحجر شذتها لهم
 الحكومة المصرية على يفتها . وهم يعلمون الصبان الكثيرين الفرنسية
 والحرف المخلعه على أن شعلهم الشاغل الحقيقى كان السصير الذى هو
 مهمتهم الأساسية . وكان عملهم فى هذه الناحية يمتد الى ماوراء الحدود
 المصرية ^(٢) » .

وقد اعترف القسيس كاهان نفسه فى مقاله بمجلة البعثات الكاثوليكية
 (يولية سنة ١٨٨١) ان الحديوى أوصى السلطات المصرية فى ريلم

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢٧٢٥ .
 مذكرة من هنتر الى بيرنج مؤرخة عدن فى ١٥ أبريل سنة ١٨٨٤

(٢) G. Simon, Voyage en Abyssinie

وهرر بتقديم كل مساعده له . وقد نُشئت أول نقطة لتصير السومال في بربره في مارس سنة ١٨٨١ . وقد أحسن وفادته هناك الحاكم المصري وأرسل ابنه إلى « البعثة » ليتعلم الفرنسية وتبعه آخرون . ومن هناك ذهب كاهان إلى ريلع وهرر في قلب بلاد الجالا فقدمت له السلطات المصرية المسلحة كل معونة وأمدته بمحمد مسلحين لحاية بعثات المبشرين من أعداء الجالا والداكل وغيرهم .

والذي كاتب تعترض عليه مصر ولا تتغاضي عنه هو تصير المسلمين بين القبائل الخاضعة لها — وهذا حق لها — خصوصا وإن غرض الجمعيات التبشيرية الأوروبية المختلفة كان السعى . تحت ستار الدين ، في تحقير فكره سياسية وهي نشر نفوذ الدول التي تسمى إليها تمهيدا لندحها . ولضد صعب الفكره السياسه على الفكره الدينية وأدب إلى حروب وحشية وفتائن كما حدث بين المبشرين الفرنسيين والمبشرين الانجليز في أوغندة مما سببته فيما بعد .

وعكس القول أن نفوذ مصر الديني في أفريقيا قد أوجد لها مناطق نفوذ بعدة خارج حدود سادسها الثابتة . كب الفائدة بلير . المقيم السياسي في عدن . في ٢٤ ديسمبر (٨٤) . ردا على خطاب طلب فيه ببرنامج معلومات بخصوص الراية المصرية التي كانت لاتزال مرفوعة في راس حافون على المحيط الهندي :

« ... أرى لزاما على أن أقول أن سلطة حكومة الخديوى لم تقرر قط ولم تعرف بها بالطبع ، فيما وراء بضعة أميال من شرقى بربرة . »
« ولكن يجب أن نذكر في الوقت نفسه أن السومال والداكل والعرب في خليج عدن ، سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحاية الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية . يرفعون على سفنهم . وكثيرا ما تبدو على منارلهم أو قورهم . راية لايشث الباطر في أيا تركية أو مصرية . »

« وكثيرا ما أدى هذا العمل . حتى وقتنا الحالى . الى خلق عوامل
سوء تفاهم كثيرة . ونحن ندرعون فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتصحيح
الموقف فيما يتعلق بالقائل الموضوع تحت الحماية البريطانية (١) » .

وفد انتشرت مظاهر الموضى فى هرر فى أثناء احتلالها الذى دام
من نوفمبر سنة ١٨٨٤ لغاية يويه سنة ١٨٨٥ ومد اعاده سلطة امرائها
الافنديين . كتب كنج من ريلج . فى سبتمبر سنة ١٨٨٥ . يقول : « ان
الملك منليك ، باغراء الفرنسيين ، كان على وشك مهاجمة هرر ، وان حياة
الاوربيين مهددة كل يوم وكل ساعة . وان جميع الجالا وقبائل اخرى
تسحوا يتجنبون هرر مفضلين المرور من طريق جلدية وذلك بسبب
الأموار الفادحة الى يأخذها منهم الأمير (٢) » .

وكتب كبير قساوسة هرر كاهان . من ناحيه . الى هنر . بتاريخ
٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥ : « يظهر ان الآمال التى عنصاها . نحن الأوربيين ،
على التدخل الانجليزى ، لن تتحقق ... »

« ونظرا لسوابق امراء هرر لا مناص من الص على وجوب تمتع
المسيحيين بحرية لكن أمين بن حيطان المدينة . دون أى اطلاق لهم ..
» وانى أسمح لمسى بأن أعرض عليكم شكوى النائب الدينى فى
ريلج . بعد أن كما تمتع بامتيازات جركة واسعة تحت الحكم المصرى
أصبحنا الآن . نحن والناس سواء . وانى لا أشكو من ذلك ولكن يظهر
أن تقدير ما نستورده قد زاد عن الحد (٣) . »

وفى أبريل تذهب التحار الأوربيون للرحيل مع الموج الأخير من
الحدود المصرية .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨٥٧
(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨٦٠
(٣) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨٥٩

وفي يونيو (٨٥) تم الاخلاء وتركت هرر ليستبد بها أمراؤها
وخلفاؤهم الأحباش الذين غزوها بعد سنتين (٨٧) .

وقد أرسل ، في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٧ ، منليك « ملك شوا وجميع
الجمالا » الى القائد الانجليزى فى عدن . خطابا كاشفا . هذا نصه .
« كيف حالكم ؟ اننى بحمد الله فى حالة جيدة . ان الأمير عبد الله كان
لا يطيق مسيحيا فى مملكته .

« انه جران آخر . ولكننى ، بعون الله ، قد هرمته ورفعت رايته فى
عاصمه ..

« ان هرر ليست بلادا اسلامية كما يعلم الجميع . » ١

وكان ملك الحبشة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، عمد من ١٠ الى ٢٠,٠٠٠
مسم فى الممالك المصاحبة للبحر الاحمر بحجة أن أولئك المسلمين من سلالة
مسحى كان أحد الفاتحين المسلمين عمدهم بالقوة (١) .

وفي مذكرة عن الحالة فى هرر . من عدن فى ٤ يناير سنة ١٨٨٨ ، أى
بعد سنة من احلال الحبشة . شك المقيم من أن الراس مكونان . حاكم
مديرية هرر . أعار فى العهد الأخير على فسله جيسى السومالية فى شرق
هرر وحمل عددا كبيرا من النساء والأطفال والحيوانات .

وقد رار يوليوس بوريللى مؤلف كتاب (الحبشة الجنوبية) هرر
فى مايو سنة ١٨٨٧ . ورأيه حجة . قال :

« ن احلال الحبشة سيكون . فى الزمن الأول على الأقل . صرته
فاحمه لهرر . وكان الملك أقام معسكره بالقرب من المدينة . وبعد
رحيله هجرت الحباش وطرد الفزاة قسما من الأهالى . ولم يتمكن بعض

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢١٤١ .
القاهرة فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٠ .

السكان الهائمين على وجوههم من حمل بعض الأمتعة التي لا غناء عنها .
وقد استولى الغزاة على كل المؤن المخزونة ...

« وهرر خاضعة اليوم لنظام ادارى يطابق النظام الذى يردهر فى
شوا .

« وفى الأحوال الراهنة من المحتمل حدوث مجاعة . لأن تموين ،
الأذرة وشيك النفاذ ، والتبذير مستمر ، والتوزيع لا ضابط له .
وفوق ذلك ينهب الأحباش كل ما لم ينتهبوه فى الأيام الأولى من الغزو .
« ويسم الجود كل ما لا يستطيعون استهلاكه فى سبل الحصول
على المال .

« وقد اضطرب نظام التعامل وأخذ عدد التجار يتضاءل ..

« وعلى الرغم من أن الضرائب قد جيت فى القرى المجاورة فان
لأحباش كانوا يغرونها كل يوم . والماشية فى نقصان . والأثمان فى
ارتفاع .

وقد حدث أن قلين كانا دفعما الضرائب المطبوة . وبعد أيام
فصدهما الجند واستولوا قسرا على النساء والأطفال والقطعان » .

وقد زارت بعثة بونشام Bonchamps افليم هرر سنة ١٨٩٧ وكب
أحد أعضائها شارل ميشيل كتابا عنوانه (صوب فاشودة من طريق
أثيوبيا) جاء فيه : « وقد أمضت مصر مع الحاشى يوحنا - يونية
سنة ١٨٨٤ - معاهدة ردت بمقتضاها اليه بلاد بوغوص . ثم تنازلت له
عن هرر (كذا) بعد أن وضعت على العرش ابن الأمير السابق عبد الله .

« عندئذ عادت الفوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضياع
الأمن الذى عانت منه المدينة كل بلاء قبل محىء المصريين .. وكانت
سنوات الاحتلال الأولى أبعد ماتكون من السعادة والرفه .. وقد

مرد حدود الأحباش وهم آلاف سكان المدينة من منازلتهم وأقاموا فيها
وخرنوا كل ما وجدوه حولهم وسلبوا مخزون القمح وبضائع التجارة ،
وتقرر العامل بالعملة الحساسة القديمة فأغلقت أسواق المدينة وهرب
التجار والتجارة الى الريف القصى .

« وكان نصيب الرراع الرؤساء نصيب غيرهم من الظلم والاستبداد .
وقد أحدث قطعان بحاها من أصحابها ووقع الملاحون الجالا في أشد
حالات الضنك والمحنة .

« وكانت نتيجة هذه الساسة العاشية الحراب العام في مديرية هرر .
وفي المديسة . يضاف الى ذلك أن الأمراض المعدية والديرناريا
والخدرى الح قد تمت فعل البؤس واجتاحت الأهالي النساء » .

ثم قال بعد ذلك : « وأكرر رجائي أن يحدث تغيير في الادارة لأنها
بنظامها الحالي لا تساعد على ترقية التجارة وازعلاء شأنها » .

وقد كانت مأساة الجالا في هرر من أعنى القاع بزراعتها وان ما حق
بهرر والجالا في عهد منليك الأول حاق بمناطق الجالا العنة وهضابها في
حوض الحبشة في عهد منليك الثاني الذي تمكن من اخضاع ممالكهم في مدة
خمس أعوام . وما فخرهم الا بفصل الأسلحة النارية التي كانت أوربا
تسلمها للحبشة . فان ميشل وقد زار بلاد الجالا الى فتحها الأحباش
في نفس السنة التي زار فيها هرر (١٨٩٧) :

« يظهر اليوم أن اخضاع الجالا أصبح تاما بعد حرب دامية لارحمه
فيها . كانت مجزرة قتل فيها ثلاثة أرباع السكان الذكور ، وسى فيها
عدد كبير من النساء والأطفال وحرق مساكن وقرى بأكملها وأصبح
مكاتبها بليعا . . وقد أبغى أحد رؤساء الأحباش أنه اذا لم نجتج العارة
الأولى البلاد اجساحا ثر السكان ولم يكن بد من ارسال حملة جديدة
كبيرة .

« وللجلا مزايا كبيرة فهم قوم جد وعمل ومهارة يحبون الاستيطان
وعنده الثقل ، وفي مقدورهم أن يستغلوا أرضهم لو تركوا وشأنهم
ولكن سيطرة الأحباش كانت فكبة عليهم (١) » .

أما برمره فقد عين والش أحد المقمين المساعدين في عدن . مند

Mission de Bonchamps Vers Fachoda a la Rencontre de la Mission (١)

Marchand à Travers l'Ethiopie, par Charles Michel, Second de la Mission

الواقع ان السومال والذناكل والحالا المحيطين بالحشة الذين صمم
مست الثاني الى الحشة بالقوة ليسوا احاشا . واد كان يوليوس بوريللي
الفرنسي يرى « أن احتلال الحبشة لهرر ، في الرمن الاول على الأقل .
سيكون ضربة قاصمة » فان هذه البلاد الاسلامية بوجه خاص منذ
احتلالها الى اليوم تنبج بحرب الاسبياد وبحر الى عصر المصريين الذهبي .
وقد نشرت جريدة (الاساس) بتاريخ ٢٩ اغسطس سنة ١٩٤٨ تحت
عنوان : « وقد مسمى الحشة عند فصيلة الاساد الاكبر » مقالا جاء فيه .
« اسفل فصيلة الاساد الاكبر السبيح محمد مأمون الشاوي شبح
الارهر في مكة امن وهذا من مسلمي الحشة يتألف من حصرات السادة
محمد عبد السلام ويونس يوسف ومحمد احمد يوسف وعبد الرحمن
عبد الله ، وهم من اهالي مفاطعه «هرر» وقد تحدثوا الى فصيلة في بعض
شؤون المسلمين بالحشة وخاصة في مفاطعه «هرر» ودموا اله مذكره
بحاشتهم الدينية والتعاقية في تلك البلاد .

وقد تحدثت اعضاء الوفد بعد خروجهم من لدى السبيح الاكبر الى
ممدوب الاساس فذكروا له انهم كانوا في المملكة العربية السعودية وتحدثوا
الى سمو الامير فيصل أن يعود عن احوال المسلمين بالحشة وانه اعطاهم
كتاب توصيه لسعادة امين الجامعة العربية به امر أن توضع تحت تصرفهم
طائرة خاصة هي التي حملتهم الى القاهرة .

وقال حصراتهم لتدويننا انهم يأملون خيرا في رحلتهم هذه من جراء
انصاتهم برعماء العالم الاسلامي .

باسم مسلمي الحشة

وقد تقدم الوفد بمذكرة الى الاساد الاكبر فوعدهم خيرا ومما ورد فيها
باسم مسلمي الحشة عامة ومفاطعه هرر خاصة بعدم الوفد الى العالم
العربي والاسلامي بشكواه من الوضع القائم لحكومة الحشة وما يلاسه
مسموها حيث يعامل الشعب الحشي معاملة ذاب وجهي .

أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، مشرفا على إدارة المدينة بلقب ووظيفة نائب
قنصل .

وكانت مصر تطالب بأن تدفع على الأقل تكاليف المنارة التي شيدها
عاطا وكذلك ثمن المستودعات والمنشآت المختلفة التي وضع الانجليز يدهم
عنها . وقد استشار اللورد كمبرلى . هذا الخصوص ، حكومة الهند ،

بعض ظلاماتهم

وتلخص شكواهم من عدم المساواة وأنه لا يوجد في مقاطعة هرر موظف
واحد من المسلمين مع أن الهريين في غاية الرقي منذ ٣٠٠ سنة وبفضل
ما نفقوه من المصريين برموا أكثر وأن الحكومة الحبشية تفق على التعليم
١٢ مليوناً لأخص المسلمين منها أى شيء لاى مدرس ونسبة تلامذ
المسلمين نصف في المائة ولا يرسل مسلم واحد الى المعينات ولا تعال مدارس
المسلمين الأهلية .

وميزانية الحكومة حوالى ٤ مليوناً لأخص الضعفاء منها شيء ويمنع
المسلمون من المحاكم امام العاصى الا في النكاح والوارث كما يمنعون من
ادخال اللغة العربية في المحاكم الشرعية .

ثم تضمنت المذكورة شكايات تتعلق بالمساجد والشعائر واللغة العربية
والكسب الديني ومع الحجاج مع أن الحبشة فيها دسا من مشران هما
الاسلام والدين الارثودكسى وبطروا الى شكاياتهم من معادرة الحريات
وأن البرلمان الحبشى فيه ٤٧ عضوا من بينهم ٧ للمسلمين وقالوا أن
الضرائب باهظة والمعاملة هناك دكتاتورية قاسية .

استغناء شعبى

وحاء في نهاية المذكور أنهم يرغبون في أن يجرى استغناء شعبى لنوع
الحكومة وبرحون الانفصال عن الحبشة لانهم دولة دام سلطانها ٥٠٠ سنة
ولا يزالون مختلفين عن الحبشة في اللغة والدين والأخلاق .
هذا وقد وعدهم الاستاذ الأكبر بأن يعمل جهده في مساعدتهم على
صوء ما يصل اليه من معلومات .

وقال أحدهم : لس صحيحا ما صرح به الوزير المعوض للحبشة
من أن معاملتهم حسنة وأن المسلمين هناك يتمتعون بالمساواة .

ونشرت جريدة (البلاغ) في عدد ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ تحت عنوان
المسلمون في هرر يعرضون شكواهم من الحكومة الحبشية (ما يأتى :
« جاءنا وفد من مسلمى هرر وقدموا لنا شكوى طويلة ختموها
بما يأتى »

لقد تقدم المسلمون الى الحكومة الحبشية عدة مرات بمطالبهم فكان
مصرهم التشريد والتعذيب .

في يونيو سنة ١٨٨٥ . فكان جوابها (يناير سنة ٨٦) انه لا حاجة بها الى استعمال المنارة في البحر الأحمر وانه يجب وضعها تحت تصرف الحكومة المصرية . وفيما يتعلق بالمستودعات كان رأيها أن تتولى حكومة الهند دفع ثمنها من دخلها بشرط أن يقوم الدليل على أن لها قيمة .

== ولما لم يجد المسلمون من وسائل السلم والتفاهم ما يحقق بعض مطالبهم العادلة ومعاملتهم بالمساواة مع مواطنهم كإساءة بلد واحد حاولوا الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية أمام اللجنة الدولية التي ذهبت إلى الصومال لتحقيق أمر المستعمرات الإيطالية السابعة فذهب وفد منهم إلى مدينتي عاصمتي الصومال وكان يمثل جمع المقاطعات التي تسكنها الأكثرية المسلمة فكان نتيجة ذلك العمل أن أوردت اصطهاد الحكومة الحبشية للمسلمين في الحبشة وأرسلت حدودها الحربيين المسلحين بالسادق والمدافع الرشاشة إلى ديار المسلمين عامة فأخذت الحدود يهون أموالهم ويأخذون كل ما يحدونه من أمتعه وحلى النساء ثم يشتمون الرجال بالضرب ويسوقونهم إلى السجن .

وقد قامت مظاهرة في مدينة هرر يطالب فيها المتظاهرون بالانفصال عن الحبشة والانضمام إلى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك فاعتقلت الحكومة الحبشية رعاة الحركة تحت سائر النعاهم معهم ونقلتهم إلى جهة مجهولة كما ذهب فحبه هذه الحركة عدد كبير من المسلمين وأعلن نحو ثلاثة آلاف بحري الآن محاكمتهم في أديس أبابا وبلاطون الكير من البعديت والكبير كما نفت الحكومة نحو خمسمائة من إساءة هرر إلى جهة غير معلومة وقطعت المواصلات بين الجهات التي يسكنها الأعلى المسلمة كهرر وهدروسة وولوا .

وبنح مسلمي هرر قد خبرنا الحكومة الحبشية ولاقينا على أيديها أسوأ ما عرفه البشرية من صنوف التعذيب والسيكيل والظلم والاصطهاد، وحاولنا أن نصل معها بطريق النعاهم السلمى إلى حقوقنا فكان حراؤنا النفي والتشريد ، لم نجد أمانا - بعد هذا كله - إلا أن نتقدم إلى العالم العربى والإسلامى خاصة والإنسانية عامة بشكوانا هذه راحين الانصاف في قضيتنا العادلة ، وذلك لا يكون إلا بأن يفصل عن الحكومة الحبشية ونضم إلى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك أن شاء الله .

وغير خاف أننا كنا دولة دام سلطانها خمسمائة سنة تقريبا والتاريخ شاهد على ذلك وقد كنا ولا تزال محتلين عن الشعب الحبشى عامة في البعة ، والدين والأدب والأخلاق والعادات ، هذا كله علاوة على سوء معاملة الحكومة الحبشية التي أوضحناها في هذه المذكرة .

وإذا لم تقرر الصومال الكبرى نرحو مساعدتنا في الانفصال عن الحبشة لتكون تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة على أن يحرى استفتاء شعبي يشار الدولة التي تولى الإشراف عليها .

وبذلك أرعبت مصر في هزر على دفع تفضاض الاخلاء واصطر الجنود والموظفون المصريون العائدون الى بيع بيوتهم ومتاعهم بالميزاد . وفي بربرة أصبحت المدينة الجديدة التي بناها المصريون وهي المسماة « بالشعب » بـ بينما كان السومال لا يزالون يعيشون في أكواخهم على أرض واطنة بحوارها . وأصبحت المنارد والأرصنة ومحارى الماء الحديثة . والمستشفى وجميع المباني الحكومية الفخمة شيئا لا يذكر بعد أن تمكنها الانجليز .

وكان أمر ربيع عجا في تصرفات السياسة الانجليزية وغرائبها . إذ بالرغم من امتلاك انجلترا المدينة منذ سنة ١٨٨٤ فإن الحكومة المصرية « تمت بدفع مرتب نائب الفصل الانجليزى ونفقاته ونفقات الادارة في بلد تحلى رسم واحمله عسكريا حود صاحب الجلالة (١) » .

وسبب الحكومة المصرية أيضا تدفع للباب العالى مبلغ (١٥٠٠٠ جنيه) مقدار الحرية السنوية عن ربيع المحلة . وقد قرر مؤتمر لوران أن تستمر مصر في دفع أتاوة هذه البلاد التي أخذت منها الى سنة ١٩٥٥ .

وأعجب من هذا أن الحكومة الانجليزية حين طالبتها مصر بأن تقوم هي بدفع الحرية عن بلد اسولت عليه كان ردها : « اتنا نرى أن مصر ليس لها أن تشكو منا . نحن لسنا مسؤولين عن صفقة سنة ٧٥ الخاسرة . لأن زيلع لا تغطي نفقاتها » .

وأعجب من هذا وذلك أن انجلترا في أثناء احتلال زيلع أرادت أن تغطي نفسها تجاه الباب العالى بتسار من سادة مصر الشكبة وأن تلتزم في الوقت نفسه بخدمات مصر فبقبت الجنود السودانية المصرية تحتل المدينة لحساب انجلترا لغاية يولة سنة ١٨٨٧ . ولم يستغن عنها الا عقب مطالبة الجنود في الشهر السابق (يونية) بأن تغير وتصرف لها ملابس .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٢ - القاهرة في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

ومع ذلك فإن الانجليز استبقوا عددا من الجنود ورجال الشرطة
لمصريين لغاية ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٨ وهو التاريخ الذي أنزلت فيه
الراية المصرية التي كانت لا تزال تحقق على المدينة .

أما ما حدث بعد الاحتلال المصري في البلاد المحلقة فأمره معلوم .
فقد تحولت مناطق النفوذ المصرية على ساحل السومال الى « السومال
الانجليزى » و « السومال الإيطالى » و « السومال الفرنسى » وطلب
شعوب هذه الجهات في حالة تأخر شديد بسبب حرمانهم من المدينة
المصرية العربية التي ترفع مستواهم وتلائم طباعهم .

وقد ثار السومال على السيطرة الانجليزية منذ نظم اخيه في
سنة ١٨٩٨ . ودوخ السيد محمد عبد الله الشهير (بالمللة المجهول) حملات
انحليزية عديدة وانتصر عليهم في حروب شعواء طاحنة حتى سنة ١٩١٠ .
وكان هذا الرعم السومالى نشأ وترعرع في بربرة في عهد المصريين
الذين ساعدوا على وجود فكرة « الجنس » و « القومية » .

الفصل الثاني عشر

ساحل البحر الأحمر

كانت التحريات . منذ عهد محمد علي ، تنظر بقلق الى امتداد السيطرة المصرية على سواحل البحر الأحمر التي يقطها شعوب عربية مسلمة . وقد كتب وزير خارجية بريطانيا . في ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ . الى اللورد كولي . « وصلى كتابك المؤرخ في ٣ نوفمبر وكذلك ترجمة الخطاب الذي يطب محمد علي فيه حق الاشراف على ميناءى سواكن ومصوع :

« انه على الرغم من موافقة الباب العالي يعبر هذا العمل من محمد علي اغتداء على الحبشة وهي بلد يحاول بريطانيا العظمى الآن أن ترتبط معه بعلاقات تجارية (١) » .

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٤٨ كتب القنصل بلاودر الى بالمرستون يقول : « أن الحبشة المسحقة مسجلة استقلالاً كاملاً فانه يقترح ضروره وضع سكان مصوع تحت الحماية الانجليزية .

ولكن بالمرستون عارض في الفكره خوفاً من اثاره امشاكل وقد حصل اسماعيل . في مايو سنة ١٨٦٥ . على فرمان من الباب العالي بالسارن له عن ميناءى سواكن ومصوع مع مديرية التاكة .

وقد تمكن اسماعيل ، بين سنتي ١٨٦٥ و ١٨٧٤ من أن يحتل احتلالاً

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣١٨٥ .

فعليا أهم النقاط الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى . من سواكن إلى رأس
حافون على المحيط الهندى ، وإيجاد إدارة منتظمة فيها . وكانت السفن
المصرية الحربية ترافق الساحل باستمرار مما أزعج سلطات عدن وجعلها
تشكو من « وجود أسطول مصرى ضخم فى حليج عدن » .

ومعلوم أن الدول بعد شق القناة مباشرة - وبالأخص فرنسا
 وإيطاليا - كانت تتنافس فى وضع قدمها على الساحل ولايعال منه إلى
داخل أفريقيا .

وكان ممتاز بى وقتئذ محافظا لسواكن فعنه إسماعيل محافظا للبحر
الأحمر وأصبح ممتاز باشا (١٨٧٠) . وقد قام فى سنة ١٨٧١ برحلة
فى جميع مناطق البحر الأحمر وذكر البلاد التى كانت تطلبها الراية المصرية
فذكر بيلول (شمال عصب) ورهيطه فى جنوبها وعدن على الساحل
ورولا وأمبلا بالقرب من مصوع . وكل هذه البلاد ستصبح فيما بعد
جزءا من أريتريا .

ولا بأس من الآن أن نذكر حدود أريتريا . تبتدىء شمالا من رأس
فصار فى جنوب سواكن . وتمتد جنوبا إلى حله رهيطه عند بوعار باب
المندى وغربا إلى سبدرات قرب كسلا . وهى أعرض نقطة اتساع فى
أريتريا اذ تبلغ حوالى الثلاثمائة كيلو متر .

وقد كانت الراية المصرية تحقق فى معظم البلاد والمناطق التى تتألف
مها أريتريا . وكانت أول نقطة استولى عليها الطليان فى منطقة أريتريا
حوالى خليج عصب وذلك فى سنة ١٨٧٠ اذ بدأت الشركة الإيطالية
(روبا طنو) تشتري من الشيخ شعيم زعيم قبائل الدناقل والشيخ
برهان شيخ رهيطه الذى كانوا يسمونه سلطانا قطعا من الأرض .
وكان الشيخ برهان هذا يتقاضى مرسا ثابتا من الحكومة المصرية حتى
احتضنه الطليان وقد احتج إسماعيل وطعن فى صحة العقود التى ينصرف

بقتضاها مشايخ غير مؤولين في حقوق مصر وتركيا وكان شيخ رهطة
باع الى الانجليز جرر موسى (سنة ١٨٤٠) كبايع الى الفرنسيين أوبوك
سنة ١٨٦٢ فطلب اسماعيل سنة ٧٣ من الانجليز أن يردوا هذه الجرر حتى
يتسدى بهم الطلبان ولما أحد رأى السير هنرى اليوت سفيرا انجلترا في
تركيا قال انه يؤيد فكرة اعتراف الحكومة الانجليزية بحق مصر وتركيا
على جميع الساحل العربى لبحر الأحمر وخليج عدن باعتبار ذلك أفضل
الوسائل لوضع حد لتجارة الرقيق والحبولة دون وقوع نقط من
الساحل في قبضة دول أخرى ووافق أيضا على أن تنازل الحكومة
الانجليزية عن جزائر موسى الى لم تحتلها قط .

وقد عارضت حكومة الهند في اخلاء الجزر ولكن المبادئ الأساسية
الى استند اليها اليوت في رأيه كانت أساس اتفاقية سنة ١٨٧٧ التي
اعترف فيها إنجلترا بسيادة مصر على الساحل لغاية رأس حافون على
المحيط الهندي .

وكانت إنجلترا تعارض دائما في اعداء إيطاليا على حقوق مصر في
بحر الأحمر . وكانت إيطاليا توغل في الساحل من ناحية عصب رغما من
احجاجات مصر المتكررة على ذلك التوسع التجارى المزعوم . وقد
كتب اللورد سالسبرى وزير الخارجية الانجليزية في يناير سنة ٧٩ يقول :
« لو كان هذا التوسع تجاريا بحتا لنظرت اليه بعين العطف ، ولكن
يريد أن تتأكد أنه خلو من كل غرض سياسى لأن البحر الأحمر وقرنا
الحساس » .

وفي نفس السنة (١٨٧٩) كان عردود اقترح ضم رولا ، وهي
مياه صغيرة بالقرب من مصروع . الى الضبان فعارضت الحكومة
الانجليزية أشد اعتراض ، وكتب وزير الخارجية سالسبرى الى السير
باحث في ٧ فبراير سنة ١٨٨٠ يندى وجهة نظره في مشروعية احتلال
الطلبان خليج عصب قال :

« أيا كانت الأعمال (يريد الاعداءات) التي تجري الآن أو فيما بعد في الأراضي المصرية من السويس إلى رأس جردفون وأيا كانت الادعاءات التي يتقدم بها لغير قنما لا ريب فيه أن حكومة صاحب الجلالة ليس في مقدورها أن تسلك سبيلا آخر سوى الاستمرار في احترام ما تعتقده : أعني سيادة الساحل الشرعي . هذه السيادة التي أصبحت في رأي الحكومة الإنجليزية تمثل عبر مدافع في خديوى مصر الذي يحكمها بتفضي فرمان من سلطان تركيا . وكل ادعاء أن سادة كهذه ثابتة شكلا وموضوعا يمكن إبطالها أو تعطيلها بواسطة شيخ من المشايخ المحليين من شأنه حلل مبدأ خطير في نتائج العامة . مبدأ لا يسع حكومة صاحب الجلالة أن تصمم به بطريقة سليمة لا غبار عليها (١) » .

ولكن في سنة ١٨٨١ بدأت إنجلترا تغير سياستها نحو إيطاليا والسمر في ذلك تكشف عنه مذكره في سجلات وزاره الخارجية الإنجليزية كتب في سبتمبر تقول « أن الفرنسيين ندلون أقصى الجهد لإخراج مصر من قبضة إنجلترا » .

من ذلك التاريخ أحدثت إنجلترا تصامع إيطاليا على حساب مصر وتحدث معها كما كانوا يقولون « كلب الجناحي » أي الكلب الذي يحرس لسيده أملاكه حتى تحين الفرصة الملائمة ليرد الحارس ما عنده أسما . ومن ذلك الحين . أي ابتداء من سنة ١٨٨١ أخذت إيطاليا تجري على سياسة القوة و « التوسع المسلح » .

بدأ الطلاب باحتلال رهيطه في جنوب خليج عصب باعتبارها دبعة لمسيح عصب وفي أغسطس سنة ٨١ طبت الحكومة المصرية إلى الحكومة الإنجليزية إرسال مدرعة حربية إلى رهيطه لأن سفينة حربية إيطالية منعت انزال جنود مصرية جديدة إلى البر هناك .

(١) سجلات وزارة الخارجية الإنجليزية رقم ٧٨ مجلد ٢٢٦٥ .

وقد بلغ الأمر بالظلم أن سفير إيطاليا في لندره ذهب الى وزير الخارجية الانجليزية في ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأبلغه أن المصريين يريدون أحداث الشغب في ناحية عصب . وقد أشار في حديثه الى أن مركز الطليان في خليج عصب يرتكر من جهة الحق على نفس الأسس التي يرتكر عليها مركز الانجليز في عدن (١) .

وقد حولت عصب في يونه سنة ٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى . وفي يناير سنة ١٨٨٥ احتل الطليان بلول في شمال خليج عصب وطرّدوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح . وفي شهر فبراير بالاتفاق مع المجترة قررت إيطاليا احتلال مصوع بعد بلول وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع وكان ذلك مبدأ تأسيس أريتريا .

وقد جاء في وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه في فبراير سنة ٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا الى سفير المجترة في بطرسبرج « بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة لتحويل إيطاليا الحق في الاستيلاء على بلول أو مصوع لا سيما وان كلا البلدين كانت تحتله حامية مصرية ، ولا شك في أن عمل إيطاليا مخالفه صريحة لروح المعاهدات القائمة (٢) » .

وفي شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ دخل الطليان مصوع وطرّدوا الحامية المصرية واستولوا على المستودعات ومخازن الذخيرة وجميع أملاك الحكومة المصرية ، حتى الخزانة .

ولما طالبت مصر إيطاليا بتعويضات كان مسدّد إيطاليا شبيها بمسلك المجترة فرفضت أن تدفع شيئا . وأكثر من ذلك : كانت مصر تدفع للباب العلى . نظير التنازل عن مصوع . ١٧٠٠٠ جنيه جزية سنوية . وقد

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥ .
٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٨٦٠ .

استمرت مصر في اداء هذا الملغ رغما من احتلال المدينة بواسطة
الطليان ...

وقد قرر مؤتمر لوزان . كما قلنا . أن تستمر مصر في دفع أتاوتها
المقررة لريلع ومصوع لغاية سنة ١٩٥٥ .

وكانت إنجلترا من ناحيتها . منذ سنة ١٨٨٤ . تحمل ميناء سواكن
الى كانت تطمع في أحده . وتعين حكاما انجليز « لساحل البحر الأحمر » .

وقد حاول برنج أن يحس نص نوبار بخصوص سواكن . وكتب
بهذا الصدد في ٣ أبريل سنة ١٨٨٧ « انه (نوبار) يفكر من الآن
في اللحظة التي تعود فيها من جديد مديريات السودان المحاورة الى
خطيره السادة المصرية . لا لطريق الصح ثانية ولكن بطريق العلاقات
التجارية . وكان يرى أن دقله وسواكن هما القطبان الذي يمكن منهما
السيطرة على السودان » .

ولنصريح نوبار أهمية كبرى في ذلك الطرف لأن شركه انجليزيه
تجارية على غرار شركة الهند الشرقية كانت تعمل وقتئذ على الحصول
من الحكومة على امتيازات تحول لها الحق في اشاء مركز لها في سواكن .
لنوغل منها في السودان ايضالا تجاريا يساعد على السلم .

وبتحقيقا لهذا المشروع التجاري السياسي كتب القنصل كامرون .
بباريس أول أبريل سنة ١٨٨٧ . كتابا يقترح فيه لأجل التمهيد للسلم
في السودان الشرقي أولا ، أن يسحب من سواكن جميع الموظفين غير
الانجليز (سوريون وفلاحون ومصريون) واحتلال موظفين انجليز
مدنيين برياسة كنشتر مكانهم ثانيا ، فتح البلاد للتجارة .

ولكن مشروع الشركة التجارية فشل بسبب اعتراض الحكومة
المصرية .

وفي ذلك كانت إيطاليا تبسط سلطانها في داخل السودان الشرقي
وتتقدم نحو كسلا التي كانت هدفها ..

فرعج بيرنج من هذا المقدم وكتب الى حكومه . بتاريخ ١٥ ديسمبر
سنة ١٨٨٩ يقول « انك أبرقتم الى في ١١ الجاري بأن الحكومة الايطالية
تريد الاتصال برعما كسلا .

« وفي برقيتكم بتاريخ ١٣ ، تقولون : « ان السياسة التي تعمل على
ابقاء قوم آخرين خارج بلاد متوحشة ليس في مقدورنا نحن أن نحتلها ،
سياسة لا يمكن متابعتها أو الدفاع عنها » .

« اني أعترف كل الاعتراف بقوة هذه الملاحظة . ولكنني في الوقت
نفسه أجرو على اقامة الدليل على أن حالة السودان لا تطابق تماما حالة
بلاد أخرى متوحشة لا تحتلها أو لم تحتلها قط دولة ما متمدينة أو شبه
متمدينة . ولا شك من الناحية القانونية . وان لم يكن من ناحية الواقع ،
في أن السودان جزء من الأراضي العثمانية . وان الخديوى يدفع جرية الى
الباب العالي من أجل السودان ..

« ومن الظلم البين أن تسمر الحكومة المصرية في دفع جرية من أجل
مصوع . وهذا الظلم يتضاعف أضعافا اذا وضع الطليان أقدامهم في بلد
تأمل الحكومة المصرية بحق أن تسعيده في يوم من الأيام ..

« من الواضح أن الطليان يريدون امتلاك كسلا ليتمكنوا من
لتوسع نحو العرب والانتقضا اذا ساعدت الحوادث على وادي النيل
في الخرطوم أو في نقطة ما بالقرب من الخرطوم .

« واني لأحرز على الرغم ان الحرص على المصالح المصرية يحتم اتفاق
نكبه كهذه واتنا لا ببالغ اذا قلنا ان توطد دولة متمدينة في وادي النيل
يصير طامة لمصر .. »

وبعد أن أشار بيرنج الى الخطر ، الذى يهدد النيل من ناحية
الدراويش ، فى رأى البعض . قال : « ان القبائل الموحشة التى تسيطر
الآن على السودان لا تملك الوسائل الضرورية أو المهارة الفسة للاحاق
أذيه حقيقية بمصر . ولكن الحاله تختلف كل الاحلاف فيما اذا توطدت
دولة أوربة ممدية فى وادى النيل . لان دولة كهذه . كما قال كولين
مونكريف « تضع مصر فى قضة يدها » وتستطيع انقاص مؤنه مصر
من الماء حتى تحول الى جرداء لا زرع فيها ولا ضرع .

« وأيا كانت الدولة التى تحمل أعالى النيل فان هذه الدولة بمصل
مركزها الجغرافى ، تهيمن على مصر .

« وفى نظر أوروبا . وفى نظر الشعب المصرى . واستطع أن أصف .
وفى نظر الكثيرين من الانجليز . الحكومة الانجليزية معصرة مسؤولة عن
فقد السودان (١) » .

وأخيرا تقرر بمضى اتفاق مرم فى ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ . بين ايطاليا
وانجلترا جعل الحد الشمالى لمستعمره اريتريا الحدودية يبدىء من رأس
قصار على ساحل البحر الأحمر . على أن يسر من هالك فى اتجاه جنوب
بغرب نحو العصرة مارا فى شرقى كسلا . وقد أضفت ماده فيما بعد
سمح للظليان بأخذ كسلا اذا استطاعوا . ومعها جزء صغير من الأرضى
المصرية بشرط أن يردوها الى مصر عند الطلب .

وقد طلت ايطاليا تحتل اريتريا لغاية الحرب الكرى الثانية (٢) .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٤٢٤٣ .
(٢) لا بأس هنا أن نذكر بهذه المناسبة ان كاتب هذه السطور نشر
فى حريده المصرى بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٤٨ معالا تحت عنوان هل لنا
سياسة افريقية ! جاء فيه :

ان سكان مناطق البحر الأحمر وأكثرهم من العرب ينظفون الى مصر
ويأسون من مصر أن تعمل على الأمن على شر ثقافتها فى هذه البلاد .
وهانذا أضع تحت أنظار القراء الوثيقة الآتية :

= الحالية العربية في اريتريا . المكتب الرئيسى باسمره .

شارع بادوليو نمرة ١١١ .

اسمره في ٢٦ جمادى الاولى ١٣٦٦ الموافق ١٨ ابريل سنة ١٩٤٧ ،

حضرة صاحب الدولة محمود فهمى التفرأشى باشا - رئيس مجلس

الوزراء - القاهرة .

شرف بان تقدم الى دولكم اصدق التحيات والتمنيات واكمل
الاحترام منقدمين الى دولكم باحلم الهانى بما هم من جلاء الاحتلال
عن اسمره والاسكندرية في عهد دولكم الزاهر املين من عونه تعالى ان
يهدم الى دولكم قريبا اسهته الكامله بالخلاء التام عن وادى النيل وتحقيق
كامل الامانى الوطنية داخلها وخارجها داعين لدولكم بالصحة والعمر
الطويل .

يا صاحب الدولة :

ان رجاء الامم العربية في معقد آمالها صاحب الجلالة الفاروق وفي
حكومته السنية كبير جدا وفي اريتريا حاله عربيه باميه راهره تشارك
الامم العربيه الاخرى في هذا الرجاى مطلقه الكم في ان تأخذوا بيدها وان
تحققوا مطالبها التى شرف بان كتب عنها الى وراثة الحارجه والمعارف
والمفوضه اميكه المصريه ناديس انا . وحين رار البلاد الاريتريه الاستاذ
عبد الله حسين في عودته من اديس انا اسهرت الطلقات المحبسه هذه
ارياره فاعلمت بحضرته الحفلات العديده موهه برعايه مصر للعالم العربى
والاسلامى والصلى بنساحب الحلاله مولانا المعظم فاروق الاول . وباسطة
المطالب السياسيه والاجتماعيه .

اما السياسيه فسلخص في رجاء العرب الاريتريين في ان يسمع صوت
مصر محلحلا في كن مؤتمر دولى او لحنه دوليه بعهد النهاى التى في مفسر
اريتريا السياسى ولعنا في عنى عن النحدث عن علاقات مصر ومصالحها
الباريحيه فيها ونحو وانعور انه لن يعوتكم ان بعدوا الشعب الاريتري
والعربى حررا من وادى النيل ولسا الآن في صدد تفصل هذه المسائل
الدقيقه فدولتكم اعرف بذلك .

اما مطالبنا الاجتماعيه فسلخص في ان نعوم مصر سونى علاقاتها بهذه
البلاد بالوسائل التى تراها وحسنا ان نذكرها من ذلك المبادره الى
ارسال سبه مدرسين مصريين على بعفه الحكومه المصريه ان امكن للتدريس
مدرسى الحاله العربيه باسمره ومصوع وبعثه ارهريه للوعظ والارشاد
والاشراف على المعاهد الدينيه والمساجد الاريتريه واهداء كتب علميه
للمدارس والانديه العربيه .

ونحن مستعدون لاستقبال المندوب الذى قد تعهدون اليه بدراسة
هذه المسائل وتسهيل مهمه هؤلاء المدرسين من ناحية المساكن وتوفير
اسباب الراحة لهم مما سبطاه للاسياد عبد الله حسين وكما هو مدور في
طلباتنا التى قدمناها الى وراثة المعارف ونرفق منها صورة مع كتابنا هذا .
وتعصلوا يا صاحب الدولة بقول اسمى عبارات التحية والاحلال .
رئيس الحاليه العربيه اريتريا .

(الامضاء)

الفصل الثالث عشر

المديرية الاستوائية

أو

مديريات خط الاستواء

كان يطلق على الفوجات المصرية في أواسط أفريقيا التي ملئت حدودها مد حوالى سنة ١٨٧٤ يعورها الغير والعديل بسطا وقضا بسبب اضطراب سياسة غردون وماآرب السياسة الانجليزية اسم « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء . وحيثا كانت تسمى « مديريات خط الاستواء » باعتبار مديريه بحر الغرب جزءا من الاقليم الاستوائى . أو باعتبار تقسيم مديريه خط الاستواء الى مديريات خصوصا وانها كانت تشمل بصفة عامة منطقة النفوذ المصرى فى الأنور و أوغنده وما حولهما فى الاصقاع الواقعة فى شمال بحيرة فكتوريا وفى الجنوب العربى من بحيرة ألبيرب عند منابع النيل . وكانت وقتئذ بلاد الجالا أو الجزء الجنوبى من الحبشة الحالية لايجزأ من هذه المنطقة . وكان نفوذ مصر يمتد من النيل الأبيض مارا ببلاد الجالا وبلاد السومال حتى يصل الى ساحل المحيط الهندى فى اطراد مستمر لا يعوقه عائق .

وقد ذكرنا من قبل أن شاييه لونج الأمريكى كان عقد . بسم مصر . مع امتيزا ملث أوغنده معاهدة حماية . ذكرها فى كتابه (مصر ومديرياتها الضائعة) : « لقد تكلمت فى تقريرى الى الحكومة ، بتاريخ ١٦ ديسمبر

سنة ١٨٧٤ ، عن المعاهدة التي وقع عليها الملك امتيزا ووضع بمقتضاها
ملكه تحت الحماية لمصرية . وهذه المعاهدة أُلغيت الى الخديوى وكانت
أساس تبليغ رسمى أعلنت به مصر ضم جميع الأراضى الواقعة حول
البحرتين الكبيرتين فكتوريا وألبرت وقد احتلت من سجلات
القاهرة ..

« وعلى الرغم من استقصاء البحث فى جميع الوزارات لم يوجد لها
أثر مطلقا . ولعلها فقدت مع جميع المستندات القبطية والتقارير العسية
الى تمثل خمسة عشر عاما من الجهود والاعمال الى قام بها زملاؤى
لهرليسون والأمريكيون فى أركان حرب الجيش . كل هذه الأوراق
دما تظهر ألسها فى النار ذات يوم صابط فى الجيش البريطانى أصابته
بوبة محمور » .

وقد كان نفوذ مصر سائدا فى أوغده . رعبا من دسائس المبشرين
والساسة الانجليز . وكان اميزا أرسل انته الى مصر سنة ١٨٧٤ فقامت
فيها حتى سنة ١٨٨٢ . وكان فى نية الخديوى اسماعيل أن يزوجه صابط
مصريا يكون ممثلا له فى بلاط منبرا ولكن الحوادث حالت دون تحقيق
هذه الأمنية .

وقد أشرفا من قبل الى أن قوة مصرية بقيادة الضابط السودانى
بوريت محمد قد احتلت . بناء على طلب امتيزا نفسه . رواباجا عاصمة
ملكه على ساحل بحيرة فكتوريا .

١ - أهوال المديرية من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨

فى سنة ١٨٨٠ فتح أمين ثابته فويرا وجمع المخطاط الأخرى التى
كان اضطر الى احلائها بأمر عردون وضم لانوكا الى المديرية وهى خصب
بقعة فيها « جنة أفريقيا » .

وفي أوائل هذه السنة وصل كاراتى مصر وجاء الى الخرطوم
(٢٦ يناير ٨٠) فوجد وكيل المديرية حيجر في انتظار قدومه رؤوف باشا
وقد قضى العام في ارتداد بحر الغزال ثم لعب بعد ذلك دورا في حوادث
خط الاستواء .

وفي سنة ١٨٨١ تعين فتاح حسان صديليا للمديرية حيث ظل
عشر سنوات . وفيما حسان كما قلنا تونسي اسرائيلى كان والده قنصلا
لايطاليا وأرسله الى الاسكندرية ليمدرسه . ثم عين رئيسا لصديلية
أرملة عباس باشا ثم عين موظفا في صحة العريش ثم صديليا في السودان
(مايو ١٨٨٠) .

وفي السنة عينها (١٨٨١) كانت مونبوتو أوجورجورو ملحقة بمديرية
بحر الغزال وانفصلت عنها في يولية سنة ١٨٨١ مع مركز (رول) وانفصلت
بمديرية خط الاستواء لأنها أقرب اليها .

وعبر لبتون الانجليزى Lupton وكيل مديرية خط الاسواء حكمدارا
لبحر الغزال مكان جيسى الذى عزل من الخدمة وأدركته المنة وهو في
طريق العودة بالسويس ^(١) وكلف الضابط المصرى حوش أمدى
مسئرا قائد جنود مكركا بإدارة مركز مونبوتو . وتمدد مكركا من جنوب
رول لغاية جوجورو (مونبوتو) .

وقبل أن نتكلم عن موارد المديرية وحاصلاتها ومعيشة السكان يحسن

١. جاء في مذكرات امين باشا Emin Pasha, His Life And Work ص ١٢٧
ما يأتى :

« كان جيسى يفكر في العودة الى ايطاليا لان الحكومة كاتب تعالته بالرد
على التهم الخاصة بالعطائع التى يصعب القول انه لم يتركها ضد الفريق،
بصرف النظر عن البواعث الانسانية (خصوصا ضد سليمان الزبير الذى
غدر به ليسلم نفسه ثم حوكم عسكريا واعدم بالرصاص) . وقد أرسل
التجار بدورهم شكاوى لاتحصى ضد جيسى . وعلى اثر حدوث طامة
كبرى في بحر العرال نسب المؤونة وصار حشى الى الخرطوم ومنها رحل
الى سواكن ثم الى السويس حيث مات بئسا متعوسا » .

لنا أن نذكر النظام التجاري فيها كما وصفه فيتاحسان لما كان له من أثر
فيها وقد أشرنا إليه من قبل . قال : « يرجع تاريخ احتكار التجارة (١)
إلى عهد صم أراضى المديرية والواضع لهذا النظام هو غردون باشا وقد
أسمر معمولاً به من ذلك الوقت .

(١) كان قرار غردون الخاص باحتكار التجارة سببه الأول العلاقة
الكائنة بين بحاره السن وبحاره الرقيق ولكن هذا الاحتكار شابه شأن
جميع الاحتكارات الاستعمارية التي حروب عليها فيما بعد جميع الدول
الأوربية في أفريقيا أكثر صرامة للحجارة وقد كانت سمعت شكوى البحار
والأفراد على السواء . وقد كان العقد يدفع ٢٠٠٠ جنيه في العام للحكومة
ليكون حراً في بحاره وقد أمر اسماعيل باشا أيوب بمصادرة ٨٠ قنطار
عاج في نور يملكها العقد قبل وصول غردون إلى حظ الاسواء (مارس
سنة ١٨٧٤) . فكان يطبق النظام فجائلاً . يضاف إلى ذلك أن العاج كان
يمكن الحصول عليه في أوغندا والحبشة من طريق المعايشة أو من طريق
الصيد فاحتكار البحار حول هذه البحار عن موانع النفوذ المصري .
وقد أراد غردون بعد تعيينه حكمداراً للسودان تعميم هذا النظام في
السودان وملحقاته . ولكن بظهر أن أحكام المنحقات المصريين انحطوا
بلامر : يدل على ذلك صورة المكاتب أصدره من محافظته ببريه إلى المعية
رقم ٥٣ بتاريخ ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٤ هـ (٢٨ مايو سنة ١٨٧٧) -
دفتر رقم ٣٧١٦ من سجلات عابدين .

« وردت لنا برقية من سعادة حكمدار عموم الأقاليم السودانية تاريخ
عمر مايو سنة ٧٧ بعد ٢٠٨ يذكر أن من أعين صار احتكاره للميرى
ومرغوبا سيطر كن ماورد بهذه الجهة من الصف المذكور وبوريده للميرى
مع أن هذه الجهة منظمة محلياً ، حدساً ، وغالب بحرها مسئولون عن
موانع حسيمة من طرف تجار بسمدر عدن من من أوروبيين وفرنسيين وبوبيين
ويهود وبحود برسم الشركة وتدارك ما يوجد من الصناعة التجارية بما فيه
الصنف المذكور ، وهذا فضلاً عن صرف مبالغ أيضاً من طرف تجار عدن
إلى مذكورين سومال وغيرهم خلاف شركاهم المقيمين بالجهات برسم
تدارك صف السر من فعض وبعض اشخاص سلاح لصيد الأفيال
بماهيات ومصاريف جسيمة من طرفهم الخ » .

وتتلخص بقية الكتابة في « أن تنفيذ الأمر قد يؤدي إلى استياء عام
وعطل وإصرار بالحكومة » .

ولا توجد تحاربه بالمعنى الصحيح في لادو لا محطات خط الاسواء
الأخرى وبحر الغزال ابتداء من لادو .

كان يوجد في لادو ثلاثة تجار فقط وهم مصري وهو مصري من أهالي
الوجه القبلي وروفايل وهو مصري قسبي وديتري وهو يوناني . وكان
رأس ما لهم جميعا ١٥٠٠ ريال قيمة السلع التي تنحصر في بعض الأسلحة
لقطه والدمور وبعض المشروبات الروحية والمواد الغذائية .

وكانت المواد الهامة المعدة للتصدير هي وحدها المحكرة وترسل
الى الخرطوم وهي العاج وريش العمام وحلود الثيران فالعاج من ممتلكات
الحكومة وعلى الأهالي توريده لمستودعات الحكومة حالا عقب صيد
صله بدون مقابل (كانوا يكتفون بلحومها وشحومها) وكانوا قبل
احتكار العاج يبادلون عليه بالخرز أو بزحاجة من الخمر المعشوشة التي
يجلبها التجار (يستثنى من ذلك سكان مملكتي الأوسورو وأوعنده بسبب
علاقاتهم التجارية مع الزنجباريين) .

وفرضت الحكومة بعد ذلك على الأهالي توريد العاج بصفة جبرية
فاضطروا الى اغتصاص الأقال لتوريد أياها . وعاد الاحتكار على الأهالي
بأضرار أقل كثيرا من التي وقعت على العرب لأن هؤلاء كانوا يجنون معانم
كثيرة من وراء بيعهم العاج في الخرطوم .

وكان من المعين أيضا تسليم ريش العمام في مستودعات الحكومة
فتدفع هذه نصف الثمن والجزء الباقي بحجز سدادا لضريبة الحكومة .
وكان ثمن رطل الريش الأبيض العالي ١٨ ريالا . . وكانت هذه الرثمان
لا تدفع نقدا بل غلة وكانت السلع تقوّم مقام النقود المتداولة في مديرية
خط الاستواء فيدفع منها رواتب الموظفين والجند وكذلك الحال في باقي
المعاملات التجارية .

ولم ير فيناحسان طول المدة التي أقامها الا شحنة واحدة من النقود
تحتوى على ٥٢,٠٠٠ ريال بعث بها رؤوف باشا من الخرطوم ليدفع منها

المعاشات الشجرية ومرتبات المسخدمين لغية آخر عام ١٨٧٩ وكون
هذا المبلغ القيمة التي ستمت لتبديله عنا في جميع أنحاء المديرية زهاء
عشر سموات وكانت كل بحرة تأتي من الخرسوم تجلب سلعا بنحو
٣٠,٠٠٠ ريال (١) .

وكان تموين المديرية يصل بالبواحر من الخرسوم ولكن آخر بحرة
وصلت سنة ٨٢ فكان يجب على المديرية أن تعتمد على نفسها بعد انقطاع
المواصلات .

وعلى أنه حال كانت لمديرية مند الشائها لعمل على توفير حاصلاتها
من رراعاتها فكان الضباط المصريون وأمين منذ وصوله يجهرون على
سنة واحدة مسعة في جميع البلاد التي فتحها أو أنشأها المصريون في
السودان وسواحل البحر الأحمر وهرر وهي الشاء مبان للموظفين
والحكومة وحدائق ورراعات تؤتي خضر وغيرها مما يستعينون به في
معاشهم ويرفقه عنهم والمصري لصعته موع بالحدائق والحمول فهو مدني
مستأن وقد كان لهذه البرعة أكبر تأثير في تطور السكان وتحبيب
المدنية اليهم .

وقد أشار في حسان ويونكر وأمين الى ذلك في كتاباتهم ورغما من
اختلافهم في التعبير فإن هذه الحقيقة تتجلى باهرة .

قال فيتا حسان « لاشك أن زراعة الذرة البيضاء التي تفضل
الذرة الصفراء لأنها تتطلب مجهودا أقل وتأتي بعشرة أضعاف الربح .
ويرجع لفصل في رراعه الذرة البيضاء في جورجورو الى حواش منتصر
الذي أتى بها وتمكن بقوة العرعة والدكاء والمبادرة وحسن التدبير
الى استجلاب ورراعه أشجار الفاكهة من برتقال وليمون وكذلك الخضر

(١) الجزء الأول من كتاب فيتا حسان . الفصل الخامس . ص ٦٢
(الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية .

من كل نوع ، نخص بالذكر منها البصل ، وكذلك الدخان الذي أحضر بذرتة من القضايف بديرية كسلا (١) .

وكتب في فصل آخر في كلامه عن مكركا :

« وان أنفع النباتات والزراعات التي أدخلها أمين بك في خط الاستواء زراعة القطن والأرز ويرجع الفضل في نجاح رراعتهما نجاحا باهرا الى ما بذله حواش منتصر من عظيم المساعدة والهمة التي لا تعرف الكلل . كما نجحت زراعة الدرة والفضل في نجاحها يعود على أمين بك . وقد أفاد القطر افادة عظيمة جدا فيما بعد وذلك عندما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عقب انقطاع المواصلات مع الخرطوم (٢) » .

وفي سنة ١٨٨٥ كان حواش مسير حاكما على جنوب المديرية ومركره دوفيله كما كان مرجان أعا حاكما على الشمال ومركره أمادي . وقد راره فيتا حسان ووصف الحالة هناك قال :

« ومن باب الاحباط للظواريء ملا حواش مسودعات دوفيله بالحبوب والمؤوبه والرائب بدأنعام . وهو احتياط مسي على الفشة وبعد النظر . وأنشأ كذلك زراعات واسعة للأقطان والرم الأهالي والجنود بزراعه هذا النوع . ومفضل هذا التدبير تمكن فعلا من جمع الجنية الأولى وأحد جوده الزوج في عزل القطن تحت ماسره رجل دنقلاوى من فاديبك فتعلموا نسج الدمور . ونشر حواش أفدى

(١) الجزء الأول من كتاب فيتا حسان : الفصل الخامس ص ٦٢ (الحقيقة عن أمين باشا بالأماية) .

(٢) الجزء الأول . الفصل السابع . ص ٨٣ - ٨٤ . ذكره طوسن باشا في كتابه (مديرية خط الاستواء) .

فما بعد زراعة القطن وسح الدمور بدرحة أن سكان المديرية من ملكيين وعسكريين أمكنهم أن يكتسبوا منه (١) .

وكان حواش يملك عددا كبيرا من الرقيق يستخدمه في الأعمال اشتمت على زراعة الصل والقطن وصناعة الدمور والأحذية وكانت قطعانه العديدة تستطيع أن تقى بالخطر الأكبر من حاجات المديرية كما تأتي له بإيرادات كبيرة .

وكتب جوبكر السائح الألماني في رحلته الأولى سنة ١٨٧٨ يقول :
إن زراعة الحبوب والحدائق هي أول أساس وطيد للتجارة . وهي خير وسيلة للعمل على ترقية الروح من الناحية الأدبية بل هي أقرب الوسائل إلى مداركتهم . ولأن عكس القول أنه على الرغم من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها العرب (المصريون) ضد الروح فاهم هيأوا في مكرها الظروف التي جعلت تقدم المدنية في حر الأماكن والتي جعلت للبلاد مزايا حكومة تضم بقايا شعوب كثيرة تحت سلطان واحد قوى .

« ويرجع الفضل إلى المسلمين ، وهم الذين تعزى إليهم البطاع والمثالب . في الرام الروح بضرورة المعيشة في هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم والاقامة على قدر الامكان في دورهم ومواطنهم والانصراف إلى زراعة حقولهم . وهذا العمل يجب أن تقدره حق قدره دون أن نسحبه شيئا . وبما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الروح تحت سيطرتها . وهذا الأمر مكنها أن تفتح بابا لانتشار المدنية في مستقبل الأيام .

« ومهما بلغ من ثقل الير الأجبي فهو في الواقع أفضل للروح

(١) الجزء الثاني من كتاب فيتاحسان . الفصل الرابع . ص ٤٢ - ٤٣
ذكره عمر طوسن في كتابه (مديرية خط الاستواء) .

من حكم نفس المستبدين منهم اذ ان حكم هؤلاء مصدر حروب لا نهاية لها يقنى في خلالها بعضهم بعضا ^(١) » .

وكتب جوتكر سنة ١٨٨٢ عن حواش يقول : « حواش أفندى متصر صابط مصرى عاش سواب في بلاد الروج وكان خيرا بجميع شؤون أعالي النيل ، بلاد مكراكا ورول ^(٢) » .

« وهو ذو همة لى في معاملة الوطنيين وهذه الصفات وضعت في مستوى أعلى بكثير من مستوى معظم زملائه الموظفين ^(٣) » .

وفي يونه سنة ١٨٨٤ كتب في أثناء مقامه في دوفله : « لقد أملت مقامى في دوفله وأصلحت من شأنى فقام أحد الأولاد بجمع « بنظرون » وصديرى لى من دمور مكراكا وصيفهما ^(٤) » .

وفي سنة ١٨٨٦ كتب جوتكر : « وفي ذلك العصر ، رعى من الأرمه السيئه . فان أمين عزل بعض كبار الموظفين أمثال عثمان لطف وكيل المديرية . و أحمد محمود سكرتيره الخاص بما أدى طمعا الى زياده عدد المستائين . ولكن كان لا ان نعى برؤيه العرعة المبدولة في فلاحه الأرض بما فيها رراعه القطر الى كانت أهمل فلا ثم عى . وقد كان الحوش أفندى القدح المعلق في هذا الميدان . وقد كسب أرباحا طائلة ^(٥) » .

وتكلم أمين باشا في مذكراته عن مكراكا (سنة ١٨٨١) قل : « في حديثى الموظفين نجحت رراعه اللبمون بأنواعها وكذلك رراعه الشحم

١ الجزء الأول . ص ٤٩٨ - ٥٠٠ من كتاب جوتكر (رحلات في افريقيا) . الطبعة الانجليزية .

٢ الجزء الثانى من كتاب جوتكر . ص ٢٩٦

(٣) الجزء الثانى من كتاب جوتكر ص ٤٢٧

(٤) الجزء الثالث من كتاب جوتكر (الطبعة الانجليزية) ص ١٠٩

(٥) الجزء الثالث من كتاب جوتكر . ص ٥١٨

والبصل . وقد زرعتا القطن لأول مرة هذا العام وحصلنا من أقبين
من البدرة على عشرين قطارا من القطن الجيد (١) .

وقل بعد ذلك « ان جورا Gosa المحطة المركزية في مملكة أبوقية
Abukaya لم ترتفع الى مرتبة محطة الا منذ بضعة أشهر . وهي ذات موقع
جدا لمراقبة الطريق الممتد من مونوتو الى الشمال والطريق المؤدية
الى مركز رول وبحر الغزال . وقد كان نجاح زراعة القطن ههنا بامرا
بدرجة أنه ساعد على نشوء صناعة النسيج التي يحمل أن تصح دن
أهمية كبرى في المستقبل . ويشغل السكان — الدافلة وعبيدهم في
لوقت الحالى — نسيج قماش القطن الخفيف المعروف في جميع أرجاء
السودان بالدمور الذى يناسب الى أقصى حد الجو الذى يعيش فيه .
ولكن صناعته هنا أرقى بكثير منها في الخرطوم . (٢) » .

وكب كارانى سنة ١٨٨٣ يهول . « يوجد القطن في أماكن كثيرة
في أشكال مختلفة وهو عند قائل الارى نطل بدوره خضراء عند نضجها .
ويرجع الفضل في انتشار صناعته الى بعض الدافلة الذى تولوا صنع
الماويل بأنفسهم فأصبح الكثيرون من الأهالى يسفون ررقهم من نسج
الدمور المحلى (٣) » .

يصح مما تقدم أن الزراعة والصناعة كانتا في تقدم مستمر بفضل
المصريين في مديرية حط الاستواء وان التجارة كانت متقدمة بفضل
العرب السارحين في أوغندة والأسورو ولكن كان متأخره في حط
الاستواء بسبب سياسة الاحتكار التى وضعها غردون .

(١) كتاب امين باشا في افريقيا الوسطى . ص ٢٧٤ (بالانجليزية)
Emun Pasha In Central Africa

(٢) امين باشا في افريقيا الوسطى . ص ٢٨٦

(٣) كازاتى (عشرة أموام في مديرية حط الاستواء) . الطبعة الفرنسية
ص ١٨٩

ولا شك أن الثورة المهدية قد ربكت إلى حد ما الحركة الإصلاحية العامة ونشرت الاضطراب في المحطات الكثيرة التي أنشأها المصريون على شفاف النيل الأعلى وفي السهول الممتدة شرقا وغربا وكانت كلها مراكز مدنية ونظام .

وقد كان من نتائج فتح السودان منذ عهد محمد علي نروح النصارى المصريين والعرب والسودانيين كالتوبيين والدنافلة جنوبا إلى ما وراء الحدود المصرية إلى ما بعد فاشودة أي أن هذه الاقطار الاستوائية كانت موصوغة للتجارة وبدأ احتكاك الرنوج بالعرب قبل الفتح المصرى في سنة ١٨٧٠ ثم أخذت بعد ذلك تدخل المدينة بطريق واسع منظم في هذه الأرجاء .

وقد كانت الحكومة المصرية تحمى الدافلة وتعمهم من الضرائب ولكن أمين باشا كان يطاردتهم بفرض الضرائب عليهم ويضطرمهم إلى العودة إلى موطنهم وهم وإن لم يكونوا من خيرة العناصر السودانية إلا أنه ثبت أن وجودهم في بلاد الرنوج كانت له بعض المزايا التي لا تسكر من ناحية المدنية والعمارة .

وقد كانت مملكة مونتوتو (أو ما نجبانو كما يسميها حونكر) أقصى تلك خط الاسواء غربى النيل ولم تكن بها إدارة مطبقة بالمعنى الصحيح إلا في عهد أمين أو بعارة أدو في عهد حواش منصر الذى أخضع رعماء قبائلها وطارد أمير موبوتو المسمى مامبانجا Mambanga وأوغل في مطاردته حتى أخضع القبائل المحاورة لموبوتو ورعيها بورو Buru لحكومة مصر وكانت هذه المديرية خاصة اسميا لمصر قبل حواش . وقد أنشأ حواش سنة ١٨٨١ محطة سميت باسمه (محطة حواش) في رأس راوية في أقصى الحدود الغربية واقعة في رأس قبائل البارمو A-Barmbo ورئيسها بورو . وقد رار حونكر المحطة الجديدة في

سبتمبر سنة ١٨٨١ فامدح تصميمها الدقيق وجمال البناء وحسن التقسيم والاحتياط لطوارىء الحرب والحريق وما اليهما (١) وكانت هذه المحطة تقع في شرق نهر الأوله . وتبعد غربا عن بحسر الجبل (النيل) نحو خمسمائة كيلو مترا . ومعظم مديريه المكراكا الغنية وجمع موبوتو لغاية محطه حواش هي الآن جزء من افلم الأوله التابع للكونغو البلجيكي باعسار هذه البلاد فسم من بحر العرال الذى كانت بلجيكا تطمع في صمه كله اليها لولا اعتراض فرنسا .

وقد كانت مديريه خط الاسواء . في بداية الثورة المهديه . تمتد على ساحل النيل من مخرجه في بحيرة ألبرت الى ما وراء لادو وكانت تشمل على القسم الشمالى من الأنيورو وأراضى الشولى والمادى والبارى وبلادوكا والمكراكا والمورى والمونو . وكانت تمتد من ناحيه أخرى على النيل بين بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا لغاية نيامبونجو على بحيره ابراهيم بل الى نقطة أبعد من ذلك نحو الجنوب في درجة دون خط الاستواء أو على مسافة حوالى خمسين ميلا من بحيرة فكتوريا .

ولكن في أثناء الثورة المهديه اضطرب الخامسات الى ترك فويره والمراكز الواقعة على النيل فكتوريا وتجمعت على النيل من سواحل بحيرة ألبرت الى ما بعد لادو شمالا .

ومن ماحونجو عند مخرج بحيره ألبرت لغايه لادو عبر الطريق بدووينه ولابوريه وموحي وكري وبيدن ورحاف وغندوكورو ثم يصل الى لادو بعد أن يقطع مسافة ٢٠٠ ميل تقريبا . ويلاحظ أن أوغنديه الانجليزيه الحاله تسمى حنوبا من سواحل بحيره فكتوريا وتنتهى شمالا في بيمون . وتؤلف الاننيورو جزءا منها .

وكانت مديريه خط الاسواء في مجموعها واديا مستظلا مخصبا تنتشر

(١) انظر الجزء الثانى من رحلات جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠١

في أرحائه سهول مخملية بالزرع ومراع ناضرة . وكان إقليم فانبكو في بلاد لشولى يسمى « جة الساتين » لامتلائه بالنبات والزهرة والفاكهة والعطر من كل لون .

وقد ساعد احلاء مديرية حظ الاستواء . وتجنبد الحاميات السودانية لمح الراية البريطانية نغر مسوغ . انجلترا أولا على احلال أوغندة القديمة لتي كانت مساحتها لا تزيد على ٥٥,٠٠٠ كيلو متر مربع في حوض بحيرة فكتوريا بين سواحلها الشمالية والشمالية الغربية وثانيا على ضم الأنشورو ومديرية خط الاستواء نفسها الى أوغندة .

وقد سبب مساحة أوغندة الجديدة في سنة ١٩٠٠ بعد أن تكونت والتمت على حساب مصر وشقوة مصر حوالى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر (أى سبه أضعاف مساحتها الأولى) وامتدت حدودها الشمالية لغاية عوبدوكورو في جنوب لادو . لتي كانت لغاية سنة ١٩١٤ تكون الحد الجنوبي الأقصى للسودان الذى أخذ في النقص والاضاى . وعدا ذلك تارلت انجلترا لىكونعو اللجكى عن أراض واسعة كانت تؤلف من قبل جزءا من مديرية حظ الاسواء على الضفة الغربية للسيل كما تنازلت له عن ساحل بحيرة ألبرت فياثزا الغربى .

وكانت انجلترا مسوقة الى التعجل باحلال مديرية حظ الاسواء وأوغندة لتسقى فرائسا وألماب اليهما من ناحية — لأن بعثات هابن الدولين التبشيرية والكاثوليكية لمقمة في البلدين كانت تعمل على ترشح كفة نفودهم — ولتحول من ناحية أخرى دون توطد النفوذ العربى فيهما . كتب فوتيرز المؤلف اللجكى : « ان المدينة العربية قد تمكنت في أقل من عشرين سنة من تغيير اللباس القومى تغييرا كاملا . ولم يكن ذلك اللباس في اباد ريارة اسبيك شيئا مذكورا . واليوم أصبح الأوغندا (السكان) يلبسون لبوسهم من الرأس الى القدم ، وكذلك الأنشورو .

وقد حلت تدريجاً الملابس العربية مكان « اللباس » القديم المصنوع من
لحاء الشجر . وترى فقراءهم يلبسون القميص والحرام والقمطان على
أجسادهم والطربوش على رؤوسهم .

« وعقب موت اميرا . في سنة ١٨٨٥ . حمله ابنه موانجا . وما كاد
يسلم مقاليد الحكم حتى حاف على استقلال بلاده وبقاء سلطانه من تقدم
الأوربيين على بحيرة فكتوريا (١) » .

(١) A. I. Wauters Stanley, Au Secours d'Emun Pacha. Paris 1890

جاء في مذكرات امين باشا ، لسنة ١٨٧٦ ، ما يأتى : « قبل ان يجد
العرب طريقهم الى اوغندة والانيورو - بصرف النظر عن منشأة عربية
عديمة في كاراجوا - كانت تجارة هذه البلاد محصورة في سادل المواد
الضرورية جدا للحياة وكانت قيمة الصائع المعروضة للبيع سوقي على
هوى الساع وغلى حاجه المستور وفدريه . ولم يكن للعود او ما يعادلها
وجود ما . ولكن منذ اللحظة التى دخل فيها اول العرب موسى مزورى
كدا واحمد بن ابراهيم اوعده ساء على دعوة سونا والد اميرا تعير
الاحوال . وقد سهل افراح طريق ربحار - ربحه خمسة اشهر في ذلك
الزمن - اسطر العرب في البلاد ووجود وكلاء لهم في كاراجوا واوسامبيري
وفيما بعد على البحيرة على بصير الاسعار في اسواق البلاد . وكانت ترد
من ربحار مقادير كبيرة من الصائع وخصوصا المصوغات والمسوحات
من كل نوع من الاقمشة والاسلحة والدخيرة والسحاس وتجد رواجاً عند
قوم يهيم في املاك ملاس ابفه وحلى واسلحه . وقد احسن الناس
بالحاجة في نفس الوقت الى عمله متداوله فوجدت العملة المسماة « كاورى »
لاشباع هذه الحاجة .

« ويرجع الى العرب الفضل في ايجاد هذه العملة بين الزنوج وقد
تعلم الواحدة سرها كيف سعملوها . وكانت سظم الكاورى او المحار
في حبوط بالمئات . تعادل كل خمسة حبوط مهاريالا . والعرب هم الذين
قرروا هذه القيمة اساسا للتعامل . فكانت المعزة تساوى من ١٢٠٠ الى
١٥٠٠ محارة ، وربطة الملح فى الانيورو ١٠٠٠ والثور من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠
وهلم جرا . وكانت الحبوط مقسمة انصافا فى كل خيط خمسون محارة وكان
أقل حسط يشمل على ٥ محارات لشراء الحاجيات الرخصه . وقد اعتمد
الناس هذه العملة التى كانت تخرى بواسطتها - الا فى احوال المقايضة
النادرة - جميع المعاملات التجارية .

« وقد حاول امتيزا زمنا طويلا احتكار تجارة الاسلحة فاجتهد في
منع العرب من دخول الانيورو ولم يتمكن الا حديثا - من حوالى خمس =

وكان العرب يقدون من زنجبار وموقباسة على الساحل الى أوغندة
بموافقهم . ولكن كان الأوربيون لا يرون فيهم الا بحاسين يحك القضاء
عليهم مدفوعين الى ذلك في الواقع بعوامل سياسية بحتة .

= سنوات فقط = الساحران الهامان العربي سعيد بن صفي والعبدى
حسن من الوصول الى عاصمة الأنبيرو ، من كاراتوا ، وهناك أحسنت
وفادتهما وبحارهما من النظام السائد في الحصول على معذار كبير من
الس . ومجرد انشار بحارة زنجبار في الأنبيرو حري استعمال الكاوري
(المحار) كعملة فيها للتداول . على ان اقلية شعب الأنبيرو ظلت
منتمكة نظام البدل البحارى . ومهما كان من الامر فان من دلائل الروح
البحارية الشطية عند العرب انهم اوعلوا في البلاد الى هذا الحد بينما
احطاب ادارة عردون باشا في مديريات حط الاستواء المصري في عدم بدل
اقصى الجهد لفتح هذه الاقطار لتجارتنا .
«ويذهب الواجندة بأنفسهم الى زنجبار مرسلين من ملكهم .
ويستبدلون بالعاج الاسلحة والدخيرة .

«وكانت غزوات امتيزا وكاباريجا المستمرة في ميل الحصول على
الماشية والس وغيرهما بهدف في نفس الوقت الى احدث الاماء وكانت مساب
الفاهوما تلعب في الرقيق نفس الدور الذي تلعبه فتيات الاحباش .
«على ان السن لا يزال اهم صادرات الممالك الاستوائية . وقد كانت
لاجراءات الحكومة المصرية الحرفاء (احكار الس) سببا في ان كل هذا
السن ، بدلا من ان يذهب الى منفذه الطبيعي صوب الشمال صار يتجه
نحو الجنوب .

«وقد اشرب البحارة ونشط في البلاد الواقعة بين البحيرات وادب
العلاقات الناشئة بين القائل المحتلعه بعضها وبعض وبينها وبين البحار
العرب الى جهود صادقة بهدف الى فتح طرق بحارية جديدة وحلق
حوائج وطلبات جديدة واحاسها . وقد طلب الاراضي المصرية في الشمال ،
من هذه الساحة ، مأخرة جدا . ولم يحدث اى تقدم بسبب نظام الحدود
المراقبه المعوس والاحكار البحارى اللذين يجد فيهما الحكومة الى اليوم
الوسيلة الوحيدة لمسح السطو على العبد وبهريهم للمناصرة . وكانت
نتيجة هذه السياسة تعطيل كل تقدم طبيعي في ممالك دور ان يكون لها
ان حاسم في القضاء على تجارة الرقيق .

«ليس من الافضل اذن ان نحلص من النظام الخيالي العسق
والمادى الانسانية المشطه وان نوحده في هذه البلاد المستحقة ادارة تطامها
وتناسها لترقية مواردها واحاة مطالها وحاحاتها ؟» .

(انظر مذكرات امين باشا في سنة ١٨٧٦ صفحات ١١٢ - ١١٨ و ١٢٣)

من كتاب Emin Pasha In Central Africa. Annotated by Prof. G. Schweinfurth, Prof. Ratzel, C. Felkin and C. Hartlaub. London, 1881

كان امتيزا في أواخر سني حكمه منح العرب حرية التسوطن في
ملكته لا كتجار فحسب بل كسائده دينيين . وقد اعتنى أحوه أموحا
الاسلام .

وكان انجلترا تفكر في ذلك الوقت في تمبذ مشروع سنة ١٨٧٥
المصري الخاص بيجاد مواصلات بين الساحل ومناخ النيل ونشر نفودها
في هذه الأرحاء .

كان عردون ، اذ كان حاكما لخط الاستواء ، يرى أن أخصب
مناطق البحيرات تمتد جنوب عويدوكورو وأن لأراضى في شمال
عويدوكورو لغاية الخرطوم معطاه بمنعمات غير صحبه وأنها لسبب
طمسها لا رحة فها . فكان المقذ الطسمى لمناطق البحيرات التي تربطها
بالشمال خطوط مواصلات صعه وصوله هو من ناحية الشرق صوب
المحيط الهندي .

ولا شك أن انجلترا بضمها الى أوغندة الأراضى الواقعة جنوب
عويدوكورو صمنت لنفسها امتلاك الهصاب والوديان الحصه أى أهم
قسم في السودان الجنوبي . ولم تكتف انجلترا باقتطاع أكبر حصه لها
بل انها سارت لتكويه عن بلاد مكراكا وبام نام الغنه في عرب النيل
على حساب مصر معة نفس السياسة الى جرن عليها اراء المستلكت
المصرية في البحر الاحمر وبلاد السومال .

وقد كان مشروع وصل الساحل ببحيرة فكتوريا بالسكة الحديد
موضوع دراسات طويله مد سه ١٨٨٥ . وتم تأسيس شركه أفريقيا
الشرقيه الانجليزية برياسه وليام ماكيون ومنحت الامتيازات اللارمة .
فكانت أراضى الساحل التابعة لزنجبار ومديرية خط الاستواء القواعد
الأولية الى نصالح أن تكون أساسا للإمبراطوريه الانجليزية الجديدة

في أواسط أفريقيا . ومن هنا كان لابد من « إخلاء » المديرية الاستوائية والعمل على « إفقاد » أمين باشا (الدكتور اشينزر) حاكم المديرية .

كان غردون عين أمينا . في سنة ١٨٧٨ . حاكما عاما للمديرية . وهو يهودي ألماني يزاول الطب والعلوم الساتة . وكان أشد العناصر اعتدالا في الحكومة الأوروبية المحتلطة التي استتارت السودان^(١) . وكان حسي بشا الطلاني ولي غردون الخيم أشدها تطرفا . ولا تزال حروب الشعواء في سنة ١٨٧٩ وقتله سليمان بن الزبير ماثلة في الأذهان . وقد استحضر حيسي في أواخر هذه السنة عينها إلى السودان . انطلقا بحر . كاراني . الذي خل مع أمين منذ انداء الثورة لغاية محي . اسابلي سنة ١٨٨٩ . وبلاحظ أن كباب حيسي وكاراني نصح بكمراهية العرب . وقد أرسل كاراني . في أواخر أغسطس سنة ١٨٨٣ . إلى حريده المكنشف *Esploratore* بميلان كسابا يصف فيه أحوال السود في لممتلكات المصرية . جاء فيه :

« يجب أن يفصل تماما البلاد السوداء (بلاد الروج) من البلاد العربية أو التي يهمن عليها العرب . وأن نجتمع تحت إدارة مسقطة مرحدة أراضي بحر الغزال ومديرية حط الاستواء وأن نوجد بهذه الطريقة حدودا سليمة ترسمها الطبيعة نفسها ، وأن نثبت للروج . الذين هم في ريب مما نقول ، أن الحكومة مهتمة بأمرهم .

« أن العرب المتفرقين في البلاد ، بدون مأوى وبدون أي اندماج مع العنصر المحلي ليسوا إلا لصوصا أو شحاذين . فيحتم ارجاعهم جميعا إلى بلادهم الأصلية وقطع كل أمل عندهم في العودة . ومتى تمت عملية التطهير هذه — لأن العربي دائما خطر وكثيرا ما يكون أداة تدمير وافناء — وجدت المنطقة الجديدة في الحال تقطة توازنها واستقامت

The Revolt against Europeanized Egyptian Rule which broke out in (١) 1881-83 (Harry Johnston, Africa, p. 653).

أمورها : ان حكومة السودان قائمة على العنصر العربي الذي فصل بينه وبين العنصر الوطني اختلاف اللغة والجنس والمول والعادات » .

لم ير حبسى وصمغته كإرائى فى العرب أى الموبين أو الدناقلة الا لصوص أو قطاع طريق وقد حبر جونكر صديق حبسى أحوال بلاد السودان الجنوبية ودرسها من كتب . قال فى أثناء رحله الثانية بعد

(١) Casati. Dix Années En Equatorie

من الفريب أنه فى نفس السنة (مارس سنة ١٨٨٢) أبدى أمين باشا نفس الآراء فى صورته محبته قال : « من السحب المفكر فى العاء تحاره الرقى فى السودان ناساء مصلحه حاصه بذلك فى الخرطوم وفروع لها . » وقد كان اسماعيل يريد باخلاص تحقيق هذه الفكرة الانسانية فى قلب افريقيا ، ولكن الوسيله الوحيدة ، فى اعقاده ، للساح هى صم اعطار الربوح فى اتحاد واحد - بحر العراى ومديريات خط الاسواء - وفصلها فصلا تاما عن اجزاء السودان العربية . ويجب ان يعين لها بعد

ذلك حاكم أوروبى كفاء . Emin Pasha In Central Africa. p. 425.

وقد كان حبسى يعمل على تحقيق ذلك الهدف فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ فى مديريات السودان الحوسه (بحر العراى ، دارفور ، كردفان) كتب حبسى فى مجلة Exploratore الإيطالية ، بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، ممانسة نشر البعنه الايطالية النشيره (الدكتور ولكن والدكتور ولسن) وعودتها من أوغندة : « أن الوسيله الوحيدة لتنصير هذه الممالك ، فى اعقاده ، هى الاستعمار على نطاق واسع . اد بهذه الطريقه يمكن التغلب على الاسلام وكسر شوكته » .

واقترح أمين بعد ذلك مد خطوط حديد دولية داخل افريقيا برؤوس اموان أوروبية كوسيلة مؤكدة للتوغل والسيطرة : « وعندئذ فقط تصيب دين محمد الصربه العاصيه » .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩ كتب حبسى : « انى اوعب فى الذهب الى الخرطوم ولكنى لى استطع ذلك فل طرد جميع العرب واحراجهم من هذه الديار » .

وفى سنة ١٨٨٠ كان حبسى يقول : « انهم (العرب) يتهموننى باشى اعمل على اقضاء العنصر العربى ونشر فكرة التحرر ، وتوظيف الوطنيين فى الإدارة ، والقيام باستعدادات حربيه كبيره ، ومساعدة هذه المناطق

على تحقيق استقلالها يوما ما » (Seven Years In The Soudan by Romolo Gessi Pasha, London, 1892)

والواقع ان حبسى كان يعمل بسياسه الحرقاء على نشر عوامل القمه والحرب فى السودان الجنوبى وفصله عن مصر . وحسبنا أن يذكر =

تركه دم سليمان « الذي تعد أهم المنشآت العربية في بلاد الزنوج »
لزبارة الأمير اندورومة الرنجي Andorouma : « بعد انتصار جيسى على
سليمان ظهر رعاء وأمراء مملكة بنام نيام العيدون روح المودة في كل
مكان وكانوا يرسدون طوعا واختارا الرسل والعاج الى الحاكم الجديد ،
بل كانوا يحضرون بأشخاصهم في المحطات لاعلان حسن استعدادهم .
ولكن هذا العمل من جانب الحكام الذين حرروهم جيسى من ربطة ظالمهم
(العرب) قد حمل جيسى على كثرة الاعتداد بالنفس والقيام بأعمال لا تنم
عن صدق النظر وخصوصا اخلاء سبيل الجنود الزنوج الكثيرين الذين

تتبعهم بأن « يدمر بحارة الرقيق » كان يكلف مديريه الحرطوم سويلا
خسارة لا تقل عن ٢,٨٠٠,٠٠٠ ريال . وطبعاً كان ذلك التدمير يشمل
الحجارة كلها بصفة عامة لأن الحروب وأحراء الصف وصروب المصايغ
والمصادرات والنطش كانت تشمل الحركة التجارية وتسبب الاسباب
والقوضى .

وقد كان غردون لا يجهل أن الماء بحارة الرقيق معناه القضاء في الوقت
نفسه على التجارة المشروعة وكل تجارته . وقد كان سلطان رنجار ، في
أبريل سنة ١٨٧٦ ، ساء على الحاج الدكتور كيرك فحصل انطرا ، حرم
في جميع البلاد الواقعة تحت سيادته ، بحارة الرقيق التي كان يراولها
القوافل الآتية من أواسط أفريقيا الى الساحل . فلما علم ذلك غردون
صرح بأن التجارة المشروعة سببها عليها أيضاً إذ كان من المستحيل
الفصل بينها وبين تجارة الرقيق ، ولذلك اتجه بفكره وفند إلى أحداث
بحارة الحيرات إلى مديريه حظ الاسواء والحرطوم وذلك بمصر سياسته
الاحتكار على الحاج المحصل في الأراضي المصرية أما عاج البلاد الأخرى
فيكفي عرض صريه عليه بغير رسوم الدخول وبكليف النقل ، ولكن
احتكار الحاج . ولو بصفة حثيثة محدودة . لم يكن من شأنه يسيّر تعدد
الفكره الحديده وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى المرتبطة بسياسه
غردون العامه في الاقاليم الاسوانيه وإذا كانت التجارة المشروعة قد احسب
في المناطق المصرية من جراء سياسته غردون فمن الصعب اجتذاب تجارة
البلاد الأخرى المشروعة إلى هذه المناطق لأن العوامل التي أدت إلى شل
هذه التجارة واحدة في البلادين . وفي أوائل يناير سنة ١٨٧٦ صرح
الحديوي اسماعيل للمالي الإنجليزي كيف Cave أن صادرات السودان
نقص ثلثها بسبب اختفاء التجارة المشروعة « التي كانت تصدر جنوبا
لجنب مع تجارة الرقيق » .

كانوا في خدمة سليمان والعرب . وقد صرح لي في ذلك الوقت مرارا عن وثوقه بعدم الحاجة الى تسليحات كبيرة مطلقا في مديريته (بحر الغزال) بعد انتهائه قدر المستطاع من طرد العصر العربي . وكان يؤكد أن الرنوج لن يحولوا عن افطار ولائهم وانهم عند الحاجة يقبلون الخدمة العسكرية . . . على أن جيسى لم يكتف بتسريح العبيد الذين انضموا به والذين كانوا من قبل خدم التوسين بل سرح أيضا طائفة من الشبان العبد الذين خدموا في الحرب ورغبوا في العودة الى منازلتهم . بل لقد ذهب الى أبعاد من ذلك وأذن للكثيرين من أولئك بالاحتفاظ بأسلحتهم . وقد انتهز أغلب الجنود المرحلين الفرصة لا للعودة الى منازلتهم بل للعبث والانصواء تحت راية بعض صفار الزعماء لأغراض غير مشروعة . وقد أمكني حديثا أن أشاهد بعضي في داخله البلاد أمثله كثيرة من سجع أولئك الوطنيين المرحلين وتغاديبهم في غيهم .

وعلى أنه حال قد تمكن جيسى مؤفيا من اكتساب صداقة الرنوج وحكامهم . وقد سلم جزءا من الأسلحة التي أخذت من سليمان الى الكثيرين من كبار زعماء قبائل الرانده مثل رعيو وسارا واندورومة وآخرين . وكان يرمى بذلك الى تقويتهم ضد منافسيهم ومساعدتهم على احتضار القبائل العاصية والقيام بغارات مسلحة لانتهاك العاج وتقديمه للحكومة في محطات بحر الغزال . وبما حله كانت خطته ترمى الى الاقلال الى أقصى حد من إحلال التي كانت تنظم من قبل في هذه المحطات وترسل بقيادة التوسين لأعمال الهب في الأراضي الجنوبية . وقد أوصى جيسى زعماء زنوج الدين مسلحتهم لجلب العاج أن يتجنبوا اقتناص العبيد في عزواتهم . على أن الكثيرين من قواد الزرائب القدماء وهم عرب من أيدم سليمان أو أبيه الزبير ، كانوا يتوقعون هزيمة سليمان فظلوا على الحياد وقد سمح لهم أن يسقوا كمديرين في مراكزهم في المناطق العربية البعيدة : من أولئك رافاي Rafai وعبد الله وعلى كوبو وآخرون . وقد كان

ذلك دليلا على أنه ليس في استطاعة حبسى ولا أى حاكم آخر أن
يستغنى عن العرب والعناصر الإسلامية في إدارة بلاد الرنوج .

« ولاشك أن تريح القروى السوداء ورفق التراجمة وخصوصا
اعطاء الأسلحة لأهل رعماء الدنكا شأننا كان أمرا سابقا لأوانه ولا مسوع
له . واني لن أذهب الى حد القول أن ثورة الدنكا الجائحه التي حدثت
فيما بعد في عهد ليبون بك كانت ولده هذه السياسة الخاطئه . ولكن
نما لاريب فيه أن نحاح الدنكا قد سهله ذلك الامتار (١) . واني أعلن
هنا انى لا أسم عمدا حبسى الأساسى لقائل بأن العرب هم الدين
أوجدوا بحره الرقبى كلها واهم أكبر مروجها .

« ولما كان حبسى يريد الغاء هذه البحاره في مديريه كان من
اخطاره — وهذا أقل ما يقال — منح الحكام الوطنيين من أصحاب
الخطوه والجاه حق تنظيم حملات بعده كات في الواقع — بسبب عدم
وجود القيود المناسبة — غارات نهب وسلب . وقد رافق تنفى فيما
بعد بعض هذه التجريدات ولذلك في استطاعتى أن أشهد وأقرر أن
جميع الزنوج ، في استعمال السلطة الموكولة اليهم ، أشد استهبارا من
العرب السودانين الذين لا ينتمون الى « طبقة » عالية ... وهم أشد
قسوة منهم ولا يعرفون الا قانون القوة (٢) » .

ظاهر مما تقدم أن العصر الأسود أو المحبى قد اضع بطابع العصر
العربى واندمج فيه في السودان الثمانى وفي دارفور وكردفان وفي عمليه
« الاندماح » كانت نير سيرا حشا من الليل الأبيض نحو بحر الغزال

(١) قبائل الدنكا والشيبوك تعيش حول البحر الأبيض ومنها كانت
سألف معظم القروى السودانيه في الحيس المصرى . وكانت مساحه أراضي
الدنكا — وهم رنوج وسبون — تبلغ ٦٠,٠٠٠ ميل مربع . وقد تاربت
الدنكا سنة ١٨٨٢ وتمكن ليبون من احمادها جزئيا .
(٢) القطر بحر وصنعها اشاراة الى الصوص المحدوفه . انظر
الطبعة الانجليزية من رحلات جونكر . الجزء الثانى (٩٧ - ١٠٠) .

والبحيرات وكان خبر العاصر العربية تنزل جنوبا نحو ممالك البحيرات مع الراية المصرية أو تأتي من الشرق ، من رنجبار والساحل . باسم التجارة . وكانت محاربة تجارة الرقيق من ناحية وسياسة التبشير والاستعمار هما سلاح أوروبا الوحيد لمحاربة النفوذ العربي الاسلامي في أفريقيا .

وكان كاراقي كعيره يحشى أن يتم مع الرمن اندماج عناصر الرنوح المنتشرة في الممالك الاستوائية في العصر العربي . لذلك كان يقترح ارسال بعثات مسيحية في مديريات الجنوب . وقد نجحت انجترا باحتلالها أوغنده من القضاء على النفوذ العربي وتشريده حول البحيرات وباحتلالها السودان من التضييق على الحضارة العربية المستأصلة في السودان الشمالى . وقد بدأت منذ سنوات تعمل على تحقيق فكرة أمين وكاراقي وجيسى بفصل جنوب السودان عن شماله وتنظيم التبشير بين روجه .

ويجب أن يلاحظ أن أمين وكاراقي كانا يتقدمان سياسة محاربة الرقيق التي اتبعها غردون . ولكن كاراقي لم يحاهر برأيه الا في سنة ١٨٨٣ . أى بعد قيام الثورة — هذه الثورة التي كان غردون يقول انه باض البيضة التي خرجت منها — قال كاراقي : « ان غردون ترك السودان في حالة اضطراب سياسى تتصارب فيه مصالح مسايئة يهدد كانه . وقد أهرق الدماء عشا ، وأدت الوسائل المظرفة الى تسميم الجو وتهيته لظهور المهدي ودعوته » .

وقد كان خطر المهدي الراحنة يهدد مديرية خط الاستواء بعد ما تحولت القوة الروحية الى قوة مادية في عدة وعديد . وكان أمين ضعيف الخلق مذبذب الراى كثير التردد لا يفكر الا في النجاة بنفسه مع الأوربيين من طريق البحيرات الجنوبي ولو ساقه ذلك الى التضحية برجاله .

وبلغ استهتار أمين بأرواح جنوده وأعوانه من السودانيين والمصريين ،
وبالنسبة لمصالح مصر ، أنه نص في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ - في ذلك
اليوم المنحوس على حد تعبير كاراني - بكلمة لم تنس قط وكان لها
آثرها في الحوادث الانقلابية التي ظهرت في مدونه حظ الاستواء ،
قال : « ان السخط لا خوف عليهم . والى ضميرهم بذلك . أما الجنود
السود فاني سأتركهم الى صديقهم الخيم كاتاريجا . ملك الأونيورو .
وسياذن لنا بالمرور من أرضه » .

من ذلك اليوم فقد أمين كل سلطان على جنوده الذين أصبحوا
يجدون خلاصهم الوحيد في قوة السلاح فوضعوا السلاح في قصه يدهم .
وقد بدأوا بإحلاء المراكز الشمالية رومك وأناك وبنوي . ومراكز
موبوتو والشرق بما أخذوا في تحصين أمادي ولادو وتركز القيادة
في دوفيلة على بعد ١٠٠ ميل من بحيرة البيرت .

وقد شاع . في أواخر سنة ١٨٨٤ . أن قوات كبيرة يقودها كرم الله
تخصيا كانت تقصد أمادي التي تبعد خمسة أيام من لادو . وفعلا . في
شهر مارس سنة ١٨٨٥ . بعد حصار منظم . اضطرب الحامية نظرا
لانقطاع كل مورد عنها وصعوبة المقاومة ضد هواب العدو الهائلة ،
الى شق طريقها في صفوف العدو والانسحاب الى مكراكا . وقد أثنى
المهديون فيهم القتل وكانت محررة شملت النساء والأطفال . وكان حاكم
المدينة مرجان الدناصوري بين القتلى .

كسب أمين بهذه المناسبة الى البشر فنكر : « من أولئك الجنود
زمننا طويلا لا يتقاضون مرتباتهم ولا يجدون أهم الضرورات ومع ذلك
فانهم قاتلوا قتال الشجعان حتى اذا نال منهم الجوع وأنهكت قواهم
لآلام وصروب الحرمان طوال تسعة عشر يوما وأكلوا آخر قطعة من

الخلد وآخر حذاء فتحوا ثغرة في خطوط العدو ونجوا بأنفسهم (١) .
وقد طلب كرم الله الى حاكم لادو التسليم قبل أن يتحرك الى المدينة .
فما كان من أمين الا أن أسرع نحو الجنوب فوصل في يونيو (٨٥)
دوفلة وفي يولية وادلاي . وكان هذا الهرب سببا في فقدان كل ثقة
في أمين وعدم التعويل عليه . وقد قرأى الحدود وضباطهم على الدفاع
عن لادو ولكن كرم الله وعصابه عادوا أدراجهم من طريق كردفان
وزال الخطر مؤقتا عن مراكز أعالي النيل .

وكان جيش المديرية في ذلك الوقت يبلغ حوالى ١٥٠٠ رجل كلهم
من الجنود السود ما خلا الجنود المصريين القائمين بالمدفعية .
وكانت القواب مورعة في عشره مراكز يولى قاداتها عشرة ضابط
من المصريين وخمسة عشر من السودانين .

وكان في النيل سفينان بحاريان « ساسا » و « لخدوي » تساعدان
على الدفاع وتكفلان المواصلات بين المراكز المختلفة .

كتب كاراني يقول : « اذا كان الموقف لا يرال سليما واذا كان
الشرف لم يمس . واذا كانت مديرية خط الاستواء في مأمن اليوم من
فظائع تشد هولاء فان الفصل في ذلك يرجع الى عزة النفس الفريزية
عند سودانس التي تحمهم على الدفاع عن رايه أحسنه للكثيرين منهم
حلموا عين الولاء ها » .

وسرى كيف يدافعون عن هذه الراية الى لم تكن أجنبية لأحد
رعا من جميع المحس .

في أواخر فبراير سنة ١٨٨٦ وصل كتب من نوبار يدعو فيه الى
احلاء مديرية خط الاستواء والعودة الى مصر من طريق رنجبار . وقد

١١ أسسهد به فويرر في كتابه Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha

أعلن رئيس الوزارة المصرية أن الحكومة قد حلت نهائياً عن ممتلكاتها في السودان منذ آخر مايو سنة ١٨٨٥ . ووصلت في الوقت نفسه رسالة من جون كرك ، قنصل إنجلترا في زنجبار ، يبين فيها سبل ووسائل العودة . فقرر أمين إرسال كازاني (مايو ٨٦) إلى صديقه كاناريجا لتكفل حرية المرور من الأيورو ، ولكن لسودانيين تجمعوا أمرهم على البقاء .

وبما كان كازاني يعاني كل عنت عند كاناريجا لدى الماء في السجن استولى الصايط السودانيون والمصريون في سنتي ٨٦ و ٨٧ على سلطات الحاكم العام واستقر رأيهم على الاحتفاظ بالمديرية .

٢ - مهمة استانلي والثورة في مبرية خط الاستواء

عرفت إنجلترا أن مساعيها لم تفلح في لعب على تردد أمين وحمل رحاله على العودة ففكرت في وسائل أخرى لتخضع أعراضها .

كان الرحالة الروسي الألماني جونسون وصل في هذه الآونة (٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦) زنجبار قادماً من داخل أفريقيا . فأنصل به جون كرك وأوعز إليه أن يرسل ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ، برقية إلى أوروبا . يندى فيها بصروره التحيل بأرسال حملة في الحال لإفاد أمين باشا .

وكان الدنيا في ذلك الوقت هيبس على قسم من الساحل تمهدا للوغل في أفريقيا وتمديد ساستها الاستعمارية ، وكانت تفكر بالطبع في الاستيلاء على مديرية خط الاستواء التي كان يحكمها الألماني . ولكن إنجلترا بالطبع كانت أسبق إلى « انقاذ » أمين .

ومن الغريب أن الدكتور فيلكن نشر في التيمس (٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦) مقالا ذكر فيه صورة خطب وصله من أمين مؤرخ في ٧ يولة . جاء فيه : « يسعدني أن يكون في استطاعتي الاغلك اسي في أمن وطمأنينة وان المديرية كلها هادئة » .

ثم يقول أمين « في هذه اللحظة التي تتنافس الدول الأوروبية فيها على صان مملكات لها في أفريقيا . أحقا أنه لا يوجد الآن في إنجلترا شخص يفهم بدكائه أية سهولة يمكن التوصل . بدون اتفاق درهم واحد . الاستيلاء على مديرية بحاها (١) ؟ » .

روى شاييه لويج الأمريكي أنه في الساعة التي قرأ فيها اساتني هذه السطور كان يحاضر في الولايات المتحدة فيادر يتنقض العقد وأبحر في الحبل ساء على طاب ماكسون رئيس شركة أفريقيا الشرقية التي اكتتب ببلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه للحملة . وأعجب من ذلك أرغمت مصر على الاكتتاب . على دفع ٢٠,٠٠٠ جنيه وعلى إعطاء اساتني فرقة من الجنود اسودائه . وكلف حور كرك في الوقت نفسه بجنيد تصع مناب من الجنود والجمالين . وفر الرأي على صريق الكونغو الذي كان اكتشفه اساتني سنة ١٨٧٨ .

في يناير ٨٧ عادت الحملة لندره ومرت بالقاهرة في طريقها الى زنجبار حيث تكونت بها ثلثا من ٧٠٩ رهط مقيمة الى سبع فرق : ٩ أوربيين و ٦٣ سوداني و ١٤ سوماتي و ٦٢٣ زنجباري . وكان يرافق الحملة العربي الشهير (تيلو - سب) ومعه ٩٠ رهط من الجسين . فيكون المجموع حوالي ٨٠٠ نفس (٢) .

وفي ٢٤ فبراير تحركت السفينة من زنجبار ومرت بالكاب (رأس الرحاء) في ٩ مارس ، وألقت مراسيها في خليج بنانا عند مصب الكونغو في ١٨ منه .

وفي يناير سنة ٨٨ تقدم اساتني وبعض أعوانه تاركا الحملة الرئيسية وراءه وخف مسرعا الى جنوب بحيرة ألبرت ونزل في معسكر كافالي .

(١) استشهد به شاييه لويج في كتابه L'Egypte Et Ses Provinces Perdues

(٢) تيلو - سب واسمه الحقيقي حامد بن محمد وهو زنجباري من كبار بحار العرب في أواسط أفريقيا وكان عظيم الدهاء قوى النفوذ استعان به البلجيكيون في توطيد قدمهم في الكونغو ثم حاولوا القدر به .

وفي ٣٠ أبريل التقى مع أمين وكاراتي في الجنوب الغربي من البحيرة وأثار مسألة العودة : أريد أمين اطاعة أوامر الحديوي ووريره تونار باشا ؟ ولكن أمين لم يجد بدا من استشارة الموطعين والجنود في مسألة بهذه الخطورة . فقرر استائلي أن يصطحب أحد ضابطه (جفسون) أميناً في رحلته الاستشارية .

وقد استعمل استائلي كل وسائل الاقناع مع أمين لبحار الى حصته التي وصفها كاراتي وصف شاهد عيان « بينما كان عرض تأجيل العودة الى حين الانتهاء من حشد جميع قواته المنفرقة كان استائلي يغذي آمال الحاكم وأمانيه . فبعد أن استند كل بيانه في الدليل على استحالة مقاومته المهدية التي تزداد وطئها مع الزمن عرض عليه يوماً أن يشبه في لراويه الشمالية الشرقية من بحيره فكتوريا بانزا حتى تمكن شركة أفريقيب الشرقية الانجليزية من الاسماع بتجاربه في انشاء مراكز (محطات) على التوالي في طريق موباسا » .

وكان بديهياً أن يفكر استائلي في الوقت نفسه في احتياط جنود أمين .

ومن الآن فصاعداً أحدث اليرب بانرا تلعف دوراً في الحوادث المتعلقة عديريه خط الاسواء . وعلى صفاقها سيم الحشد الذي يسبق الرحيل الى زنجبار .

غادر استائلي البحيرة في مايو ٨٨ ولم يرجع الا في يناير من السنة التالية (٨٩) . وقد كانت في حلال هذه الأشهر الثمانية مديريه خط الاستواء ميداناً لحوادث خطيرة غير منتطرة .

ذكر كاراتي ^(١) وجفسون ^(٢) بالتفصيل تاريخ هذه الأيام

(١) Casati, Dix Années En Equatoria

(٢) Jephson, Emin Pasha And The Rebellion At The Equator

الحافلة . وبحسب حصون ان أعلية أولئك السودانيين (لعله يقصد
الخنود) جندوا من فائل الدنكا ومادى وبورى والشقالى ونيام نيام
وبونجو ومكراكا ومونبوتو . فهم وعشيرتهم وذووهم لا يحسون أنهم
غرباء فى هذا البلد الذى يستطيعون العيش فيه لأنه يشبه بلادهم
الى حد كبير ويذكرهم بعمر دارهم .

وكان هذا السواد — أو شعب خط الاستواء كما يسمونه فى
البحر — يكلم باحترام عن أفندينا : « قيل لهم انه سلطانهم وان العلم
الذى كان يظن لهم ان يروه حقا فى كل مناسبة هو عليه » .

وكان لمخضات (النقط العسكرية) فى أحسن ترتيب . كانت مراكز
نظام وحضاره . فان دوقلة مثلا كان بها جامع ومدارس وحدائق
عمومية . وكان من المسور الاعجاب بمظر النهر من طريق يطل سماء
من حاشيه شجر دواح . وكان الجامع والمدارس مشيده بالآجر الجبل .
وكان يهوى بامر الجامع والمدارس شيخ مرسل من القاهرة يعلم أبناء
الموظفين القراءه وكتابة . وكان رجل القانون فى المدينة ومرشدها
الروحانى .

ظاهر مما تفده ان النظام الذى أنشأه المصريون — وأعاهم
السودانيون فيه — فى قلب مديرية خط الاستواء الواسعة قد وشجت
عروقه فى نص الأرض وأن أربابه من رنوح وسودانيين ومصريين لم يكن
من السهل عليهم أن يتخلوا عنه . وظاهر أنهم كانوا فى ريب من نيات
أمين واسابى والآنجليز من ورائهما . روى كارانى : « أنهم يرددون فى
كل مكان . فى نونجورو وغيرها . ان الطريق وعر (طريق العودة) . مخوف
بالمكاره للأفصال . لا راد فيه ولا طعام . وانهم لا يعد أن يباعوا بيع
السوام للآنجليز الذى هم صديق صدق لأمين .

وهذه الأقوال تنشر من محطة الى أخرى ويلقى عليها ...

والآن ترك كازاتى يقص قصته (أغسطس - أكتوبر سنة ٨٨)
مجتريين بشر أهم الوقائع :

« ما كاد أمين يرحل حتى جمع قومندان بونجورو المدعو سليمان أعا
- وهو نوى من عبيد البقارة - جنوده وجمع موظفيه المدنيين وأحد
يحشهم على المقاومة .. »

« وقد أرسل الكس تلو الكس الى مواصه فصل المولى قومندان
فاتيكو ليساعده بقوة في سيل انقاذ المديرية من الحراب الذى يحرقه
اشا (أمين) وان يرغم الحركة في محطات الشمال على أن يكمل هو
بونجورو وامصوا وه ادلاى . وقد كان لملك الاقتراحات صدى بين
المتذمرين وبدأت الحركة والاتصالات بين الشمال والجنوب . »

« وقد أصدر أمين أمره بشحن جمع الدخائر الموحودة في اعمار الى
دوفلة فعارض الجنود ووجدوا حمة من المنفل لأنهم سيوا أنهم
أصبحوا غير أحرار في أنفسهم وان رفضهم الادعاء للأوامر معناه تركهم
هم وأسرهم تحت رحمة السكان المحليين والعدو الخارجى . »

« أما خطاب سائلى والحقق الذى يقوم به حصون فسادها في نظريهم
الا خدعة رائقة ... فلم يكن بد من التفكير في الدفاع عن أنفسهم
ودره الخيانة . »

« واضطعت الأخبار عن رخاب وبيدن وكبرى ولم ترد الا رسائل
قليلة من لا بوريه غفل عنها الرقباء . وبعد الانتظار بدون حدود حمة
عشر يوما بين القلق والشك قرر المدير أن يعود أدراجه . وفي
١٣ أغسطس (سنة ٨٨) جمع الحامية في ميدان قرية لا بوريه وتلا عليها
جيمسون خطاب استائلى الذى ترجمه الى العربية لاشا المدير . وطلب
اليهم أن يعدوا رأيهم فحدثت ضوضاء ولكن لم يحرز أحد على الكلام .
ثم ما لبث أحد الجنود أن اخترق الصفوف شاكي سلاحه وأعلن للحاكم

غير مكترث أنهم يفكرون فعلا في الرحل ولكن بعد الحصاد . فقال
حصون : نريد ردا حاسما ونمهلكم الى الغد . فالتحق الجندي وصاح
قائلا . انكم تهوتنا وتكذبون علينا لأن الخديوى يأمر ولا يرجو .
ولو كان الأمر صادرا منه لكفل « اتقذ » اجمع ولم يترك كل واحد
منا يفعل ما يشاء .

وفي صبيحة اليوم التالى ذهب أمين الى حور أيو . فوصله هناك
رسالة من صاغ دوفيله ينسب فيها بتحرح الأمور في المديرية ثم رسالة
ثانية يدعو الى العوده عاجلا منعا لارتباك جديد . فلم يسمع أميا
وحفسون وفيما حسان الا المبادرة في ١٩ أغسطس (سنة ٨٨) بدخول
دوفيلة من الباب الشمالى . ولكن لم يقدم أحد للقائهم وكانت الشوارع
موحشه لا ألبس بها والمدينه تخم عليها صلب رهيب كأنها جبانة .
ولكنهم ما عثموا أن دخلوا بيوتهم حتى ظهر فجاء نفر من الخند حراسا
على مداخلها . وأصبح أمين وحسان سجنين . أما حصون فهو ضيف
لا يمس بسوء .

وقبل ذلك بأيام فلأهل كان فضل المولى . ومعه اليورباشى أحمد
دنكاوى . غادر قابو على رأس سبعين رجلا واستولى على دوفيلة بغير
فعل وسجن الصاغ وأعلن تحرير المديرية التى عرضها المدير للخطر
بدسائسه وسوء ادارته . وأنشئت في الحال حكومة مؤقتة .

« وقد تظافرا أمين لما حدث صاغرا .

وفي ٩ سبتمبر . حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . ألقت « الخديوى »
مراسيها أمام تونجورو . وبعد قليل دخل على في بيتى جفسون وقص
الوقائع المحزنة التى شاهدها .

« ومما ساعد على تسهيل مهمتى أمر صادر من حكومة دوفيلة المؤقتة
الى قومندان تونجورو باطهار كل رعاية نحوى ونحو أسرتى ، وقد

وجهت الى دعوة للذهاب الى دوفيلة اذا كنت أريد اللحاق بالباشا
وحضور مناقشات الجمعية العمومية التي ستجتمع فيها .

« استولى الواقدون الجدد (في تونجورو) على مخازن الدخيرة
وقاموا بتفتيش دقيق في مسكن فيتا حسان . وكان يشوب سلوكهم
بعض العنطة والجفاء . وبلغ من تعسفهم أن عاملوا سليمان أعا معامه
المستريب في أمره . وهو الذي أشعل النار ... والمثل يقول من يزرع
الريح يحصد العاصم . وكانت اللجنة مؤلفة من ستة أعضاء . ضابط
وموظفين . برئاسة أحمد الدكاوي . وجمعت هذه اللجنة الحامية كلها
وشرح لها تاريخ الحركة الثورية وأهم أعراضها . تحرير المديرية
واتصار العدالة في جميع الاراضي التابعة للخديوي ... اسحان
وتصفيق من الجميع .

« وفي يوم ١٣ تحركت اللجنة الى آمصوى . وأمر . رغما من بعض
اعتراضات قومندان المحطة ، بأن ينقل ثلاثون صندوقا « جفانه »
الى دوفيلة كان استألى أودعها في مخازن المحطة .

« وبعد أن أتمت اللجنة معاينة المخازن وتنظيم الاداره من جديد فصدر
وادلاي التي أصبحت مقر الحكومة وملاذ الكثيرين من الموظفين .
المصريين بنوع خاص والقاريين من استداد قومندان المحطات البائنه .
وقد رلنا من المركب في وادلاي . في يوم ١٨ . وفي مساء اليوم
ذاته اجتمع مجلس عام . تألف أغلبه العظمى من الضباط والموظفين
المصريين . لبحث الطرق الكفيلة بنجاح الحركة الثورية واعداد برنامج
للعرض على جمعية دوفيلة . وقد انتهز المصريون الفرصة لمسكوا
بأيديهم رمام الأمور ومنعوا كل رأى معتدل من التسرب الى الحركة .
وقد أعدوا ضد الحاكم (المدير) ورقة اتهام طهرت فيها الأحن الشخصية .
وبعد ركوب البحر يومين قضنهما في صحبة فئة نشوانه خلعت
العذار وصلنا دوفيلة . وذهب جفسون الى شفته وهي في مسكن الباشا .

وقد دهش حين رآني أذهب نوا لمقابلة فصل المولى رئيس الحكومة المؤقتة الذي أذن لي بالمرور لدى أمين وحضور جلسات الجمعية التي ستعقد في مصائر المديرية .

وعما لا ريب فيه أن الحزب العسكري حين دبر هذه الحركة التي أحدثت تغييرات كبيرة في سياسة إدارة مديرية حظ الأسواء لم يكن يفكر في قلب المدير مكتفيا بإيجاد مجلس بجانبه ليشاركه في المسؤولية . ولكن المصريين لم يقنعوا بهذا الحل وكانوا ذوي عدد في وادلاي وقد استنبأوا تفوقهم الذي كفتله معارفهم . ونجحوا في عمل تحقيق إداري وانتهى المدير والطبيب (الصمدى قسا حسان) والصاع قائد الكلية الثانية .

وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨ افتتح في دوقيلة الجمعية العمومية للطر في هذه المسائل المدرجة في جلساتها .

وفي صبحه بعد اجتماع الأعضاء ومعهم ثلاثة من أساطين الولاحين الجراحين الموقدان صبرى والطبيب والضابط مصطفى أحمد الدين بعصدهم على جابور . ونجحوا في حمل الجمعية على توحيه الاتهام والمواقفه على مشروع مرسوم بعزل أمين وفيتا حسان ووقف الصاع .

وفي نفس اليوم أبلغ نص المرسوم الى أمين وكان موقعا من الحاكم الجديد . والصاع حامد الذي قررت الجمعية بالاجماع ترقية الى رتبة قائم مقام . وتقرر في الوقت نفسه استمرار سجن الباشا والدكتور والصاع . وقد نصحت أمين بأن يذعن ويسلم . وأخيرا تذكر الثوار أن أساطين قد يعودوا وتمقوا على اقضاء المساجين الثلاثة في المحطات الشمالية حتى يجعلوا من المستحيل عليهم أى هرب .

وفي ٢٨ سبتمبر . في باشير الصبح . أبلغنى سرا الصاع سليم مطر أن مجلسا من بعض الزعماء منعقد عند اليوزباشى فضل المولى .

وكان يرأس اللجنة المكلفة بإجراء التحقيق في إداره أمين رئيس الحسابات الذي سبق عمله من وطبقة . فلا عراه إذن أن يصدر قرارها بإجراء تفتيش في منزل الباشا والدكتور للبحث عن الوثائق والبصائع والدخيرة الضائعة .

« وبعد نصف ساعة من نزولنا من المركب في وادلاي . في الخامس من أكتوبر . أحاط الجندي بممرل أمين - الذي عنت وكنهه - وبعد الححص والمفتيش في كل مكان . ترك لي أعضاء الوفد صورته محصر عليه امضاءاتهم .

« ومن ترحبوا وذهب الأعضاء إلى مصوى ولكن سرعان ما وصلتهم دعوة بالعودة عاجلا إلى دوفيلة حيث وصلنا في يوم ٣٠ .

« وكانت الأخبار التي سبقت إليها سنة أن ثلاث سفن بحارية آتية من الشمال ألقت مراسيها أمام (رحاف) وأزلت جنودا هجموا على حصنه واستولوا على الحصن بعد مقاومة قصيرة من الحامية . وقد مات ثلاثة ضباط وثلاثة موظفين مائة أنطال في الدفاع عن مدخل الحصن . وكانت مجرره مملوءة بالمطاع عمل المسجون فيها القتل في الرجال والنساء والأطفال على السواء . وبعد أن أعوا ذلك العمل الحربي الرائع . أرسل العرب كتاب تهديد إلى أمين حاكم مديريه خط الاستواء . وقد قص فيه عمر صالح . قائد لمهدي . أعمال سيده الجيلة في القتال وطلب التسليم .

« حمل ذلك الكتاب ثلاثة من الدراويش فانتشر الدعر بين الثوار وفي غروب شمس يوم ١٥ نوفمبر وصل بنا نكبة جديدة : لقد هرم المهديون . بالعرب من رحاف . الجنود التي يفودها القائم مقام . واقترب الخطر ما يصوره رهبة فقد الكل معها صوامعهم . ولذلك لم يفكر أحد في الاحتجاج حين تسلّم في الغد سليم مطر القيادة العليا . وكان أول ما عني به البر بوعده : وفعلنا عقد الضباط اجتماعا قرروا فيه نقل المساجين .

وفي صبيحة يوم ١٧ . أدت تحية الشرف لأمين الذي صعد بين
طلقات المدفع . الى ظهر السفينة التي أقمتا الى وادلاي » .
كان المهديون جاءوا من الخرطوم على ثلاث سفن بخارية وتسعة
روارق وبعد أخذ رجاف . التي حاول المصريون عبثا استردادها . وجعل
مركز قيادتهم فيها . احتلوا تساعا بدر وكيري وموجي ولابوريه
وخور أيو .

وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر (٨٨) تقدم المهديون الى مدينة
دوقيلة وضربوا عليها الحصار أربعة أيام وكان يحميها ٥٠٠ رجل بقيادة
سليم بك مطر . وقد سبت بطولة المدافعين خسائر فادحة في صفوف
المهديين فتصدعوا وولوا الأدبار . فساعدت هزيمتهم الماحقة على تدعيم
مركز الحكومة الثورية .

كان سليم مطر يمثل العصر المعتدل في هذه الحكومة وكان فضل
لمولى الرئيس الفعلي للمعارضة المتطرفة . ولذلك كان حزب اسابلي
(كاراتي . جمسون ومن اليها) يعتمد على سليم في وصل الجبال المقطوعة
مع الحكومة الجديدة وتهيئة السيل الى الاخلاء .

وصل في أثناء ذلك اسابلي الى الحيرة (١٦ يناير سنة ١٨٨٩)
وأنشأ معسكره على هضبة تهيمن على السهل . بالقرب من قرية الرعيم
كافالي . وهناك علم من الريد المرسل من جمسون حاله المديرية ففكر
في « اخطاف » أمين أولا . يتضح ذلك من كتابه الى جفسون بتاريخ
١٨ يناير : « استعمل كل حيلك ودهائك في اقناع أمين وأحضره معك
الى أريد اتقاذه فاذا تردد من جديد وقعت في حيرة وارتابك » .

وفي ٦ فبراير وصل جفسون الى كافالي . وفي القد كتب اسابلي الى
أمين . وفي ١٦ أبلغ أمين اسابلي أنه منذ اليوم السابق في اصابه Nsabè
ومعه السفنتان البخاريتان وطائفة أولى من الجند تريد مغادرة البلاد .

وفي الثامن عشر ترك أمين سميتته ونسعه كاراتي وفيتا حسان الصيدلي
وسعة ضابط بينهم سليم مطر وحواش مناصر مؤلفين وقدا مرسلا
الى استانلى .

وفي ١٩ منه (فبراير ٨٩) وصلت من الداخل نقاده اسرر ولسون
مؤجره الخنود التى كان اسانلى تركها قل شهرين عند مارامونى وكان
أرسل اليها حديثا يريد ان يأمرها فيه بالوصول الى كافالى عاجلا حتى يركز
كل قواته ويستعد لمواجهة أى هجوم طارىء .

وقد تقرر فى اجتماع تمهيدى عقد اجتماع عام فى اليوم السابى . وفى
ذلك اليوم سافر الرأى على أن يحظر الخنود المبرقون فى المحطات
احتتمه هم وأسرمهم بالاحلاء على أن يمحوا منه كافة للوجه الى معسكر
الصايبه على شاطئ البحيرة حيث يكون التجمع .

وفي يوم ٢٥ ، عاد السفندان ثابته من الصايبه وعليهما طائفة
حديده من اللاجئين . ووصلت أمين رسالة من وادلای تنبئه أن الثوار
عادوا الى التمرد . فى عة سلم بك . وانهم حلقوه وولوا بدله رعيامهم .
رأى أمين أن آماله فى استعادة سلطه قد صاعت كلها فترك معسكره
وانتقل الى معسكر اسانلى على الهضبة . وقرر اعتبار شهر مهلة كافية
للحاق الموالين برئيسهم وأن يكون الرحل بعد ستة أسابيع أى فى
١٠ أبريل . وعندئذ عادر سليم والضابط كافالى لتهبة أسباب الاحلاء .

وبعد ثلاثين يوما من سفر سليم ظهرت فى الألبور سار سفنة
بحارية تحمل خطابا لأمين من السك وخطابا آخر من أحد الضابط الثوار
الى « معوث الحكومة المصرية الخليله » يطلب الى اسانلى السماح له
بالممكن من العودة الى مصر فى حراسته . وفد أحبط أمين عسا أن سليم
أرسل الى تونجورو دفعة أولى من اللاجئين وانه كان فى ذلك الوقت
يشرف على عملة النخلى عن دوفيلة الى وادلای كنقطة تجمع .

بدر أمين بتبليغ استاقل هذه الأخبار « المشجعة » وأبان له ضرورة مهله ثلاثة أشهر أخرى لتركيز جميع القوات حول كافالي . ثم طلب اتخاذ قرار في هذا الشأن .

عندئذ تقرر اسباب أمين وأحدده بالقوة . وقد روى كاراتي هذا الحادث . قال .

« كان أمين لا يدري ما يصنع . كان شديد الرغبة من ناحية في اطالة المسافة بينه وبين زعماء الثورة وكان من ناحية أخرى يألف أشد الألف من أن يلم نفسه بالانحياز مثقلا بالقعود والأغلال وأن يكون شبه بعضه يردان في مهرجان انصارهم .

« كان اسبابي لا يسضع صبرا . وفي صباح ٥ أبريل أعطى التعليمات المعادة ثم قصد أمين . وبعد أن أخذ عليه عهدا بأن لا ييوح لأحد بما سيدور بينهما من حديث تلمعه بصوت قاصع أنه حدث في الليلة الماضية محاولة سرفقة الأسلحة في مساكن الرنجاريين .

ثم أضاف قائلا : انها مؤامرات تحاك ضدي وضد الحملة . اني أعرف تماما أن الرد على قرار السفر الذي اتخذناه هو المقاومة . اني لا أفهم ما تعني عا تقول . واني أعتقد شخصيا أنه لا أحد يحرك على محاولة القيام بما جيل اليك .

دعنا من الف والدوران يا حضرة الباشا فليس ذلك من شمي . اني أعرض عنك حلي فاحترأ بهما شئت الآن : لقد عقدت الية على تطويق المعسكر غدا صباحا بالرنجاريين واصدر الأمر بالرحيل في الحال . واني أحسن في نفسي القوة على الاستعانة أسدحي اذا لقيت مقاومة . ثم سأسافر معك ومع من يريد من أساعك . واذا كنت تستنكف من المعافاةي مسعد لترجعت حصه في حراسه أحماد يوثق بهم ثم ألحق بك بعد ساعات . ولت الحار .

— من المستحيل أن أسلم باقتراحك . ولن أناقش أولهما . أما الثاني فأنت تعلم أنه يتعذر على ترك كازاتي وفيتا وماركو .

— لا تفكر في هؤلاء . فاني متى تمكك من انشاء معسكر في احوال ملائمة عدت اليهم بنفسي وانزعجتهم بالقوة . اذا دعت الحاجة . من أبدي لمصريين .

ولكني لا أرى الفائدة من ايمان وسائل كهذه بما أنا سحرك في يوم ١٠ .

وهنا هاج اسابي وماج وتملكه العصب وصرت الأرض برجله وصاح بصوت مخس

تعال لكم Goddam وسمع نعه الدم المهرق على رؤوسكم انتم الضيق الى الخارج وصغر بصغارته وذهب الى حممه ورجع حاملا السدفة في يده وظروف الذخيرة في حزامه . واصطف الزنجاريون في الميدان . وكان عدد منهم يحرس مداخل المعسكر . وقد قوصب الجباء وكومت كواما صناديق الذخيرة والعفش .

« شاهدت هذا المنظر الخارق من عمة مسكى ورأيت هذا العرض العسكري العريب . فاعتدت لأول وهمة أنه استعدادا لسفر تقرر اجراء «مناورات» . . وعيثا أسأل المارة فلا محجب وأجيرا أرست الحندي المكلف بخدمتي الى أمين فعاد ينهب الأرض قائلا ان الناشا يذهب للرحل في الحال . فذهبت بدوري فوجدته أصغر اللون من الحسق والزمج ثم قال بصوت مرتجف :

— سنرحل . ولأول مرة في حياتي صبت على الالهانة والسباب . لقد حرق اسابي كل مبادئ اللقافة . وقد وعدت بأن لا أنكم ولذلك ألتزم الصمت .

وكان الباشا تحت سطوة الخوف . وكان يخشى أن ينفد من آن لآخر
الاقتراح الأول .

وقد جمع في ثناء ذلك في الميدان كل من كان حاضرا من رجال
حكومه خط الاستواء ضباطا وجنودا وموظفين وخداما — وكان
القوم جميعا في حالة رعب وفق . لا يرون في كل هذا الطرح نذير خير .
وكنتم مع أمين آخر من وصلوا .

وصاح استأني : — اذا كانت عندكم شجاعة فصوبوا الى صدرى
ببندقية فها هنا وحيدا أمامكم بغير سلاح .

وقد بلغ هجانه درجة نسي معها أنه يحمل سلاحا قويا في يده وان
مائة من الرنجايريين المسلحين واقفون وراءه وقفة مأهبة للقتال .

— أنا وحدى الأمر الدهى هنا فمن شاء منكم أن يفاوضى فله
سلاحى هذا ووضع برحلى . فليسمع هذه الناحية كل من يريد
اتباعى منكم .

حدث في أثر ذلك حركه كامله مسمة أشه بحركه قطع
من الشاه .

ومنذ ذلك اليوم كان المعسكر يبدو وكأنه في حالة حصار اذ
صوعت نقط المرافقه والدوريات التى تمر طول الليل . وقد حرم
الخروج وكل من يخرج تؤخذ بمخفه .

وقد دس الاحصاء على أن عدد الأشخاص التابعين للحملة ٣٥٠ ، منهم
٢٩٤ مرودين بالسلاح وان عدد القادمين من مديرية خط الاستواء
٥٧٠ وهما ليس معهم الا ٤٠ بندقية .

٣ — تكوين أوغندة الجديدة (١٨٩٠ — ١٨٩٨) .

كان انزعاج أمين أول تمهد للسيطرة الانجليزية على أعالي النيل .
وعلى أثر اتفاق أول بوليه سنة ١٨٩٠ الذى عقد بين المملكتين وألمانيا

بخصوص مناطق النفوذ في أفريقيا الشرقية تقرر إرسال لاجارد الى
أوغندا لعمل معاهدة تكفل لاجلجرا، السلط في هذه البلاد .

وكان يصحب لاجارد ٥٠ جنديا سودانيا ، بقيادة شكرى أغا
كلهم من بقايا الحش الصغير الذي (أنقذه) استائلى . وقد نجح لاجارد
في سياسته الى تدويل بين الوعد والوعد من حمل موانجا على امراء
المعاهدة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٠ .

وفي ٣١ يناير سنة ١٨٩١ وصل أغنده اليورباشى ويليامر لعمل
تحت امره لاجارد وكان معه ١٠٠ سواحلى (عرب الساحل) و ٧٥ سودانى
جندوا في مصر لحساب الشركة .

وقد برع لاجارد في سياسته « فرق تد » وتعلب على جميع لصعاب
و نصر على الحزبين الاسلامى والفرنسى اللذين كانا يرعمان الحرب
الانجليزى في أوغندا . بل سلط مسلمين على الواغندا المسلمين وفهرهم .

وكان يمثل الحزب الانجليزى منذ سنة ١٨٧٧ مبشرون من الكنيسة
الانجليزية . ثم انضم اليهم موظفو الشركة والحكومة الانجليزى في حين
أن الحرب الفرنسى كان لايمتد الا المبشرون الكاثوليك . الآباء اليس .
الذين وصوا أوغنده في سنة ١٨٧٩ .

وقد كفل لاجارد بحرم اسراد لاسلحه في أوغنده استعلاء
الحزب الانجليزى الحزبين الآخرين وأهالى أوغندا معا .

ولكن صر به المعلم الحقيقى الى مهدى السبل لسطره الانجليز على
أوغندا ولايبورو ومناطق البحيرات كانت مجيد الموت السودانية
التابعة لمديرية خط الاستواء .

كتب جونستون يقول : « ان لاجارد هو الذى جلب القوات
السودانية الى أوغنده . وكان يتعدى في ذلك العصر أن يلجأ لاجارد الى

وسيلة أخرى إذا أراد أن يوطد السلام بين الأحزاب المتنازعة وثبت
الرفاهة البريطانية . ولم يكن يخطر على البال في ذلك الوقت إرسال جنود
من الهنود الى أوغندا وكان يستحيل أيضا العثور على جنود آخرين
مدربين على احتمال الجو غرباء عن كل نفوذ في أوغندا (١) .

في شهر ديسمبر (سنة ٩١) ذهب لاجارد ومعه حائمه من السودانيين
الذين أتوا معه في أوغنده وعسكر في أعالي هضبة تشرف على بحيرة
اليرت . وهناك اتصل في الحال بسوداني خط الاستواء .

وكانت قد حدثت حول هذه البحيرة حوادث منذ أن غادرها أمين
(مايو ٨٩) الى أن وصل لاجارد (سبتمبر ٩١) :

في ٨ مايو سنة ٨٩ غادر استاني وحربه مراموني . وفي المساء وصل
الريدي أمين متبنا بأن قلائد حديدية في وادلاي قد شلت كل مجهود
لسفد أوامر استاني وأن فصل المولى بك قومندان وادلاي قد انحازت
إليه معظم القوات فوجه بها صوب اللال بعد أن سولى في قلعة الليل
على انحاز الدحائر .

وكان سليم بك في أثناء ذلك ذهب الى امصوا . في ٢٢ أبريل .
وهناك طلب ثنيه الى استاني أن يقف في الطريق لينتظره فأبى . وبعد
رمن هرب بعض الجنود من كتيبة استاني ووصلوا الى كافالي حيث
كشعوا لمضيلة سيم الصفرة عن المكان الذي جأ فيه استاني الدخيرة ،
(٣٥ صندوقا) .

بلغ نية هذا الاكتشاف فضل المولى بك بينما كان معسكرا فوق تلال
قاراري وآسى بين امصوا ووادلاي وكانت قواته في هذه الآونة قد
نصاعت على أثر انضمام قوات ورفقاء سليم اليها . فأسرع بإرسال ٣٨٠

(١) Harry Johnston. The Uganda Protectorate. 2 Vols (vol I p. 237)

حدثا استولوا على ذخائر كافال ومرو . في طريق عودتهم . بامصوا
حيث غامبوا سلم بك معاملته خسة وسخنوه ولكن أطلق سراحه بعد
ذلك بقليل فانسحب مع خلصائه الى كافال ورفع الراية المصرية عليها .
وكانت حاميته تتألف من ٩٠ رجلا - عدا ٣٠٠ امرأة وفضل ولكن
معارك طاحنة نشبت مع الوطنيين أفقدته ٥٠ منهم .

ثم تبين لفصل المولى بك استحاله الاحتماء بموات كبيرة على التلال
فعاد الى وادلاى . وهناك اتصل سرا بالدرويش الذين كانوا راسحين
في رخاف . وقد تصبوه أميرا وكان ينظر فدومهم في وادلاى ولكن
حاميات هذه المدينة قررت حينئذ الحلي عن رعيها والهرب للانصراف
الى سلم بك في كافال . وقد عادرت وادلاى حوالي مارس سنة ١٨٩١
وقصفت مسافة سبع وبنى كافال في أربعين يوما . وكانت نفوه مؤلفه
من ٨٠٠ حدى وثق السلاح وافر الذخيرة بسبعهم ١٠,٠٠٠ نفس من
الرجال والنساء والامهال .

في هذه الفترة بالذات (أبريل ٩١) ، قبل وصول جموع فوات وادلاى .
كان أمين باشا عاد من الساحل الى كافال وبرفقته الدكتور الامني
اشتولمان وفوه من الرحماريين . وقد أصبح أمين سلم بك أنه أصبح
يشغل في خدمة الحكومة الألمانية وأنه من لا يصل أن يضم قواته الى
قوات أمين في ظل الراية الألمانية .

أجاب سلم من فوره أنه رعية مصرية وأن رحاه حدود في خدمه
الحكومة المصرية فمن المستحيل والحالة هذه تحقيق طلب أمين . ولم
يجرؤ أمين على الذهاب الى وادلاى واكفى ناسه ربح عن بيته الكشور
البلاد الكائنة في العرب وفي الشمال العربي . ثم طلب مطوعين . وبعد
امكث بضعة أيام في كافال استطاع أن ينزع من رهط سلم أربعين

رحلا بادر أكثرهم . في أثناء الطريق الى الحرب والعودة الى كافالي (١) .
وكانت طليعة قوات وادلای وصلت الى كافالي فذهب سليم بك الى
مهاجی ليرافق بقية القوات القادمة . وفي أثناء غيبته وصل لاجارد
بالعرب من كافالي . وبعد أيام قلائل كانت قوات مديرية خط الاستواء
كلها مجتمعة في القرية . ويؤكد لاجارد أنها كانت تنوى التحرك

(١) كان أمين عاد مع حملة استائلي ولكنه عند وصوله الى الساحل
دخل خدمة الحكومة الألمانية وعاد الى بحيرة البيرت ليحاول بعوده
الاستسلام على مديره حظ الاستواء ليوطد السوء الألماني عند منابع النيل
ولكنه لم ينجح في مهمته . وقد بقي في هذه الأرجاء حتى قتلته العرب في
سنة ١٨٩٢ . وقد كتب أحد العارفين سواط شؤون العرب هناك أوسكار
بومان معالاً في الجريدة الحرة Neuc Freie Presse التي تصدر في فيسا
فصلاً عن أسباب موته جاء فيه :

«لا شك ان أمين ما كان يتعرض له أحد في طريقه لولا حوادث أعالي
الكونغو التي بدلت الموقف تبدلاً تاماً . ذلك ان مملك حكومة الكونغو الى
ذلك الوقت نحو تحار الرقبي العرب كان مملك الماني المودد في الظاهر .
ثم فر الرأي فحاد على اتحاد احراءات حارمه لهمهم فارتب حملات
كثيرة صدهم . وكانت احداها برئاسة كير كهوفن توغلت شمال ارويبي
الملاصقة للمنطقة التي كان فيها أمين مع رجال سيد بن عييد . وقد حدثت
مواقع دامية وعصف كير كهوفن بعدة معسكرات عربية واستولى على
كمات كثيرة من محروون العاج . فأوعر ذلك صدور العرب الى اقصى حد
وكانت السحرة المباشرة قل الكثيرين من وكلاء الشركات التحكيكية
البحارية الذين يعيشون في أعالي الكونغو وكانوا على اتم وفاق وصفاء
مع العرب .

«وكان العرب من قبل يخشون مغبة قتل الأوربيين ولكنهم أصبحوا
لا يبالون بشيء بعد أن أثبت عليهم حرب افناء لا رحمة فيها .
«على أنه رغمًا من كل ذلك فإنه ما كان أحد من العرب يتعرض لحياة
أمين لان العرب الأمريقيين كانوا ينظرون اليه كشخصية شرقية كبيرة ،
وكانوا سبب علمه الواسع بالاسلام يصرونه الى حد ما وسيطاً بينهم
وبين الألمان . ولكن أمين قد اضطر الى اتساع حظه العداء الصريح نحو العرب
حين عصف بمعسكر أعداء « الحماية » الألمانية . تحار السلاح العرب في
ماحو MaoJo على ساحل فكتوريا نياتزا ، وأعدم زعماءهم واستولى على
مقادير عظيمة من البضائع والأسلحة » . .

(انظر ص ٢٩٢ - ٢٩٣ من الجزء الثاني من كتاب حياة أمين باشا

Emin Pasha. His Life And Work By Georg Schweitzer 2 Vols.

صوب الجنوب (صوب أوغنده في الغالب) بمجرد وصول آخر قسم منها الى كافالي .

وفي ٧ سبتمبر عسكر لاجارد باراء الثرية السودانية ومقر سليم الذي كان في الناحية الأخرى من نهر صغير يفصل بينهما .

وفي ١١ سبتمبر اجتمع الرعيان . وكان سليم سودانيا ضخمة الجثمان ، رفيع النيان ، عظيما جدا في حلقه . وكان من ضباط الألاي السوداني الشهير الذي اشترك . تحت قيادة بارين . في حرب المكسيك . وكان حاكما لامرولى في أيام غردون . قال لاجارد يصف لقاءه سليم بك . « لقد ذكرلى طويلا كيف شاب رأسه في خدمة الخديوى وأنه ان تحول عن ولائه لراية قد حاطر بحياته مائة مرة ، في سبيلها ، وأنه لن يردد في الانضمام الى طواعة اذا كان عدى » « تصریح » من الخديوى . وأنه بدون ذلك لن يخدم تحت راية أخرى « ١ » .

وبعد مفاوضات طويلة وعد لاجارد بطلب ادن من الخديوى . فقبل سليم بوضع قواته تحت امره الصابط الانجليزى حتى يصل رد الخديوى . وفي العد أراد سليم أن يشترط أن تكون له السلطة العامة على جنوده وأن يظل الجنود مترابطين في مراكز متدائيه لعيه القرار الهئى . فبني لاجارد ثم حاول توطيد السلم في مديرية حظ الاستواء أو بمبارة أدق الاستيلاء عليها من جديد بواسطة قوب سليم . ولكن سليم عارض بقوة .

وكان هذا التأجيل القهرى لخطه لاجارد الخاصة بمديرية حظ الاستواء . بعد أن حلا عنها المصريون جميعا منذ استقرارهم في كافالي في أقصى الجنوب الغربى من بحيرة ألبرت . مدعاة الى التفكير المر في

F. D Lugard, The Rise of our Eastern African Empire, 2 vols. 1893 (١)
(Vol. II p. 210).

تأج حمة اسانى . قال لاجارد : « ان نتيجة حمله الانتقاد كان يرني لها على الأقل من ناحية أن حملة السودان لحوبى الطعين وادانه قد سحوا منه لتركوا البلاد نها للموضى والحرب المديه والدراوئش » . ثم ختم لاجارد قائلا : « لا أقصد بذلك توجيه أى نقد صريح الى حملة الانتقاد ، لأن نتائج كهذه لم تكن متوقعة ^(١) » .

كتب هذا سنة ١٨٩١ والواقع أن سياسة الاخلاء التى أرعمت عليها مصر منذ سنة ١٨٨٣ فى السودان وملحقته كانت نائجها واحد . . . وقد قضى سلم وأعوانه القليلون فى كافال أكثر من سنتين عاشوا فى حلاهم عيشه قوم محصرين . « لقد حلوا معهم بدرجة الفس وررعوه وجمعوه فى الحقل . وعلى مناوهم الدائنه سحوا « قمش » المصنف و « السطاووت » الى كانوا يلبسونها . وكانوا لا يزالون يتداولون قصصا من العمة مصروية ، وكان الكتبة المصريون قائمين بكتابة الكتب لرسمه لمرسله من سلم الى محطاته المتقدمة والى مرؤوسيه من اصناف . وباحمه كان يوجد وسط المظهر الوحشى للجنود اللابس جلود الحيوان . والباء العرباب . و « لورج المصنوعه من الفس . محمود ضاهر . نحز رؤسه فى الشمس . لمحفصه عبي البضاء الذى يدعوه باعتبارهم جنود حكومه محصره ^(٢) » .

وفى أثناء عرض عسكري حدث فى ١٧ سبتمبر ، قبيل الرحيل ، لم يستطع لاجارد أن يملك عواطفه أمام ذلك المنظر المؤثر الحافل بعلائم الضوئه وانولاء . « كانت كل كسبه تمر وموسمها فى المقده . و « حرنى سلم أن أولئك الجنود حوالى ٦٠٠ كانوا كل ميسى من ٣٠٠٠ مقاتل . وفعلا كان الكثيرون منهم مشوهى الوجه بالجروح

Lugard, Vol II p. 213 (١)

Lugard, Vol. II. p. 218 (٢)

ومات الآخرون في أثناء القتال من أجل رايتهم . وكان من المسجل أن لا تعرفوا إلا أن هزة عجاب لرؤية أولئك الجيود المزركين وهم يحمون في سبرهم رايه بعد أخرى ممزقة ومخرقة من أثر الملاحم لشديده لتي اشبكوا فيها مع المهديين . وكان يبدو عندهم العصب في ولائهم لشارة الخديوى . وكان بينهم رجل كبير السن مرزاً في عقله منذ حصار دوفيلة يسمى بلال بك ، وكان جسمه مغطى بالجروح وذراعاه لا تسعف بعد أن مزقهما الرصاص كل مرق . كات حماسة ذلك الرجل لا تعرف حدا ، وكان لا ينفك يقاطع بآبتهالاته ودعواته كل حركة .

وقد تم بعد ظهر ذلك اليوم الانسحاب من لاجارد والخمسة على الرحيل . ولكن لم ينس لاجارد قبل تحريره أن يعقد معاهدات مع كبار الزعماء المحليين الثلاثة : كافالى وكابونزى وموجسى وأن يعطهم رايه الشركة لتحل محل راية الخديوى .

وقد عمل بعد ذلك لاجارد ، في أثناء رحلة العودة الى أوغندة ، على تقسيم قواته الخديده وترك معظمها عن قصد مورعا بين حصون ومحطات كثيرة واقعة على حدود الاوسور وفي جنوب طورو Toru وهذه الاحيرة مملكة حديثة خلقتها الشركة وكان يحكمها أمير اسمه كاراجاما من أسرة الاوسورو المملكة .

وقد وكل لاجارد الى ضابط انجليزى ، دى ورسون ، السلطة الفعلية في المديرية ليكتب الملك والسودانيين ، تحذر أى نوعه في منتصف ديسمبر سنة ١٨٩١ بعد غيبة ستة أشهر .

وفي أواخر شهر (ديسمبر) دخل لاجارد أرض أوغندة وقرر إنشاء محطة في مناء واقع بين جزيرة لوامو والديسه . وترك فيه قوة صغيرة بقيادة ضابط سودانى ذى عريضة واحلاص اسمه فرح أفندى ، وجمعة وعشرين من لصناع السودانين جاءوا من كافالى مع أهلهم وذويهم .

كان اجموع ١٥٠ رهطا . وكان لاجارد يقدر المزايا الكبرى للارتفاع بأولئك الصناع في بناء السفن وترقية التجارة في ذلك القسم من أوغندة بل وفي التأهب للمعارك المقبلة .

وقد لخص لاجارد أعماله في اثناء السنة الأشهر الأخيرة من سنة ١٨٩١ . قال : « لقد عقدنا معاهدات ووضعنا تحت حماية الشركة كل البلاد الواقعة في غرب أوغندة لغاية حدود الكونغو وعلى طول مجرى الروينزورى لغاية بحيرة ألبرت في الشمال . وقد أغلقت تقريبا جميع طرق استيراد الأسلحة والدخيرة . وشيدت سبعة حصون ، وضمت بحيرة ساليه . وسم « انفاذ » السودانيين وقرارهم مع ضباطهم في المديرية الحديدية وعن دي ونون والملك الشاب كاجاما لتنظيم شؤون البلاد وإدارتها ومراقبة أي خروج عن الجادة من ناحية السودانيين (كذا) . وقد عد طريق للفيل من بحيرة فكوريا الى بحيرة ألبرت . وأخيرا أحصرت معى مائة من حيرة المقاتلين ليحلوا محل الخالين في أوغندة . وكانت هذه القوة كافية وقدناك بيننا كاب لنا في الحصون المختلفة قوات احتياطية واسعة تعتمد منها في أية لحظة (١) » .

وفي اثناء الطريق . بالقرب من كامبالا وصلت الى لاجارد الأوامر بإحلاء أوغندة في الحال لأن الشركة قررت الانسحاب الى الساحل وتوقيع معاهدة حديده مع موانجا . وكانت هذه الأوامر مرسلة من مديري الشركة في لندن ومؤرخة في ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٠ - أي منذ سنة — وقد أملت صعوبات الشركة المالية وحالة المديرية المضطربة في ذلك الوقت .

وفعلا حين عاد لاجارد الى مجو في أوائل سنة ١٨٩٢ كان الكاثوليك والبروتستانت مشتبهين في حروب مدنية فظيعة . وقد هاجم الحرب

الفرنسي حصن لاجارد على تل كامبالا ولكنه رد على أعقابه . ولجأ الملك موانجا الى الفرار ورفعت راية الشكره على قصره الخشي . وكان وضع نفسه تحت حماية المشرين الفرنسيين اللاجئين الى جزيرة بولنجوجوا Bulungugwe فلما هاجم لاجارد هذه الجزيرة (١) لاذ الملك هربا بالحدود الألمانية . وقد قاوم لاجارد موانجا بواسطة سائه وهدده ان لم يعد تنصب اموجو . رغم الحرب الاسلامي . على العرش . وعماجه الفرنسيين . من الجوانب . ان لم يدعنوا . بواسطة السودانيين الدارين في الطورو والواغنده المسلمين . مما اضطر موانجا وحلفاءه الكاثوليك الى العودة الى عاصمة البلاد كامبالا في أوائل أبريل وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين .

وفي أثناء ذلك كان كاتاريما هاجم حصون السودانيين ولكنهم قهروه وأرغموه على طلب الصلح . وكان كاتاريما أكبر حلف للمسلمين في أوغنده .

حاول لاجارد بعد ذلك تسوية المشكلة الاسلامية فاقترح اسكان الواغنده المسلمين في بقعة من الأرض محصورة بين المنطقة الكاثوليكية والمنطقة الروتسانتية ليكون من السهل مراقبتها ولكون من ناحية

١ كتب دارسي Darcy في كتابه Cent Années de Rivalités Coloniales يقول : « سار لاجارد على رأس قوات عسكرية عظيمة وتوغل لعابه نحو Mengo مقر الملك موانجا وفرض عليه معاهدة حمايه ، ثم اقتب بهاجم الكاثوليك بدريعه واهبيه وطردهم فاطردوا في حريره كبرى سحيرة فكتوريا كان يوجد فيها حول الملك والمشرين الفرنسيين عدد ضخم من اللاجئين من الرجال والنساء والأطفال . وقد صوب لاجارد مدافعه ضد أولئك الصغفاء العزل فافتى قسما كبيرا منهم ، ثم أمعن في سياسة التدمير والتقتيل وأرعى العمال لقواته وأصاره فحرقوا كل قرى الأناء البص ومخطنهم وكنائسهم ومرارهم . وكل لاجارد لا يحفل أن محو الكاثوليك معناه محو التعوذ الفرنسي في أوغنده ، ولذلك لم يبق أثر من العمل الذي تعب في تشييده مواطنونا (١٨٩١) » .

أخرى نقطة توازن بين الحزبين . ولكن لاجارد كان يريد اضعاف الحزب الاسلامى الى أقصى حد فاشترط على الواعده تسليم ملكهم امبوجو . وكان سليم بك هو الرجل الوحيد الذى باستطاعته حمل المسلمين على قبول شرط كهذا . قال لاجارد : « فى اليوم الذى لامضاء المعاهدة مع موانجا (أى فى ١١ أبريل) ذهب الرسل المسلمون ليعيطوا حزمهم بشروطنا فأرسلت معهم سليم بك الذى كتب أثق فى اخلاصه كل الثقة والذى كانوا يسمونه ملك « البرك » وبعو القوس مكانه العاليه . وقد كلف باستعمال كل نفوذه لدفع المسلمين الى قبول شروطى والتخلى عن ملكهم . وفى حاله نجاح مهمته كان عنه أن يذهب فى الحال صوب الظورو وتولى قتاده السودانين . مكان دى وتون الذى تولى ، وتقريب الحصون من أوعدده . وكفى أمل بهذه الطريقة ليجاد تهديد محسوس حلف الحزبين الاسلامى والفرنسى ومنع خطر أى تهور من ناحية السودانين فى الحصون البعيدة نظرا لسهولة المواصلات مع كامبالا . وقد اضطر سليم الى أن يحلف على القرآن لاموجو « أنه سيكون شخصا مسؤولا عن أى أذى يلقى به من ناحية لاجارد » .

ونكس لاجارد فى النهاية بفصل السودانين ورعاء منهم أمثال سليم بك وفرح تىدى وهذا الأخير من جنود كسلا وأبطالها القدماء من أقامه السطره الانجليزية فى أوعدده والأيبورو على قواعد وثقته . و انتهت مهمته فى يونه سنة ١٨٩٢ .

وقد كانت عودة لاجارد الى لندرة فى سبتمبر سببا فى إثارة مسألة أوعدده تحديفها والمكبر فى حلول الحكومة الانجليزية محل الشركة فى ادركه ممكة تمد من موباسا الى النيل الايض وتبلغ مساحتها وقتئذ ٣٠٠.٠٠٠ ميل مربع .

ولذلك بادرت حكومة غلادستون بارسال جيرالد بورتال

Geraid Portal ليكتب تقرير عن الحالة في أوغنده واعلان الحماية
الانجليزية عليها .

* * *

ترك بورتال ونجار فاصدا ، و غنده في أول يناير سنة ١٨٩٣ وكان
رفقه الصاغ أوين Owen وبركلاي Berkeley قنصل صاحب الجلالة
ومدير مملكات الشركة في موباسا و ٢٠٠ رجل مسلح من رنجار .
وكان بورتال يقول كثيرا على هذه القوة « كعامل جديد ذي شأن في
التسوية المحتملة لمسألة أفريقيا الشرقية كلها » . ولكن حبسه في
الطريق وانضح به كما تضح جمع الصايط « أنهم أشد الناس كسلا
وأفقرهم » . وأهم أخطأ مجموعه من الرجال قدر له . لسوء الصانع . أن
سعامل معهم ^(١) .

وقد وصل المدبوع (فومبير) الحديد الى كامبالا في مارس
سنة ١٨٩٣ . وهناك وجد الصاغ ويليام الذي سيطر به اداره البلاد
بعد سفر لاجارد والبورناتى ماكدونالد و جديج Gedge مراسل
للمس .

وبعجود وصوله قرر وضع يده على جمع الحاميات السودانية وارسال
أوين الى مملكه الطورو لتسديد هذه الخطة . وفي أول أبريل نصب علم
الحكومة الانجليزية مكان علم الشركة . وبعد أن تجعب لدى أوين قوة
مؤلفة من ٥٥٠ سوداني « وكل البها عميا مهمة الدفاع عن البلاد ^(٢) » .

وقبل أن يغادر البلاد أرسل تقريره الى روبرت وطلب تعيين
ماكدونالد مدوبا لأوغنده وملحقاتها . وقد أُلح في تقريره في ضرورة
عدم التخلي عن أوغنده « التي تهيمن بمركزها الحرى على أعلى النيل

(١) Gerald Portal, The Mission To Uganda. London, 1894 p. 9

(٢) Lugard, Vol. II, p. 559

والبحيرات » . وألح أيضا في المطالبة بإنشاء خط حديد بين مونيابة وبحيرة فكتوريا ^(١) باعتباره أن مسألة تمدين السكان ، والإشراف التجاري والساسي على مياه النيل الأعلى ، والقضاء على الحروب الداخلية هي قبل كل شيء مسألة نقل ومواصلات .

وبينما كان بورتال في طريقه الى الساحل حاول ماكدونالد التخلص من الحزب الاسلامي ورئيسه امبوجا وسليم بك . وما كاد يصل بورتال الى جواسوماسا . على بعد ٢٠٠ ميل من كامبالا ، حتى بلغت رسائل من ماكدونالد تطلب عودته « بسبب الاختلافات الخطيرة مع الحزب الاسلامي وتدمير القوات السودانية » . وقد اضطر بورتال الى الوقوف رمنا في كافرونندو Kavirondo وهناك وصله بريد جديد من أوغندة يسنه بأن لا ضرورة لعودته (يولييه سنة ٩٣) . ادعى ماكدونالد أن رئيس الجنود السودانيين حاول سوقهم الى التمرد ليتآزروا مع المسلمين ضد المسيحيين . ولكن الفتنة قد قضى عليها كما أن سليم بك وبعض رعاء الواعده قد أرسلوا مع جيدج كآسرى أو كنمين . وقد وصل جيدج في ٢٦ يولييه الى موميا وسلم الى بورتال « العاصي » سليم . وحلطا كثيرا من النساء والأطفال السودانية التي كان يراد ترحيلها الى الساحل . وأحا الملك موايجا . آموجا رعيم الواعده المسلمين الذي كان يستحب إبعاده ^(٢) .

وفي يوم ٢٧ (يولييه) سار بورتال مع عالمه ليجتاز طوال ثلاثة أسابيع بلادا وعرة موبوءة تمرقل الحركة فيها سيول الأمطار المبهمة بلا تقطاع وفيضان الأنهر والمستنقعات الغزيرة .

وفي ١٦ أغسطس سنة ٩٣ في منتصف الليل . مات سليم ، بداء في

(١) بدأ إنشاء السكة الحديد في سنة ١٨٩٦ وتم في سنة ١٩٠٣ .

(٢) Gerald Portal, The Mission To Uganda p. 262.

القلب . ولم يجد بورتال في مذكراته ما يقوله عن موت ذلك السوداني العظيم : ولا شك أن القضاء على الحزب الاسلامي ورعماؤه الذين أصبحوا ثقلا على الانجليز كان أمرا مبيتا ومسقيا عليه بين بورتال وماكدونالد في كامبالا نفسها .

وقد كتب لاجارد ، هذه المناسبة ، يقول : « أنأتا البرقيات حديث أن ماكدونالد قد أثبت تهمة الخيانة على سليم والتواطؤ مع الواعدة المسلمين لقلب الانجليز الخ . » وإذا كان لي أن أحكم بمقتضى التقارير التي وصلت في إنجلترا فإن الحذر الذي أبداه سليم بك حين بان له أن المسلمين لم يعاملوا بالانصاف لا يمكن تسميته « خيانة » . وقد كان في ذلك الوقت يموت بداء عضال . ومع ذلك أرغموه أن يسير نحو الساحل فمات بالطبع . وإن تاريخ الحوادث الذي روينه في كتابي ليثبت أن سليم ، قد دفعه احلاصه لي الى المخاطرة بحياته . وإن اليه يرجع الفصل بصفة خاصة في التسوية التي تمت مع المسلمين . وذلك في وقت لو أنه أراد أن يحون لوجد الطريق مبسرا أمامه إذ كان السودانيون في الطورو على مقربة منه . وكانوا يطيعونه طاعة عماء . وكان حرب الواعدة المسلمين لا يتردد في قبول الدعوه . ولكن سليم ظل أمينا . وإنني أعرف الرجل الذي كنت أصاحه . فلا بد أن يكون قد حدث لحرد غريب من اللقاة ليحول هذا الولاء الخالص الى عداوة . مع أن سليم كان رجلا يشارف الموت ا رعموا أن سلم صار كثير الاعداد بسبب الطريقة التي عاملته وعامله بها وليامر . وإن مثل هذا الاعتداد غير مقبول عند رؤوس أحيار . ولكن سليم لم يكن ضابطا « محندا » أحيار حين كنا في أوغندة . كان حائرا لرتبة البكوية في الجيش المصري وهي ثاني رتبة فيه . وقد تولى القيادة السنوات الطوال في مناطق كثيرة . فلم يكن من اللائق مطلقا أن يعامل بصفة معاملة ضابط صغير . وكان من المنصف عليه بينما أن يعود الى مصر وكان يحب أن يسافر بمجرد تجديد السودانيين .

وانى لبحرنى شخصاً أن أفكر أن ذلك الجندي القديم الذى اختاره
غردون لتولى القيادة فى امرولى وأبعد شجاعته وحكمته دوفلة وحاطر
بحمائه فى سبيل اصلاحه لى قد أبعد على عجل وهو فى حالة موت .
ذللاً مهاتاً ، لهلك فى الطريق طريقاً شريداً (١) » .

أما سواد الحزب الإسلامى الأعظم ، بعد سفر بورقال ، فقد شتته
المسحورون ومحقوقه ضيقاً لحظه مدبرة بلا شت بين بورقال وماكدونالد
والمبشرين الانجليز .

وفى مايو سنة ١٨٩٤ خلف الأميرالاي كولفيل ماكدونالد نصفه
مندوب الحماية أوغندة الجديدة ، وقد أقام فيها أكثر من عام . وأهم
أعماله استعانة بالسودانيين فى اذلال كاناريجا ملك الأنورو وإباده
قوته . ورفع الراية الانجليزية فى وادلاى فى مديرية خط الاستواء
الغربية . وصم آخراء واسعة من الأنورو الجنوبية الى مملكة أوغندة .
وعادة نظم ادارته الحماية . وجعل العاصمة فى انتيب Entebbe

ولكن لأجل توطيد سلطان الحماية الانجليزية كان لا بد من القضاء
على كل الثورات والقتال المحلية والعمل فى الوقت نفسه على إفناء
القوات السودانية بسوقهم فى كل مكان لاختاد القتل التى لا انقطاع لها
وإنهاكها بأعمال حشة ومهبات بعده فى غابات أوغندة والأيورو
وصحاريهما وأحياناً فيما وراء حدودهما .

لم يدق أولئك السودان طعم الراحة يوماً واحداً منذ جندهم
لأحارد فى سبتمبر سنة ٩١ . وبعد سفر لأجارد « أدوا خدمة جليلة
تقاتلتهم البايورو والباجنده العصابة » ، وفى الأشهر الأخيرة من مأمورية
لأجارد وبعدها قاموا بمساعدات قيمة لمكدونالد نفسه . لذى كان عين فى
أواخر سنة ٩١ رئيس المهندسين المكلفين بالدراسات التمهيدية لمشروع

(١) Lugard, Vol. II. p. 478-479

السكة الحديد في أوغندا . ولأعدائه اليوزباشى برنجل Pringle والصاغ كانجهام Cunningham لذي عهد اله بتنظم قوه مسلحه وعيرهما .

كان ماكدونالد رجلا فيه شراسة وشكاسة . وقد شاءت الأقدار أن يعود ثابة في سنة ١٨٩٧ على رأس حملة ورفقته الصاغ أوستن Austin الذي اشغل تحت رياسة ماكدونالد في أوغندا في سنى ١٨٩٠ - ١٨٩١ واليوزباشى برنجل الذي شغل في سنى ١٨٩١ - ١٨٩٢ وضاط آحرين من الهند .

غادرت هذه الحملة بومباى في ١٨ يونية سنة ١٨٩٧ ووصلت موباسا في ٩ بولة في طريقها الى أوغندا . وقد استغرق قطع المسافة في الداخل ثلاثة أشهر . أما عرض الحملة فحجب أن يذكر أنه كان تقرر في سنة ١٨٩٧ الرحب نحو الخرطوم لسن مارشان (حملة فشوده الشهيرة) واتقاء الخطر الذي يتهدد النيل الأبيض .

وكان خطه الانجليز المردوخه اعاده فتح السودان بمهاجمه من الشمال والونغل في نفس الوقت في جنوبه من ناحيه أوغنده . وقد صرحت ورايه الخارجيه الانجليزيه لماكدونالد أن يأخذ معه القواب السودنيه وكانت عائدته في ذلك الوقت من مطارده قواب مواى في اقليم بودو Buddu فان مواى بعد أن ينس من خلع بر الانجليز اضطر الى الفرار واللياذ بالمنطقة الألمانية .

وقد شرح هارى هولسون . الذي عين فيما بعد حاكما عاما لأوغنده . تاريخ ثوره السودانيين في سنة ١٨٩٧ وأسبابها ورعما من تحيزه الظاهر في بعض المواضع فان كتابه محاولة حديده لايرار الخفصه وحسنه أنه بين لنا بعض ما كان يشغل بال الانجليز في ذلك الوقت .

بعد أن ذكر الخدمات التي أداها السودانيون في عهد ماكدونالد الأول (٩١ - ٩٢) فان هولستون « ان السهولة التي تمكن بها أولئك

السودانيون الشجعان الأوفياء من دحر قوات قبائل البانيورو العظيمة
والجندة والباهيا قد ولدت في نفوسهم أشد الاحتقار للسكان الوطنيين
في الحانة من وثنيين ومسيحيين . أنهم مسلمون متعصبون كانوا يحتقرون
في داخل سربرتهم الرجل الأبيض باعتباره مشركا وكانوا يحملون دائما
نفس ممالك من صنعهم في هذه الأقطار الخصة التي يسهل فتحها .
ويمكن القول ان ضابطهم (الانجليز) لم يكن اختارهم في كل الأحوال
موفقا ، وقد سلك بعضهم نحوهم مسلكا فظا غليظا .

« وكاتب الادارة ببب مشان القل الكرى التي أصبحت من
مسلمات شح البضائع وغيرها من ساحل أفريقيا الشرقي عاجزة
عن أن تدفع رؤوسك السودانيين أجورا مناسبة . في البداية ، أو تدفع
لأجور باسطاء . فترتب على هذه الحالة وحود متأخر مرتبات متراكمة .
بعدا ذلك ، شاع الحوادث كهرب موانجا وثورته الناندي (1) Nandi
لى أعقبه بقليل في الجزء الشرقي من الحاية أن يرسل السودانيون عاجلا
في مكان سحق مئات من الأميال سيرا على الأقدام في أرجاء الحاية من
قسم الى الآخر . ولم يكونوا مطمئنين على نساءهم لأن زنوج أواسط
السودان مولعون بتعدد الزوجات وهم يحسون أن تلامهم نساؤهم
ألى يذهبون ليقصوا حاجاتهم في حياة المعسكر . ولكن سرعة الحركات
العسكرية فرقت بينهم وبين زوجاتهم وأبنائهم وحشهم . وكانت هذه
الفرقة تدوم أحيانا أربعة أو خمسة أشهر متوالية . ولذلك كانت صدورهم
موجعه وروح التمرد الكامل تفتلى فيهم حتى حدث حادث اندفعت به
الثورة » .

(1) تكلم جونستون في كتابه : أفريقيا (ص ٢٨٦) عن القوات
السودانية «التي كانت على الدوام مشنكة في حروب ضد القبائل الوحشية
الحلية في هضبة الناندي . وضد ملك الواغنده الذي أنقلب على الانحيز
وأصبح مسلما ، وضد قوات الأونيورو التي كانت تحاول استرداد
الأراضي المفقودة » .

وصف جونستون بعد ذلك حملة ماكدونالد وحاله الخنود الذين سيراقتونه : « كانوا مرهقين بالسب وبمعارفة روجاتهم باستمرار ، مع شديد تعلقهم بهم . وكانوا لا يحسنون الظن بنزاهة الادارة بسبب عدم دفع المأجر لهم . وكانوا يحشون الهلاك في بلاد محمولة بعده كل البعد عن البلاد التي ألفوها . لذلك قرروا ان لا يرافقوا الحملة وأن يعرضوا شكواهم في الوقت نفسه على أحد الضباط الإنجليز في كامبالا . ولكن هذا الأخير رفض أن يسمع اليهم فاجمعوا أمرهم على تنفيذ الأمر على أن يذهبوا فقط الى محطة رافين Ravine في المديرية الشرفية . للقاء ماكدونالد فيها . وهناك كان أملهم عظيما في الاتصال بحاكسون أحد كبار الموظفين المدنيين لأنهم كانوا يعرفونه جيدا ويحبون فيه ميلا الى العدالة وكانوا يريدون منه أن ينوسط لهم في إلغاء الأمر الصادر اليهم بالخروج من البلاد مع ماكدونالد .

ولكنهم حين وصلوا رافين أبلغوا أن الأمر يجب تنفيذه أما فيما يتعلق بظلمهم الخاص بتأخر مرتباتهم وبالعامل المطرد في الحملات لمحلفه فيسينطر فيها بعد عودتهم من حملة ماكدونالد . وعلى أثر سوء تفاههم وقع بين السودانيين وأحد ضباط الحملة في رافين صدر لأمر للسودانيين بسليم أسلحتهم فرفضوا . ثم أطلقت النار من فوق رؤوسهم فتأثروا جحرة وحاولوا الوصول الى قلب أوعده مخربين في ضريفهم المحطبات والمخارن وما اليها . وقد تمكنوا أخيرا من الاسيلاء على حصن لوبا Luba وأسر الصاع ثرستون Thruston وبعض الإنجليز ونفيذ حكم الاعدام فيهم » .

وهنا يقول جونستون : « ان الحوادث التالية حديثة جدا وليست بحاجة الى التعريف ^(١) » .

(١) H. Johnston, The Uganda Protectorate (vol. I. pp. 239-243)

وتتلخص هذه الحوادث في أن ماكدونالد . بمساعدة جاكسون ونفر
من الضابط والموظفين . وأعضاء الجمعية البشيرية البروتستانتية . تمكن
بعد عراك جبار في صروف صعبة . من التغلب على الثوار وطردهم من
أراضي حماة أوغنده .

وقد سرد توسس . الذي اشترك في حروب ماكدونالد . حوادث
سنة ١٨٩٧ (١) . بحسب هذا المؤلف ، في بداية الثورة وخصوصا في
وقت حصار لوبا العصب كانت حامات أوغنده كلها مؤلفة من
سودانيين الذين يبلغ عددهم حوالي اثنى عشر ألف جدي . وكان في الأنبيرو
من ٤٠٠ الى ٥٠٠ سوداني موزعين بين ستة مراكز على مسافات شاسعة
حدا لبح شرق القاع مقام داجور Dugmor الذي كان مقره الرئيسي
في مارندي . وفي إقليم الطورو الغربي Toru كان يوحد البورباشي سينويل
Sirwell ومعه فصيلة من السودانيين سب على ولائها إبان الثورة كلها
وقامت فيما بعد بعمل رائع صد قوات موانجا حين تمكن المثلث السابق
من الهرب من أراضي الامامه وحاول بسلاحه أن يحفظ الضغط على
الثوار . وكان في إقليم بودو Bu ddu الجنوبي الغربي ٢٥٠ سودانيا .
وكان أكبر الخطر أن تحدث معا ثورة عامة مشتركة في أوغنده والأنبيرو .
وقد نجحت الإدارة في أوغنده في احتدب لوانغنده أي صمها
والحلولة دون اتصال القوات المتعثرة ببعض بعض . وكانت طسعة الأشياء
تساعد على ذلك . والحجر بين هذه القوات وبين قوات موانجا وبعض
الواعده المسممين من ناحية وبين قوات كاناريكا من ناحية أخرى .

وقد هزم موانجا في يناير سنة ١٨٩٨ ثم تبعه يرمن قبيل كاناريكا
الذي قهرته قوة التجبيرة مؤلفة من جنود هندية متحالفة مع الباجنده
أو الواعده . وقد وقع الملك في الأسر وثل عرشهما .

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda. 1903.

استمرت عمليات ماكدونالد من سبتمبر سنة ١٨٩٧ الى مايو
سنة ١٨٩٨ وكانت مملوءة بتفاصيل ودفق مؤثرة . نذكر على سبيل امثال
ما يتعلق منها بأصول الثورة :

بحسب احدي الروايات اى صهرت في الصحف الانجليزية لم ينس
السودانيون ولم يعمرؤا المعاملة التي عومل بها سيمبث في سنة ١٨٩٣ .
وحلف الآر ، في اهمه هذا العامل في الثورة . وعلى أية حال فمما
لا شك فيه ان بلال أفندي قد ان ترقى عنده أقسم برأس انه ان
لا يعود الى الخدمة تحت رياسه ماكدونالد . وقد علم أويس على هذه
الرواية قائلا « كان ماكدونالد نفسه منح بلال أمين ترفه حراء له على
مسلكه النبل في أثناء قلاقل سلم ، ولكنه قبل أن يصل الى محطة رافين
R vine كانت الثورة قد اشتعلت وقد لحق به الثوار في نايدي . وبعد
موت مبروك وسيمان صار رئيس الثوار ونهر كفاء بادره على الرغم من
العار الذي لصق به من حر ، مقل ترسون وآخرين .

« وكان خوطب في البداية في مرافقة الحملة فلم يثر صعوبة ما وطلب
فقط احارة بضعة أسابيع فأحب الى طلبه . ولكن حدث انه عندما وصل
الى كامبالا لبري أسرته وصله أمر بالذهاب نوا في جمعه محله صغره .
وتلقى الوعد بان يمنح دقي الاحارة عند العوده . ولكنه حين عاد استغ
ان هذا الوعد لم يوفى به نظرا لحاجه الحملة (ماكدونالد) الملحة الى
خدماته في الحار ولما تلح في اسدياء أجارته ألقى القبض عليه لعصيان
الأوامر وحرد جميع صباط فصيلة من رتبهم . وقد أطلق سراحه فيما بعد
وأرسل للحاق بماكدونالد . ولكنه كان نغرق حفا على الطريقة التي
عومل بها ويؤكدون أنه حلف في ذلك لوقت على رأس انه بان لا يذهب
مع أية حملة فقد أنهكه التعب وكان دائما غائبا عن أسرته ولم يجد أي
تقدير لعمله الماضي وخدماته واخلاصه (١) » .

Major Austin, With Macdonald In Uganda, p. 301-302 (١)

ظاهر من كل ما تقدم أن فاتحى أوغندة والأنشورو ومديرية خط
الاسواء القديمة وكل أعلى السل هم أولئك السودانيون الكبار الذين
طلوا على المحى وصروف الأيام ثابتين على ولائهم لحدوى مصر وتقاليدهم
ورايهم . وظهر أن سياسة جبارة واحدة في جوهرها . وأن تباينت
صورها وأشكالها . فد اتبعت آراءهم طوال عشرة أعوام .

ولس أملت مصر السودان «مُر بريطانيا فاني لم تتنازل قط عن
حقوقها المحقة في السودان وملحقاته .

وقد أعلن بيجران باشا وزير الخارجية المصرية . في ٢٧ أغسطس
سنة ١٨٩٢ . « أن مصر تحفظ بكافة حقوقها على الأراضي التي كانت
تتألف منها مديرية خط الاسواء المصرية » أي مناطق البحيرات وأعلى
البل التي كانت منذ سنة ١٨٧٥ منطقة النفوذ المصري في أواسط
أفريقيا .

والواقع أن إنجلترا باستيلائها على أوغندة وأنشاء « حماية » جديدة
في حدود واسعة كان غرضها استغلالها بح . ولن يتغير الموقف القانوني
من جراء إخلاء مصر لمناطق بحيرة فكتوريا (أوغندة وعاصمتها) وبحيرة
ألبيرت بيارا (الأسورو . ومديرية خط الاسواء في الشمال . والساحل
الطوى لبحيرة كوحا أو ابراهيم ومطقة كافالي) . لأن ذلك الإخلاء
كما قلنا كان قهرياً . على أن الحقوق الادبية لمصر لا سبيل الى طمسها وحسبنا
أن نذكر أنه في أثناء الثورات المحلية التي تعاقبت على الممالك الاستوائية
منذ سنة ١٨٨٨ كان في البلاد حكومة صحيحة ونظام سياسى واجتماعى
ظلاً فائض . ربما من جميع الفن والحروب والاعتداءات السياسية
والانقلابات . دون أن تخل ميراثهما . حول راية الحدوى التي كانت
راية حضارة وعمران .

ويحس بسا الآن أن تتساءل عن نتائج السطرة الانجليزية في
المديريات المتروكة .

وضع الأب روسكو الانجليزي كتابا عن شعوب أواسط أفريقيا .
جاء فيه عد ذكر البنيورو (أونيورو) واكتشافات سبك ويكر والغارات
التي شنها بيكر ، وخصوصا الانجليز من بعد . ضد كابريجا . « في تلك
الأزمة كانت البلاد غنية لسكانها وماشيتها ولكنها الآن أصبحت فقيرة
بسبب الحروب الطويلة في عصر كابريجا . وقد تبدد السكان . وأخذ
عدهم يتنافس منذ الاحتلال الانجليزي واضطرار الكثيرين الى المهاجرة
قرارا من التسخير وصرية السكن (hut tax) اللتين حتمتهما السلطات
عليهم .

وإذا كان الوطنون أحرارا في زراعه القطن فإن بيعه مقيد بنظام
حكومي خاص وبشروط لا تتفق مع الرفاهية اطلاقا .

« وكانت الحالة في أوغندا هي نفسها في الأنيورو التي ضمت اليها .
اذ توجد مدن وتوجد طرق جديدة تحترق البلاد وحالها من أفصاها
الى أفصاها ولكن ذلك كله « ليس الا تسخه السخري المفرط لصاح
الأوربيين وحدهم » .

وقد كان انشاء الطرق والمباني الحكومية « يثير عاصفة من مساوىء
استعمال السلطة والمعارضة » لأن الحكومة كانت دائما تنجأ الى تسخير
السكان في هذه الأعمال ولا تدفع الا أجورا اسمية تقدرها السلطات
ثم تسقط منها الضرائب . وكان الأوربيون الموطون من ناحيتهم ،
يفتدون بالحكومة في محاولة اسغلال الوطنيين وارعامهم بمقتضى قانون
الاسديلاء الخاص بتشغيل الوطنيين . على العمل بأجور لا قيمة لها .
وقد ترتب على هذه الحالة أن ترك الوطنيون حقوقهم « ومهاجرت أفضل

صفت العمال صوب البلاد التي يشغلون فيها أحرارا دون أن يقسروا
على القيام بأعمال لا ربح فيها » .

وقد حتم الأب روسكو قوله : « لا ريب ان مئات من الأميال
الحديدية قد ساعدت على تكثير محصولات الامبراطورية ولكن هذه البلاد
على الرغم من ذلك لم تصح مفرأ ثابا للرجل الأبيض » .

الكتاب الخامس

الفصل الرابع عشر

السودان (١٨٨٥ - ١٨٩٨)

في أيام المهدي وخصوصا منذ موته الذي حدث في يونيو سنة ١٨٨٥ كان أكثر أهالي السودان وقائمه تصبى ذرعا لسطام الارهاب وتصهر ولاءها لمصر . ولكن السودان كما قال أحد الانجليز - كان يحب أن يظل على حالته « يأكل بعضه بعضا » .

وقد أفاد برقه أرسلها من سواكن كامرون Cameron في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ أن عوض الكريم باشا أبو س في أم درمان كان يعمل على تهدئة الشيع واجماع حتى تبين نيات الحكومة . وكان أبو س دعم قبيلة الشكرية الكبيرة .

وفي برقه أخرى في نفس اليوم أبلغ كامرون الفصل الجنوبي ن رسولا حضر الى سواكن وأشاه أن سار كانت تنظم تجمع عظمه جمع الهاربين من العصاة . وأن حامية سار الى كان يبلغ عددها ١٠٠٠٠ رجل كانت مسيطرة على المملكة كلها وأن مدونه من قتل قائل فوكر كان وصلا في اليوم السابق لطلب الصلح .

ومن جهة أعلى القائد الانجليزى جريفيل Greffell من أصوار ، بتاريخ ٢٧ سبتمبر . أن سار كانت لا تزال صامدة وأنه اذا احتفظ الحكومة بدقلة تمكنت سار من اصلاح الموقف في الخرطوم .

وفي ١٢ أكتوبر كتب المحرّتون من القاهرة : « ان صياح مركري
دنه ودفنه المهيمين في الوقف الخالي هو بلا أدنى شك العقبة الكبرى
في سبل تهدئة السودان العربي . ولو بقيت سنار على ولائها قوية مرودة
بالبواحر الكثيرة وبقي الليل لعاية دية تحت سطره الحكومة لأعلنت
المملكة الوسطى حصوعها بعد موت المهدي بقليل ولكان من المحسّل جدا
أن يعمد القاره وهم أهم عوامل الثوره في الغرب (كما كان الهدندوة في
الشرق) الى الانسحاب الى منازلهم في الجنوب (١) » .

والحوادث التالية ليست بحاجة الى التفصيل . فقد سقطت سنار ،
وأيدت الحامية ورحاها الصناديد . وشرع النجومي يتأهب . على رأس
٣٠٠٠٠ مقاتل للزحف على أبو حمد وكروسكو وغزو مصر .

وكانت مصر يجب أن تقل بقواتها على حدودها في حالة حذر مستمر .
وقد أراد الانجليز مع كل اتصال مع السودان قصدر أمر وراري باريج
١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٥ تقرر بمقتضاه وقف كل تجارة مع السودان .
وبذلك صرب مصر على نفسها حصارا تجاريا . وكانت العناصر الموالية
من الشعب السوداني الذي « تحفه وتسبّد به قلبه متعصبه متهيجه »
مضطره على الدوام الى التحالف مع هذه « العصا به المحرّبة » .

وكانت جميع السلطات في القاهرة لطالب برفع الحصار ولكن عبنا
رؤن الحكومة الانجليزية لم تترحّز عن خطتها .

وانا نجريء ها بذكر دراموند وولف Drummond Wolf . بعد أن
ذكر أن الحصار قد مضى عليه ثمانية أشهر . قال في كتابه المرسل الى روريري
باريخ ٣١ مايو سنة ١٨٨٦ : « اذا منع بتاتا أصدقاء السلام من
السودانيين من مراولة أعمالهم المعنادة . لم يكن بد من انضمامهم الى
الدراويش . على حين لو أن التجارة يسرت سبلها وعاد كل الى مهنته
السمية كان في ذلك أكبر اغراء لهم على المطالبة بوقف القتال .. »

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٢٨١ .

« وليس من الممكن طبعاً أن نحزم مقدماً بأن تيسير التجارة تؤدي
نوا إلى هزم التعصب الذي كان له أكبر الأثر في الحروب الحديثة . لأن
نتائج مثل هذا الاجراء السلمى لن تحقق الا تدريجاً . وحسب أنه
سيدخل في السودان الوسائل الى تساعد على تكوين حرب سلام » .
وقد أرسل الخديوى يوسف باشا شهدى الى حلفاء ليدرس من كتب
الحالة في السودان . وقد دامت مهمته حوالى عشرة أشهر (نوبية ٨٦ -
مارس ٨٧) .

كان شهدى باشا يلح باستمرار في ضرورة اعاده التجارة خصوصاً
وأنه قد استوثق من تعلق السودان بالخديوى . وقد كتب جودت بك
رئيس الديوان الخديوى الذى كان ملحقاً ببعثة شهدى . تقريراً بتاريخ
١٢ مارس سنة ١٨٨٧ جاء فيه . « ان القبائل والعشائر الى كانت ملتفة
حول المهديّة أحدث تدمير من تهوّر العصاة وبدأت فعلاً حركة مقاومة
صريحة بالسلاح . وعبد الله العائشى في الوف الحالى في أشد الاضطراب
بسبب العصيان الضخم الذى نظمته عرب الشرق الشكرية والحمادة
وأبو روف » .

وقد وفد على القاهرة دفع الله أحد رعماء السودان وأحضر معه
الخديوى كنانا مرفوعاً اليه من مناب كبار المشايخ في كردفان . بتاريخ
٢٩ دى الحجة سنة ١٣٠٣ هـ (سبتمبر ٨٦) . جاء فيه : « اننا نضع كل
أهل في انقاذنا في ارادة الخديوى لنصح الامه كلها بحكومة بواحد
كما كان الامر من قبل » .

وقد حدثت في سنة ١٨٨٨ مناقشات في المجالس البريانية وفي الصحف
بأنجلترا بخصوص سواكن والسودان . فاقترحت مجلة سارداى ريفو
« فتح السودان من جديد وتوطيد السيطرة الانجليزية على أعالي النيل »
ذعر الرأى العام في مصر من هذه السياسة واضطر رفاض باشا

رئيس الوزارة الى ارسال مذكرة الى بيرج . بتاريخ ٩ ديسمبر (٨٨)
قال فيها : « لا يمارع أحد في أن النيل حياة مصر فهذه مسألة ظاهرة
مفروغ منها . والنيل هو السودان فلا جدال في أن العلاقات والصلات
لتي تربط مصر والسودان لا يمكن فصلها كالعلاقات بين الجسد
والروح .

« وان حكومتى لعظيمة الأمل في أن تسكن بالوسائل السلمية
(كالجارة) من استعادة نفوذها تدريجيا في هذه الأقطار .
« وان ترك سواكن لدولة أوربية لا يمكن التسلم به لأن معناه اتجار
لمصر » .

و لحققة كما قال دارسي ^(١) ان المسألة المصرية كانت مرتبطة بطريقة بطريفة
لا انفصام لها بمسائل السودان والبحيرات والحبشة أيضا « فمن هذه
العناصر الثلاثة تتألف في الواقع مشكلة واحدة أعدت لها إنجلترا بمهارة
نادرة حلا يتفق مع مصالحها » .

وسما كانت البحيرة تعمل على الوصول الى النيل من الشمال كانت
فرنسا تحاول السبق اليه من طريق الكونغو . ولما وجه سؤال في سنة
١٨٩٥ الى الحكومة الانجليزية بخصوص سياستها السودانية والخطوة
الى قررت اتخاذها في حالة تدخل من جانب فرنسا . أجاب السير ادوارد
غري . العضو في وزارة روبرتي . بنصريح ٢٨ مارس الشهر الذي صار
من ذلك الوقت القاعدة التي ترجع اليها الحكومة الانجليزية في كل مناسبة .
« ان إنجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ...
وعما أن مصر لها مطالب في وادي النيل فان منظمة النفوذ البريطاني تشمل
جميع وادي النيل » .

(١) Darcy, Cent Années de Rivalités Coloniales, 1904

وقد رأينا كيف تصرف هذه الحراسة الأمية أو الوصية في الأراضي المصرية وكيف وزعت بعضها على إيطاليا والحبشة وولائه انكولغو... وفي أثناء اجتماع ١٠ أبريل سنة ١٨٩٥ قرر العرب التجارية بلديده دعوة الحكومة « إلى اتخاذ الإجراءات الناحية في سبيل تحسين المهمة الانجليزية على وادي النيل جميعه من أوعدده في فاشوده » .

ولاحل أن شر المسألة المصرية كلها وسارع البحري في « حقوقها » على السودان ووادي النيل قرر فرنسا . في سنة ١٨٩٧ . الوصية إلى النيل من الحبوب بواسطة مارشان Marchand (١)

(١) الواقع أن فرنسا كانت تطمع في الاستيلاء على بحر العرب ووصف شمال افريقيا ووادي النيل وكانت انجلترا تطمع في حوض وادي النيل . على الأقل من مساحة أبي الحرسوم . منطقة انجليزية بحته . جاء في خطاب لسمالبري إلى الملكة فيكتوريا بتاريخ ١٠ يولييه سنة ١٨٩٠ بخصوص الاتفاق على مناطق النفوذ مع ألمانيا والتنازل لها عن جزيرة هيبولند « وأن الوزارة بالاجماع توصي بقول هذا الاتفاق . أن العوض عن هيبولند هو الحماية على جزيرتي زنجبار وبمبا و ١٥٠ ميلا من الساحل بالقرب من سلطنة قبو Witu وعدم المطالبة من جانب ألمانيا حتى على البلاد الحفصة الداخله . وساء على هذا الاتفاق يقع جميع منطقة الحارجه عن حدود الحفصة وبلاد الخلا تحت النفوذ الانجليزي لغاية الخرطوم » .

وقد كتب لاجارد Lugard في يولييه سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه انجلترا وفرنسا في وادي النيل في محله ناشونال ريفيو جاء فيه « في رده على ادوارد غراي اعلن هانوتو ، بتاريخ ٢٨ مارس ، ان انجلترا به بتحدد مظلما في أي وقت مضى أي جزء من وادي النيل يتألب به لمصر وأي جزء يتألب به لفرنسا . وحواف على ذلك ان مصر قد تقدمت في فوجائها بعوانها الذاتية لغاية الخرطوم . ولكن اسداء من هذه النقطة كن مسح وكن ادارة تمام بها بيكر وعردون كذا . ان بعد منطقة النفوذ المصرية لغاية الحرسوم . واسداء من هذه النقطة بسديء منطقة النفوذ الانجليزية أي تشمل على « جميع حوض النيل غربا وحيوبا مع مديريه حف الاسوان . وبحر العرب ودارفور وكردفان . وشرقا جميع اسلاذ الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والمحيط الهندي . باستثناء الأراضي التي حددتها انجلترا بوصوح في معاهدة أبريل سنة ١٨٩١ وأقرب بأنها حماية ايطالية » .

« أن فرنسا مطالبا بالخلاء عن مصر . ولكسأل نحو عنها حتى نحن فعلا المنطقة التي طالبا بها لغاية حدود مصر . ومضى أصبحت مصر في قبضة يدنا بمقتضى مركزنا على النيل . عندئذ وعندئذ فقط عمو نحوونا » .

وفي السنة عينها أرسلت إنجلترا مكدونالد على رأس حملة ليسبق
مارشان الى فاشودة من طريق أوغندة . وكانت في الوقت نفسه تفكر في
إرسال حملة من الشمال بقيادة كتنر للاستيلاء على الخرطوم وبحر الغزال
في الجنوب .

وقد تعذر على مكدونالد إتمام مهمته بسبب ثورة السوادنيين التي
سبق ذكرها .

أما حملة كتنر فكان يجب أن تصل في المعاد لزم فرنسا سياسيا
في فاشودة .

وكان للورد كرومر . في يونيو سنة ١٨٩٧ . يعارض في إرسال
قوات بريطانية بسبب الأعباء المالية الباهظة التي تنشأ من الحملة ولسبب
عدم صلاحية الجنود الإنجليز من الناحية الجثمانية لحرب السودان .

« فان الجندي الإنجليزي ليس عنده أقل استعداد ليكون أداة حرب في
جو كجو السودان . ولم تنجح أية فائده من إرسال الأورطة الانجليزية
في الصيف الماضي في دهلة . ولا بأس أن نذكر أنه من بضعة أيام فقط
حدث استعراض في القاهرة بمناسبة عيد ميلاد الملكة . وعلى الرغم من أن
الجو لم يكن حارا بدرجة فوق العادة فقد سقط حوالي ١٢٠ جنديا
وخرجوا من الصف من قوة أعدادها ١٨٠٠ . وقد يقول قائل ان
البريطانيين قاتلوا في السودان . وردى على ذلك ان التاريخ الحقيقي
لمعارك سنة ١٨٨٥ لم يكتب قط ، ولا أعتقد أن أحدا يفكر في إجراء
التحربة من جديد » .

وهذا ما يفسر لنا الأسباب التي من أجلها سيفتح حمل الفتح الثاني بصفة
خاصة على كاهل الجندي المصري والمالية المصرية .

وعلى أية حال كانت الدوائر في لندرة مترددة في تحديد تاريخ قيام

الحملة : أيعجل بها في سنة ١٨٩٧ لمواجهة التهديد الفرنسي . أم تؤجل الى السنة التالية . وكان اللورد ولسلي من أنصار التعجيل .

وكان اللورد لانسدون Lansdowne وزير الحرية . من جهة . يعارض في أي تقدم سابق لأوانه نحو الخرطوم .

وكان رئيس الوزارة سالسبري يؤيد الرأي الأخير كما يتضح من كتاب كان بحث به الى لانسدون بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٧ :

« ان الشرين اللذين يتعادلان هما من ناحيته . لمجهود الذي سطلب من الجيش المصري وجيش الملكة والذي تشير اليه في كتابك ، ومن ناحية أخرى ، المصاعب السياسية الدولية التي قد تنشأ من وصول مكتشف فرنسي الى النيل قبل وصولنا نحن الى الخرطوم . على أن مثل هذا الخطر لا يخيفني لأننا مهما كانت الظروف سنعرف كيف نواجهه » .
وبعد أن أكد سالسبري أن أي احتلال فعلي (اشارة الى مارشان) لن يكون جدياً قط قال مؤيداً فكرة التأجيل

« يجب أن لا يغيب عنا أننا بقضائنا على قوة الدراويش تقلل أيدينا المدافع الذي يحتفظ لنا الان «لوادي» » .

وهذا هو النص الانجليزي لهذا الاعتراف الخطير :

It is to be remembered that by destroying the Dervish power we are killing the Defender who is holding the valley for us now.

وقد ورد في مذكرات بلت في سنة ١٨٨٥ اعتراف من هذا القبيل هذا نصه :

« ٢٦ مارس (١٨٨٥) — توجد علامة على أن حملة سواكن قد قاربت النهاية ... »

« نعشيب اليوم عند سدني بكسون (عضو مجلس النواب)
وحسب لحاج مده كورسي . وكان على الجذب الآخر من مدام بكسون
في حديثي أن اللورد هارتشور قد كتب تحية الى صديق له قائلاً
انه ليس في وسعه أن يفهم لماذا يهتدون لمهدي مع انه . أي المهدي .
ثبت أنه الرجل الوحيد الذي كان يمد يده ورررر صاحبه
الحالة ١١ » .

هذان الاعترافان يلقيان كل الضوء على السياسة الانكليزية في
السودان منذ سكر (١٨٧٠) وعردون ان كشر واستعادة السودان
(١٨٩٨) .

ولمهم أن مصر ، بتأثير فص عن حقوقها في جميع الممالك التي كانت
تألف منها الامبراطورية السودانية . ورد في الكتاب الأزرق الذي
صدره اللورد سالسبري في سنة ١٨٩٨ عن مسألة فاشوده كتاب من
نظر من على باب وزير الخارجية جاء فيه .

« ان حكومه الخديوي كما عرف سادكم ، يعب عن نظرها في حين
من الاحكام العوده في استئناف حلال لاقالم السودانية التي هي
مصدر خضاد ذاتها مصر . ومصر لم تنسحب من تلك الاقاليم الا غريب
قوة فاهره . وفي استعادة لخرطوم بمقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر
ودي النيل الذي سحب مصر في سبيله لضحايا العظمة .

« واعلم الحكومه مصريه ان مسألة فاشوده في هذا الاوان هي
موضوع متوضعات بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فبها تكل الى أن
أطلب من سادكم ان يعضوا بحسن الوساطه لدى اللورد سالسبري
ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها في لا تقبل نزاعا ولكي تعاد اليها الاقاليم
التي كانت تحتها حتى قيام ثورة محمد أحمد » .

الفصل الخامس عشر

حدود الامبراطورية الجغرافية

كلتا الخريطين الخريطة التي وضعها أركان حرب الجيش المصرى في سنة ١٨٧٨ ونشرها الأمير عمو طوسن في كتابه (مديريه خط لاسواء) والخريطة التي نشرها الدكتور أبت Abbare عن لاسكشاف الجغرافيه في عصر اسماعيل لا نحو من نصف كبير .

وسن أدق وصف لحدود السودان أو الامبراطورية السودانية قبل الثورة المهدية هو ما كتبه استوارب في تقريره لسنة ١٨٨٣ وما كتبه هارى جونستون في كتابه (بريطانيا عبر البحار . افرقا) . وقد ذكرنا من قبل وصف استيوارت لكننا نعيده هنا لأن الوصف يكمل بعضهما بعضا ويكونان معا صورة صحيحة لحدود السودان .

قال الكولونيل استيوارب : « ان البلاد التي يحدها الآن المصريون ويطلقون عليها اسم (السودان) هي بلاد كبيرة جدا مرامه الاضراف طولها من الشمال الى الجنوب أى من أسوان الى خط الاسواء - نحو ٢٤ درجة أو ١٦٥٠ ميلا . وعرضها من مصوع الى عرنى دارفور نحو ٢٢ درجة أو ١٢٠٠ الى ١٤٠٠ ميل ، واذا ابتدأنا من نقطة رابيس على ساحل البحر الأحمر شرقا على خط موزاة الدرجة ٢٤ الى نقطة عبر معينة في صحراء ليبيا تعترضها الدرجة الثامنة والعشرون خط الطول . ومن هناك يتجه خط الحدود جنوبا الى الغرب حتى الراوية الشمالية

العربية من دارفور في نقطة تقع حوالي درجة ٢٣ من خط الطول ثم يتجه في استقامته نحو الجنوب الى الدرجة ١١ أو ١٢ . ثم يتجه جنوبا بشرق عبر مونسوتو وبحيرة نائزا حتى يماس مدخل فكتوريا نيانزا ويصعد من هناك شمالا الى الشرق فيشمل اقليم هرر ثم يصل الى المحيط الهندي عند رأس جردفوي ويصير على ساحل البحر الأحمر حتى برابيس » .

وقد أضاف استيوارت بعد ذلك الملحوظة الآتية : « لقد رأيت من الأفضل أن أضع مديرية هرر ضمن حدود السودان ، لأن هرر ليست وحدها تابعة لحكومة السودان ولكننا لا نعلم الا القليل عن الجهات الواقعة بينها وبين السودان فمن المنحيل القول أين تنتهي مديرية معينة وأين تبتدى أخرى » .

« ان جميع المنطقة الواقعة في جنوب الحبشة ولمسده من فكتوريا نائزا الى المحيط الهندي تكاد تكون من ناحية العملية مجهولة تماما . وسكانها من جالا وسومال وحررين لا يشجعون السائحين على ارتياد بلادهم » .

وقد أرفق تقرير استيوارت بخريطة رسمها ميسيداليا في الخرطوم سنة ١٨٨٣ وهي مطابقة في خطوطها الأساسية لوصف استيوارت . ولواقع أن حدود السودان العربية بناء على هذه الخريطة بعد أن تتجه جنوبا الى الغرب حتى الزاوية الشمالية الغربية من دارفور في نقطة حوالي درجة ٢١ من خط الطول (لا ٢٣ كما يقول استيوارت) تتجه جنوبا في خط مستقيم تقرب لعاية ملتقى نهر امبومبو ونهر الأولة في الأوبانجي ومن هناك تتجه جنوبا شرق مع الأولة حتى منوبوتو ثم تمر بالجنوب العربي من بحيرة ألبرت نيانزا — التي كانت تظللها الراية المصرية — حتى تصل الى ساحل فكتوريا نيانزا الشمالي .

وبعبر خريطة بوخا الألمانى الى ظهره في كتابه (السودان تحت الحكم المصرى) أدق بكثير من خريطة ميسيداليا في رسم حدود جنوب عربى السودان أو حدود بحر الغراب ومديرية حط الاسواء من ناحيته حوض الكونكو ومجرى الاولة وامومو المدين يجمعان في لأوبانجى . وعلى أية حال ان أهمية خريطة ميسداليا وتحديد السنورب يبدو في وضع الأونورو وأوعنده ضمن حدود السودان والاعتراف بان مديريه حط الاسوء أو مديريات حط الاسوء كانت تمتد جنوبا حتى ساحل فكتوريا .

يضاف الى ذلك أن استيوارب وضع حسب المنطقة الواسعة الواقعة في جنوب الحبشة بين هرر وفكتوريا ببرا والتي لم تحبها الحبشة بعد في منطقة النمود المصرية (كافا وبلاد الجالا ولسومال) . وقد ذكرنا من قبل ان اسماعيل كان يريد خلق مواصلاط مسطمة وفتح طريق نفوذ في هذه المنطقة من هرر الى البحيرات . وحسب مصر أنها كانت فعلا تلك نقطة ارتكاز قويه في أعراف هذه المنطقة وكان نفودها يوعلى فيها تدريجيا .

وتناء على تحديد استيوارب وميسداليا كان حط الحدود الخوى الشرقى ينتهى على المحيط الهندى الى نقطة قريبة من رأس جردفوى في الشمال . ولكن جونون جعل هذا الخط ينتهى عند مشب نهر الجب .

قال هارى جونسون : « كان السودان المصرى يمتد غربا لغاية حدود وادى وحوض لكونكو . وحتوب لغاية أوعنده . وشرقا لغاية الحبشة وبلاد الجالا . وعلى مسافة من ذلك كانت الامبراطورية المصرية تشمل جميع مملكة السومال من الشمال الى الجنوب حتى نهر الحب باستثناء بعض المين المنعزلة التى كان يحتلها سلطان زنجبار (١) » .

(١) هارى جونسون ، بريطانيا عبر البحار . امريكا بالاجيريه (ص ٤٣١) .

وليس أدل على عبقرية اسماعيل من أنه حاول سق أوروبا الى تقسيم
أفريقيا وإنشاء امبراطورية أفريقية في حدودها الطبيعية والروحاوية .
في حدود وادي النيل ومنايع النيل وممالكها وفي حدود العنصر العربي
الذي أوغل في أواسط أفريقيا . فكانت هذه الامبراطورية متماسكة
منحاسة الى حد كبير من ساحل البحر الأحمر الى المحيط الهندي الى
البحيرات وقد أسست إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٥ -
١٩٠٠) امبراطورتها السودانية على القواعد التي رسمها اسماعيل وأنشأت
خطها الحديدي من موباسا الى بحيرة فيكتوريا وجعلته يمر بين جبل
كنيا وكيليمانجارو ضمنا لمشروع اسماعيل القديم الذي منعه من تنفيذه .
ولم تكن أهميته هذه الامبراطورية الروحانية تقل عن أهميتها المادية
لأن مصر كانت تعمل على برفقة العناصر العربية المتأخرة المنتشرة في
السودان وساحل البحر الأحمر وهرر وبلاد السومان . وكانت في الوقت
نفسه تنوغل محاصرها ولقتها ودبها في بلاد الجالا والوثنيين بين السومان
والبحيرات وفي بلاد الربوح الوثنيين في مديريات حط الاسواء ومنايع
النيل .

وقد ارتكبت اسماعيل غلطين كبيرين وهو يسطر حدود امبراطوريته
داوى الاسراف في الاستعانة بالانجليز وأعوانهم من الاحابث والثانية حرب
الحشة (سنة ٧٦) . أما الاولى فقد درسناها في هذا الكتاب وعرفنا
نتائجها وأما الثانية فان الاحباش ليسوا ربوحا وثنيين يمكن ادماجهم
وليسوا عربا فكان يجب والحالة هذه مراعاة عامل التجانس الذي هو
العمل الاساسي في كل سياسة بناءية ثابتة . وذلك بصرف النظر عن
عوامل اخرى . وقد ارتكبت الحشة فيما بعد نفس العلطة باختلاط
هرر الاسلاميه وحصاعها لضمها وارسلتها ايطاليا حين أرغمت
النحاشي ميسك (في مايو سنة ١٨٨٩) على قبول الحماية الايطالية ووافقت
انجلترا بمعاهدته ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ التي عقدتها مع ايطاليا على وصل

حد السودان الجنوبي بالبل الأرق فدخل أيونا كلها ومخفها هرر
وشوا وكافا في منطقته النفوذ الإيطالي ولكن انصار الأحاش على
الطليان في عدوة سنة ٩٦ قضى على هذا التوسع الضخم .

وعلى أية حال لا يموت أن نقرر بهذه المناسبة أن الماء الكبير كـ
Cave ذكر في تقريره الشهير الذي نشره في سنة ١٨٧٦ : « ن السودان
كما علمنا بعد عى ثروته وسكاه ولفيح الذي يعنه . وانه بعد دفع
مقات دارفور ونحر يده البحرات يدخل في الحراة العامة دخل صاف
يلغ ١٥٠٠٠٠ حنه .

« ولا شك أن احتلال دارفور وحيلة البحرات الاستوائية لينا
بالعمل الناجح في التعبير التجاري ، وقد دخل الخديوي الى حد في
هذين المشروعين لاعاء تجارة الرقيق . ويمكن القول ان حرب الحشة
قد فرضت عنه تقريبا . ومن المحتمل أن يسحب في أقرب وقت من
الحشة وحده لاسواء » .

ان حرب الحشة قد فرضت عليه تقريبا كما فرضت عليه الماء بحره
الرقيق بكمالها العسمة الماهظة وعين لإحاطة وقد حاول الانجليز
بطريقه حديه ابتداء من سنة ١٨٧٦ (وهي السنة الى صهر فيها تقرير
كيف) التطرق الى حد الامبراطورية الجنوبية (أوغندا ومنابع السن
وحط الاستواء) لعدم ما تسرب اليها في الداخل عوامل الضعف من
جاء تجارة الرقيق والأجانب المشرفين على الفائها .

وقد ساعدت إنجلترا سياستها « الهجوميه » المسلحة لي جرب
عليها نحو مصر وامبراطوريتها منذ سنة ١٨٨٢ الدول الأخرى (إيطاليا
وفرنسا وبلجيكا والحشة) على انتهاج نفس السياسة والاعداء على
حدود مصر وحقوقها .

١ ارتيريا - ذكرنا من قبل كيف تكونت ارتيريا فقد اشترت

شركة إيطالية ميناء عصب سنة ١٨٦٩ من أحد الزعماء المحليين ثم اشترت الحكومة الإيطالية الميناء من الشركة في سنة ١٨٨٢ وبدأت توجد فيه إدارة منظمة مباشرة . وكان الطليان يقولون عن توسعهم في الساحل أنهم سيعملون بمساعدة إنجلترا « على اصطاد مفاتيح البحر الأبيض في سواحل البحر الأحمر » . وقد احتلوا مصوع في فبراير سنة ٨٥ واستخدموا جنود الحامية المصرية الباشبورق في بسط سلطانهم . واحتلوا في نفس الوقت بيلون في شمال عصب واستخدموا جنود حامية زولا الباشبورق وأعلنوا في سنة ١٨٨٨ ميناء رولا ضمن أملاك إيطاليا . وأخذوا بعد ذلك يسيطرون حمايتهم على القبائل المجاورة حتى امتد نفوذهم من رأس فصار (جنوب سواكن) إلى أوبوك (١١٠٠ كيلو متر على الساحل) . وفي مارس سنة ١٨٩٠ صدر مرسوم ملكي إيطالي نظم الممتلكات الإيطالية على البحر الأحمر وسماها مستعمرة (ارتيريا) .

ومن ارتيريا كابت تمكر إيطاليا في اخضاع الحبشة لسيادتها فأضمت مع ملبك في ٢ مايو سنة ١٨٨٩ معاهدة أوتشالي التي بسطت بها حمايتها على أثيوبيا . ولم تكن هذه الحماية وهمية إلا في أعين بعض الدول لأن معظم الخرائط والمعاهدات الإنجليزية التي وضعت بعد ذلك التاريخ تصدد الاعتراف بمناطق المسود كانت تدخل أثيوبيا كلها والممالك النابعة لها في منطقة العمود الإيطالية .

وفي نفس السنة التي أمضيت فيها معاهدة أوتشالي (١٨٨٩) أخذت إيطاليا تتوسع في ارتيريا على حساب الحبشة فاحتلت كرن (أو سنهيت) مركز بوغوص ثم أغوردب ثم أسمره (يوليه) . وهذه المدينة الأخيرة في موقع هام عند مصب المارب وعلى طريق مصوع — عدوة .

أما بوغوص فكانت مصر تحتل أطرافها منذ عهد محمد علي وقد احتلتها كلها سنة ١٨٧٤ هي وأرض أيلات Ailet (وهذه الأخيرة مديرية واقعة

بين حاسين ومصوع) . وفي ٣ يونيو سنة ١٨٨٤ أرغمت إنجلترا مصر
تقضى معاهدة عدوة (بين مصر وإنجلترا والحبشة) على التنازل للعاشي
عن سيادتها على الأراضي التي تحدها قبلة بوغوص . وقد تعهد الطليان
باحترام هذه المعاهدة ولكنهم خرقوا نصوصها .

ولما انهزم الطليان في عدوة (أول مايو سنة ١٨٩٦) أمضى الطليان
مع منليك في ٢٦ أكتوبر (١٨٩٦) معاهدة أديس أبابا التي ردت إلى
الحبشة استقلالها ورسمت بصفة مؤقتة الحدود التي تفصل إريتريا عن
الحبشة على خط مارب - بيليسا - مونا . وفي ١٥ مايو سنة ١٩٠٢
حدث الاتفاق النهائي واستقرت الحدود على خط سيتيت - تودلوك -
مارب - بيليسا . وكان هذا التعديل لمصلحة إريتريا - كما رسمت
الحدود بين السودان المصري الإنجليزي وإريتريا (مادة أضيفت بناء
على تحرير مصر إنجلترا) . وقد طلب أماديب وبوغوص مند أو حر
سنة ١٨٨٩ ضمن حدود إريتريا الإيطالية .

٢ - السومال الفرنسي - في ١١ مارس سنة ١٨٦٢ عقد وزير
خارجة فرنسا مع أبي بكر أحد مشايخ خنح تاحوره معاهدة تحول
فرنسا . نظير دفع مبلغ ٥٠٠٠٠٠ فرنك حتى أملاك مباء أو بوك وقطعة
أرض تمتد من رأس دميرة في الشمال إلى رأس علي في الجنوب . وتعهد
أبو بكر ورؤساء الدناكل التابعين له أن يرفض أي عرض تتقدم به
دولة أجنبية دون موافقة فرنسا .

ولكن فرنسا لم تكن مطلقا بتحديد هذه الأرض أو إقامة أي نظام
فيها ولم يقيم فيها أي وكيل فرنسي . وكانت مصر لا تعترف بمثل هذه
المعاهدات لأنها تعقد مع شيوخ غير مسؤولين في بلاد واقعة تحت لسان
التركية أو المصرية . ولذلك بادرت مصر برفع رايها عليها توكيدا
لحقوقها . وقد احتجت فرنسا على ذلك سنة ١٨٨١ ولكنها لم تفكر

الا في سنة ١٨٨٣ في استغلال أوبوك وتوسيع رقعتها لأن أوبوك
بحدودها القديمة الصفة لم تكن لها أي مسهل بحاري . وقد دعا
الحاكم الفرنسي لاجارد Lagarde جميع رعماء البلاد المجاورة الى طلب
حماية فرنسا ، وتمكن في سني ١٨٨٤ و ١٨٨٥ من عقد محالقات مختلفة
معهم تربى عنها امداد الحمية الفرنسية على تاجوره وجمع بلاد الساحل
من رأس على الى ما وراء أمبادو بالقرب من ريلع . وبذلك أصبح
المستعمرة مضافة للمناطق الحاربية في الجنوب . وفي بداية سنة ١٨٨٨
استولت فرنسا على رأس جيون وهي آخر نقطة حربية في خليج أوبوك
ولم تتردد في احتلال دوتجاربيا الواقعة على ساحل السومان بين ريلع
وبربره مما اضطر البحارة الى الاتفاق مع فرنسا في سنة ١٨٨٨ عنها على
نوك دوتجاربيا بغير الاعتراف بمطعمه بقودها .

وفي مايو سنة ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسي تقرر عهضاه وضع
رأس أوبوك وحماني تاجوره وساحل السومان تحت ادارته موحده
فصائنه وماله . وأصلق عليها من ذلك الوقت اسم ساحل السومان
الفرنسي وملحقاته وصارت حاضرتة جيوني بدلا من أوبوك لأن ميناءها
أصلح كما أنها على رأس طريق سهل وأقصر يصل الى الجالا وبربره .

٣ السومان الانكليزي أو سومانلاند . ويقع على خليج عدن
وهو أهم مناطق السومان وفيه أشهر منه ريلع وبلهار وبربره .

٤ السومان الايطالي — كان امتلاك أريتريا سببا في عزل أثيوبيا
عن البحر الاحمر ولم يبق لأثيوبيا حدود مضمومة الا في الجنوب ولكن
الضمان عملوا على اغلاق هذا المنفذ الذي يصل أثيوبيا بالعالم الخارجي .
ذلك أن الحدود الجنوبية تولى وجهها شطر المحيط الهندي . وتقع
بينها وبين الساحل بلاد الجالا وبلاد السومان . ويمتد ساحل السومان
على المحيط الهندي من خليج تاجورة لغاية مصب نهر تانا على طول

٢٢٠٠ كيلو متر . ويقسم بحر الجب الساحل الى قسمين غير متساويين
في الشمال والجنوب . في جنوب الجب توجد سلطنة ويو وقسمايو
وفي الشمال مين براوة ومركا ومقدشو (أو مين ساحل بنادر) وسلطان
أوبيا وميجورتين . وتنتهي هذه الأخيرة في رأس جردفور (أو
جردهوى) .

وكانت مصر تحتل احتلالاً فعلياً الصومال من خليج تجوره لغاية
رأس حافور على بحيرة الهدي . وكان يهودها يمد لغاية الجب الذي
احتله في أواخر سنة ١٨٧٥ ثم أحلّسه . وقد احتل الانجليز في
سنة ١٨٨٤ منطقة الصومال على خليج عدن ففكر الصدد في احتلال
بقية الساحل وبلاد سومال خصوصاً وان ساحل الصومال هو الممر
الصعيق لبلاد الحلال وأثيوبيا الجنوبية نحو المحيط الهندي وخليج عدن .
وكانت إيطاليا تطمح في احتلال هرر وساحل لسومال جميعه بمساعدة
المحتل .

وسرعان ما أمضت إيطاليا مع سلطان أوبيا في فبراير سنة ١٨٨٩
سك الحماة . وفي ٧ أبريل من نفس السنة أعلن سلطان ميجورتين
بذوره قبول الحماية الإيطالية .

ثم رأت انجلترا وايضاً ان تحدد منطقة نفوذها على ساحل البحر
الاحمر وساحل قرها الشرقي فوقعتا في ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ معاهدة
أوى رسمت الحد الفاصل بين المنطقتين في ساحل الصومال : كان ذلك
الحد يذهب صعداً مع الجب من مصبه على المحيط الهندي ، تحت خط
الاستواء تقريباً ، لغاية درجة ٦ من خط العرض الشمالي . وقد تنازلت
انجلترا لابطاليا عن المين الأربعة الداهية لرنجار والتي أرغبت المصريين
على اخلائها في سنة ١٨٧٥) : براوة ومركا ومقدشو ووارشيخ الواقعة
في شمال الجب . ولم تحتفظ لنفسها على ساحل بنادر من منه إلا عمدة
قسمايو كما احتفظت بمنطقة الجب .

بقى تحديد السومال الايطالى من ناحية المملكات الانجليزية على
 خليج عدن . كانت إنجلترا تحمل الساحل من خليج تاجوره لغاية
 درجة ٢٩ من خط الطول شرق جريوش . وكانت الحماية الايطالية تمتد
 لغاية رأس حافور شمالا على المحيط الهندي . وبين رأس حافور
 ودرجة ٤٩ من خط الطول يوجد الركن الأفريقى الشرقى الذى يهيم
 على رأس جردفون . وقد تنازلت إنجلترا لاطاليا بماهدة ٥ مايو
 سنة ١٨٩٤ عن رأس جردفون وجميع المطقة المحيطة به الى يبلغ طول
 ساحلها ٢٠٠ كيلو مترا (من رأس حافور لغاية درجة ٤٩ من خط
 الطول شرقا) وبذلك أصبح ساحل السومال الذى تملكه ايطاليا
 لغاية نهر الجب يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلو متر تقريبا .

٥ - أفريقيا الشرقية الالمانية : بدأت الالماني فى سنة ١٨٨٥ نسوى
 على أملاك رنجبار فى أفريقيا الشرقية فاضطرت إنجلترا الى امضاء معاهدة
 ٢٩ أكتوبر - أول نوفمبر سنة ١٨٨٦ مع ألمانيا . أصبحت بمضى هذه
 المعاهدة حقوق سيادة سيد برعش سلطان رنجبار مقصورة أولا على
 قطعه ممدوده على أرض الساحل من نهر مانتجاني لغاية كييينى الواقعة
 عند مصب نهر نانا ولا يريد عمقها فى الداخل عن عشرة أميال . ثانيا على
 حرر رنجبار ومافيا وببا ولامو ، ثالثا على مين ساحل بنادر الخمسة . وقد
 نص على أن تكون سلطته ويتو الواقعه فى شمال كييينى تابعة لألمانيا .

ثم اتفق الدولتان فى نفس الوقت على تحديد مناطق نفوذهما فى
 أفريقيا الشرقية . فاملكت ألمانيا الساحل من مصب روفوما الى مصب
 فاجا (حوالى ٨٠٠ كيلو متر) عدا سلطة وينو . كما أن جبل كيليانجارو
 بكتله الصحه أصبح ضمن حدود أفريقيا الشرقية الألمانية الى كان
 تمتد لغاية شرقى بحيرة فكتوريا نياتزا .

على أن أطماع جمعية الاستعمار الألمانية كانت ترمى الى بسط السيادة
 الألمانية على جميع بلاد السومال وعلى منابع النيل وبممالكها . ومعلوم أن

بلاد الصومال تمتد على ٢٠٠٠ كيلو متر من الساحل تقريبا وتوغل في الداخل لغاية بلاد الحالا واثيوسا . وكان يرعاه الصومال من ناحية الساحل رئيسان مستقلان هما سلطان أويا و سلطان محورتين . وقد سفت شركة الاستعمار الألمانية الطنان الى عقد معاهدت في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ مع سلطان أويا ومجورتين اللذين تنازلا للشركة عن سادتهما من ويتو الى حدود الممتلكات الانجليزية على خبيج عدن .

وكان انصار الاستعمار الألماني يشكرون في مد حدود امراطوريتهم الافريقية من المحط الهندي شرقا الى الاطلانطقي غربا . فذهب الدكتور سترر على رأس حملة الى أعالي النيل لانشاء محطات والاستيلاء تدريجيا على أوعدة ولأسورو وربطهما بساحل أفريقيا الشرقية الألمانية . وحاول في الوقت نفسه أمين باشا . بعد دخوله في خدمة ألمانيا . استرجاع مديريته القديمة .

ولكن الحكومة الألمانية حثت معه المغامرات الافريقية والاصطدام بالبحر فرفض اعتماد المعاهدات المبرمة بين الشركة وشيوخ الصومال . وتكررت للدكتور سترر الذي كان نخب في عهد معاهدة مع أوغنده . كما أنها أغلب أن أمين باشا كان يعمل نخب مسؤوليته هو وأن جمع أعماله وحركانه خارج الحدود الألمانية المعترف بها لا تمسها .

وقد اكتمت ألمانيا . في سنة ١٨٨٩ بضم المنطقة الواقعة بين سلطنة ويسو وسهر الجب . وأنتف فرار الضم الى الدول في أكتوبر . فأُسرعت إيطاليا الى احتلال ساحل الصومال الذي رغبت عنه ألمانيا .

وفي أول يوليه سنة ١٨٩٠ وقعت ألمانيا والمجترات معاهدة جديدة تنازلت الأولى للثانية بتقضيها عن سلطنة وينو والمنطقة الواقعة بين ويتو وقسمايو التي ضمها حديثا (١٨٨٩) . وبذلك دخلت هذه البلاد في منطقة النفوذ الانجليزي . وفيما يتعلق بالحد الفاصل بين أفريقيا الشرقية

الألمانية وأقربها الشرقية الإنجليزية فقد ظل تقريبا على حاله كما كان في سنة ١٨٨٦ ولكنه أفضى عن شرق بحيرة فكتوريا . وبذلك أصبح المنطقه الإنجليزية المعترف بها تمتد مع الحب وبوغل حتى منابع روافد النيل الغربية . وقد اعترفت ألمانيا بالحماية الإنجليزية على زنجبار وبميا . وكانت هاتان الحريرتان خارج امير شركة أفريقيا الشرقية الإنجليزية . ذلك الامار الذي كان يشمل جميع أوغندة والأويورو وقسم من كازاجوا وبحيرة اليرب نايبرا وقسم من بحيرة اليرب ادوارد والممالك الواقعة على سواحلها وكذلك مديره حط الاسواء المصرية وقسم من دارفور وكردفان .

وقد علق على ذلك اسكوب كيني بقوله : « لارت أن هذه المسطحة الهائلة تحت النظر اليها باعتبارها ان حد ما حالية . وهي تشمل جزءا ضخما من السودان المصري القديم . ولنس كانت مصر قد تخلت عنه الا أن الحديوي قد بطالب به ادا ما تحت شركة أفريقيا الشرقية الإنجليزية في احتلاله فعلا وبوطد رفاهيه التجارية والصناعية . وفي نفس الوقت يجب أن لا ننسى مطلقا أنه منذ قرار مؤتمر برلين لا يمكن ادعاء ملكية أنه أرض ما يسمى احتلال فعلى » .

وقد رأينا كيف تم هذا الاحتلال في السودان والملحقات ، وبأى الوسائل . وكيف تقاسم البحير والدول الصديقة أو المنافسه الامر صوره لسودانية .

مديريات حط الاسواء وحدود الكونغو البلجيكي والكونغو الفرنسي .

(١) جاء في تقرير كرومر لسنة ١٩٠١ : « ان حدود السودان الجنوبية لم تقرر بصفة نهائية وان غوندوكورو كانت تعد الحد الشمالى الأقصى

(١) كتاب (تقسيم افريقيا) بالانجليزية ص ٣٣٤ طعة سنة ١٨٩٣

لأوغندا ومو نجالا الحد الجنوبي لأقصى للسودان على الضفة الشرقية
للنيل . ونقضى معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين إنجلترا والكونغو
تبارك إنجلترا . مع احتسابها كمحور في مصر في حوض أعالي النيل .
لحكومة الكونغو لمدة معينة . عن القسم الأكبر من بحر الغزال وعن
قطعة أرض صغيرة على ضفة النيل العربية وسط الأراضي المصرية تسمى
(حاجر لادو LADO ENCLAVE) واعترفت لها عظمته نفوذ فيها .

« ولم يهتم البلخكوت بأن احتلال فعلي في هذه المنطقة ولكنها
تأذروا إلى احتلال لادو حوالي سنة ١٨٩٨ عقب حادث وشوده فاذن
الاحتلال لهم بالبقاء بشرط أن لا يبعدوا على بحر الغزال . وكانت مساحة
لادو تمتد على ١٥٠٠٠ ميل مربع (٥٢٠٠٠ كيلو متر مربع) وعدد
سكانها ٢٥٠٠٠ »

وبناء على اتفاق ٩ مايو سنة ١٩٠٦ بين صاحب الخلافة ملك البحار
وملك الكونغو كان لهذا الأخير الحق في إدارة لادو مدى الحياة . وفعلا
لم يغب عنه شهور على موته حتى أعيدت مساحة لادو . في ١٦ يونيو
سنة ١٩١٠ . لحكومة السودان .

وفي أول يناير سنة ١٩١٤ أقيم من السودان القسم الجنوبي من
مساحة لادو (١٤٠٠٠ كيلو متر مربع) في غرب بحر النيل (النيل)
وصم إلى أوغندا بمقابل إضافة مركزى غندوكورو ومسور في
السودان .

وقد ساعد امتداد السودان نحو الجنوب حتى نمور (باراء دوفنه)
على تبشير الاشراف على جميع الجزء الصالح للملاحة في النيل الأبيض
من أول الخرطوم وكسبت أوغندا البلاد الغنية الواقعة في غرب النيل
وان كانت فقدت اقليم لاتوكا . أما غندوكورو الواقعة على بعد ٢٦ ميلا
من مو نجالا (عاصمة مديرية مو نجالا أقصى مديريات السودان الحالى

وأشدها تأخرا) فانها أهملت من أجل مونتجالا وأصحت كأن لم تكن .
وعلى أية حال يستدل من خريطة أوغندة التي نشرها هاري جونستون
في كتابه الضخم عن (حماية أوغندة) الذي ظهر في سنة ١٩٠٢ ان الحد
الشمالي لأوغندة لم يكن غندركورو الواقعة بالقرب من خط العرض ٥
ولكن كيريندو القريبة من خط العرض ٦ على أن الذي يعينها أن المؤلف
نشر خريطة تبين المناطق الصحية وارتفاعاتها وكانت مناطق الدرجة الأولى
وهي الصحية للغاية يتفاوت ارتفاعها من ٥٥٠٠ الى ٢٠٠٠٠ قدم ومناطق
الدرجة الثانية . وهي الصحية الى درجة ما يتفاوت ارتفاعها من ٣٥٠٠
الى ٥٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الثالثة . وهي غير صحية . يتفاوت
ارتفاعها من ٢٠٠٠ الى ٣٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الرابعة وهي غير
صحية ويبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ قدم أو أقل . وهذه المناطق الأخيرة أو
الأراضي المحفصة الموبوءة المصنوعة في الخريطة بلون بني . كانت
لا توجد الا حول بحيرة رودولف ، ولكن في رقعة ضيقة جدا ،
وعلى صفى النيل ، ولكن في رقعة واسعة جدا . تبدأ عند نيمول صيقة
على الجانبين لا يزيد عرضها عن أربعة أو خمسة كيلو مترات في كل
ناحية ثم تنسع تدريجيا مع النيل شمالا ابتداء من لابوريه حيث تبلغ
من ١٠ الى ٢٠ كيلو مترا . ومن رجاف فعدوكورو الى حد أوغندة الشمال
تبلغ ١٠٠ كيلو متر على الصفة العربية و ٢٠٠ أو ٢٥٠ على الصفة
الشرقية . وتقع لاتوكا في شرق غوندوكورو ورجاف أي في صميم
المنطقة الموبوءة . وهذا يبين لنا السبب الحقيقي في النزول بحد أوغندة
الشمالي الى نيمول والاستعاضة عن هذه المنطقة بالمنطقة الصحية
الواقعة غرب بحر الحبل من نيمول الى نقطة قريبة من ماهاجي في الشمال
الغربي من بحيرة ألبرت بيازا هذا فيما يتعلق بحدود جنوب السودان
من ناحية أوغندة . بقيت الحدود الجنوبية العربية من ناحية الكونغو .
(ب) في ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٧ أمضى اتفاق بين الفرنسيين

والبجيكين أصبح بمقتضاء خط التباين بين منطقتي نفوذهما مجرى
الأوبانجي ابتداء من ملتقى الكونغو لغاية نقطة التقاطع مع خط الموارد
الشمالي درجة ٤ . وبعد هذا الخط تعهدت دولة الكونغو بأن لا تحاول
بسط أي نفوذ سياسي على الضفة اليسرى للأوبانجي وتعهدت حكومة
فرنسا . من جهتها . بأن لا تتعرض للصفة اليسرى لهذا النهر تحت خط
الموزاء المذكور .

وكان هذا الخط درجة ٤ هو أقصى خط موارد قرره مؤتمر برلين
في سنة ١٨٨٥ ليكون حد الكونغو الشمالي . ويقول الفرنسيون أن
الأوبانجي لم تكن بعد اكتشفت منابعه ومجراه حتى يمكن تنفيذ الاتفاق
وتعيين الحدود بدقة . وأن المكشمين اللحكين في سنة ١٨٨٨ قد تمكنوا
من إقامة الدليل على أن الأوبانجي بالقرب من خط الموارد الشمالي درجة ٤
كان يتألف من اجتماع نهرين أحدهما أمومو Ambomou والآخر الأوله
Ouélé . وكان وكلاء دولة الكونغو يدعون أن مجرى النهر الرئيسي هو
امومو . وكان الفرنسيون يقولون أن المجرى هو الأوله الذي كان أطول
بلا نزاع من امومو .

ومهما كان من الأمر فإن البجيكين كآب أطماعهم تمتد إلى حوض
أعلى النيل في مديرية خط الاسواء ومديرية بحر الغزال وتجاوز الحدود
التي رسمها لهم مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ والمعاهدة الفرنسية الكونغولية في
سنة ١٨٨٧ وقد وصل تجريده فان فركهوفن ، في أوائل سنة ١٨٩٣ .
إلى النيل واحتلت دوفينه .

وفي نفس الوقت تقدمت تجريدات بجيكة كثيرة إلى الشمال فاحتلت
زونجو وبانزيميل وبانحاسو وياكوما (١٨٩١) ورافاي (١٨٩٢) وليهي
بالقرب من ديم رير (١٨٩٣) في بحر الغزال وبلغت حدود دارفور . في
سنة ١٨٩٤ ، وحفرة النحاس .

فبعد أن كانت حدودهم المرسومة درحة ٤ من خط العرض الشمالى
أصبح دون درحة ١٠ أى على بعد أكثر من ٧٠٠ كيلو متر من شمال
باوله (١).

وكان أكبر هم إنجلترا في ذلك الوقت سد طريق التوسع في وجه
فرنس ومنعها من الوصول الى أعالي النيل قلها فأراد الملك ثيوبولد أن
يسهل الظروف لحل بحكم محل إنجلترا وتدعها لتحقيق هذا العرض
وأرد إنجلترا أن يستخدموا البلجيكيين ليكونوا حواسا لهم كالطليان
على أن يسردوا مهم البلاد في الوقت المناسب . وسرعان ما أمضى
الفرنسان ، الانجليز وللمحككون اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ الشهيرة .
أحرب إنجلترا لتكونو بمصص هذه الاتفاقية وذلك نصفه دائمة ، القسم
٣٠ من مديرية بحر الغزال في غرب خط ٣٠ جنوب جرينويثش . وأجرت
نصفه مؤقتة (مدى حياة ثيوبولد) حوص بحر المال الواقع بين خط
درجه ٣٠ الجوى في الغرب ، وبحرى النيل في الشرق ، وخط الموازاة
درجه ١٠ شمالا . وبذلك امتد حدود الكونغو اللحكى امدادا هائلة
من خط الموازاة ٤ الى حد الموازاة ١٠ شمالا . وعلى النيل لعيه فاشوده
سرفا . وصار وادى امومو خمسة المسارع عنه بين فرنسا والكونغو
تسبب الحدود الجديدة .

وفد تبارك الكونغو لانجلترا عن قطعة أرض عرضها ٢٥ كيلو مترا
تمسده في شمال تنجانيقا وملاصقة لأفريقيا الشرقية الألمانية . وكانت
انجلترا تريد الاتساع بهذه الأرض لمرور الخط الحديدي من الكلب الى
القاهرة ووصل ممتلكاتها من الجنوب الى الشمال دون حائل .

وقد ثارت ثائرة فرنسا بسبب بحر الغزال ومسألة وادى امومو .

(١) انظر كوشري (المركز الدولى لمصر والسودان) ص ٣٦٠ - ٣٦١
بالفرنسية .

صحيح ان المحتررا قد احتاطت في ملحق معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بقولها : « بمناسبة تجميع بعض الأراضي في منطقته لنفوذ الانجليزية في شرق أفريقيا تقرر الطرفان المعاهدان انهما لا يجعلان حقوق تركيا ومصر في حوض النيل الأعلى » . ولكنها في الوقت الذي تحتفظ فيه بحقوق مصر وتركيا في حوض النيل الأعلى تعلن ان حوض النيل الأعلى « في منطقة النفوذ الانجليزية » وتتصرف فيه تصرف المالك .

وقد احتجبت الدنيا على هذه المعاهدة وأرعبت إنجلترا وبلجيكا على سحب الشرط الخاص بامساك قطعه الارض الملاصقة لسحايقا . ثم حرر-مفاوضات بين فرنسا والكونغو انتهت بمعهد الدولة المسماة (الكونغو) في ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ . بان لا تحمل ارضا في شمال لادو كما انفق على تقسيم وادي امومو الى قسمين متعادلين الصفة اسمى لفرنسا والبسري للكونغو . وتقرر ايضا انه ابتداء من اندوروما N DORUMA حيث يسع نهر امومو يكون للكونغو الحق في ان تسلط نفوذه لعدا خضه الموارد درجه ٥ ونصف وعلى النيل لغاية لادو . وبذلك أصبح دولة الكونغو تملك جميع الصفة الشمالية من نهر امومو في شمال خط الموارد درجه ٤ . وتملك ابتداء من اندوروما جميع البلاد لغاية خط العرض درجه ٥ ونصف الا ان بعض المواد الخاصة بحدود الكونغو الشرقيه سمحت له بالتوسع من هذه الناحية الى ما وراء الخط الفاصل بين حوض النيل وحوض الكونغو وهو الخط الذي نصت عليه معاهدة ١٢ مايو الانجليزية الكونغولية . وقد بلغ مساحة الكونغو بعد هذه المعاهدات نحو ٢٢٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع .

حاولت فرنسا بعد ذلك احتلال الأراضي المكسبة بمقتضى المعاهدات والتوغل في بحر الغزال لغاية فاشودة وقد سبق مارشال كاتشر اليها كما هو معلوم ولكن فرنسا تراجع أمام إنجلترا واضطرت بمعاهدة ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الى ترك بحر الغزال نهائيا والاعتراف بمقتضى

الصود الانجليزية في السودان المصرى لعابة خط المواردة درجه ١٥ أى دارفور وكردفان وبحر الغزال .

على أن المهم أن الفرنسيين قد اقتطعوا من مديرية بحر الغزال جزءا كبيرا كما اقتطع المحكيون جزءا من بحر الغزال وجزءا من مديرية حط الاسواء . دون أن يشير الى ذلك أحد من مؤرخي الدولتين . وبذلك حدث تعديل كبير في حدود السودان الجنوبية الغربية . يوضح ذلك من مقارنة الخرائط الجغرافية الحديثة بخريطة مديرية بحر الغزال القديمة وحدودها لى نشرها نوحا الألمانى الذى صعب جونكر فى رحلاته فى كناه عن (السودان تحت الحكم المصرى) وخريطة ميسيداليا لى أرفقت تقرير استوارب (١٨٨٣) وخريطة مديرية حط الاسواء الى نشرها فيتاحسان فى كناه (المصفاة عن أمين باشا) وخريطة نوحا وخريطة ميسيداليا .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه الفرنسيون من بحر الغزال حوالى ١٥٦٠٠٠ كيلو متر مربع وهى الأرض الواقعة شمال امبومو من اندوروما لغاية تفرع نهرى أومبومو والأوله من الأوبانجى .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه للمحكيون من مديرية بحر الغزال التى كان يحدها جنوبا نهر الأوله حوالى ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع بين الأوله وامبومو . وقد اقتطعوا من مديرية حط الاسواء فى غرب بحر الحبل وألبرت نانرا لغاية محطة حواش على الأوله (من أواسط مكرাকা الى بحر مونوتو) أرض تبلغ مساحتها حوالى ٤٥٠٠٠ كيلو متر مربع .

٧ - حدود السودان الشرقية والحبشة : بعد ثلاثة أعوام من معاهدة ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الإنجليزية الفرنسية التى سوت حدود السودان المصرى من ناحية الكونغو والصحراء حدثت توية الحدود المصرية من ناحية الحبشة . وهذه التسوية التى تمت فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٣ بين

الحكومة الانجليزية و لامراطور ملكة الثاني شمل الحد الذي يفصل بين السودان المصري واثيوبيا على مسافة تبلغ ضوفا ١٤٠٠ كيلو مترا . وقد رسم الخط القاصيل بحيث يترك للسودان جميع المراكز الضرورية لأمنه وتطوره . فبسطت اثيوبيا حدودها لحد نهر السوبات واعترف لسلطانها على البلاد الواقعة بين نهري دارو والجب . وبذلك سنول ملك في الجنوب الشرقي من السودان على أرض تبلغ مساحتها ٣٦٠٠ كيلو متر مربع . والذي يزيد من قيمة هذه الأراضي أنها متصلة بالسوبات وهو نهر صالح للملاحة في كل فصل . وفي نظر هذا التار حصلت إنجلترا على امبيارات اقتصادية عظيمة منها تعهد ملك بعدم القيام بأي عمل من شأنه أن يحدث تغييرا في النظام المالي للنيل الأزرق ونهر السوبات وبحره انساب . ومنحه إنجلترا حق مد الخط الحديدي الذي سيصل الكاب بالمهره في أراضي اثيوبيا . وبذلك يمكن وصل ثوعده بالخرطوم بالسكة الحديد المدة في سبع الفصه الاثيوبية وتحب طريق المستعمرات السلي وبمبارد أخرى رخص السودان بأفريقيا الشرقية الانجليزية والشاء مواصلا مضمه من موباسا الى الاسكندرية في وسط امبراطورية ضخمة تهيمن عليها إنجلترا (١) .

وقد اتسع الحشمة من ناحية السودان بصفة عامة على حساب حدود السودان الشرقية كما اتسع أريتريا على حساب حدود الحشمة الشمالية وحدود السودان الشرقية معا ولا يزال هذا الاسراع المحف صدى في الرأي العام السوداني .

ذكرت جريدة « الرأي العام » السودانية في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ المناطق التي اقتطعت من حدود السودان الشرقية قائلة : « انها الأقاليم التي يكها جزء من قبيلة بني عامر السودانية في اريتريا . وشرق

(١) انظر كتاب (افريقيا للاوربيين) تألف الدكتور روبر بالفرنسية (ص ٩٨) .

القلايات . ومنطقة المسة — التي يشهد اسمها بأصلها السوداني — ومنطقة قوبا التي تسكنها قبائل القمر والهمج السودانيّة ، ومنطقة من شفقون المعروفة . والتي هي ضرورية للسودان نظرا الى خصوصيتها ووجود الذهب فيها . وخاصة أنها كانت جزءا من السودان في عهد الحكم التركي .

* * *

ملاحظات عامة :

كانت دول أوروبا في سنة ١٨٧٦ لا تملك في أفريقيا الا بقاعا صغيرة مستطبة على بعض نقط الساحل وكانت مصر عند امبراطوريه ضخمة متمسكة . وكان سلطانها يمد على جميع ساحل البحر الأحمر الغربي ويمد إلى محمد المهدي لعاه رأس حافون واعترفت إنجلترا بهذه السيادة (على ساحل البحر الأحمر وسواحل السومان) في معاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ والواقع أن نفوذ مصر كان يشمل بلاد السومان كلها لعاهيه بحر الجب كما قنما وكان يمتد في الداخل إلى بلاد الجالا في حبوب الحبشة لعاهيه منافع اسل .

ولكن بين سنة ١٨٨٢ و ١٨٩٣ حب إنجلترا وإيطاليا وفرنسا والحبشة بحل مصر عونه وقد را فشلت مستعمرة اريتريا على ساحل يبلغ طوله ١٢٠٠ كيلو متر وكانت مساحتها حوالي ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع . ويلي اريتريا السومان الفرنسي وتبلغ مساحته حوالي ٢٧٠٠٠ كيلو متر مربع .

ويلى السومان الفرنسي السومان الانجليزي وتبلغ مساحته حوالي ٢٥٨٠٠٠ كيلو متر مربع (وسكانه ٣٠٠٠٠٠) ويلى السومان الانجليزي السومان الايطالي وتبلغ مساحته (مع بلاد الجالا) حوالي ٦٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع (وتعداد سكانه حوالي المليون) . وهذه المساحة الأخيرة

يتدخل فيها منطقة وادي الجب وقسمها إلى كات احصفت بها أفريقيا
الشرقية الانجليزية ثم سارت عنها لايظالنا في سنة ١٩٢٤ . وقد ضمت
هذه المنطقة منفصله عن السومال الايطالي بحايه سنة ١٩٢٦ ثم ادخل فيه .

واسول الحبشة على هرر سنة ١٨٨٧ وتبلغ مساحتها حوالي
٢٠٢٠٠٠ كيلو متر مربع (وتعدد سكانها حوالي ١٤٠٠٠٠٠) .

ثم تكونت على آثار لسادد المصرية في خط الاسواء وتوعدده
بين المحيط الهندي ومضيق السل أفريقيا الشرقية الانجليزية وتوعدده .
وصارت مساحة أوعدده في الربع لأول من القرن الحالي ٣٣٣٠٠٠
كسو متر مربع .

وفي توله سنة ١٩٢٠ ارتقت حملة أفريقيا الشرقية الانجليزية إلى مرتبة
مستعمرة من مستعمرات التاج وسبب مستعمرة كينيا . وبلغت مساحتها
منذ السارل عن منطقة الحب وقسمها لايظالنا (١١٣٠٠٠٠ كيلو متر
مربع) - حوالي ٧٧٤٠٠٠٠ كيلو متر مربع . وكانت إنجلترا بعد امتلاكها
حل كينيا نظمت في املا - حل كليماحورو لانه من حرة الاصق لافيه
لاوربيين ولكن هذا الجبل كان على كرد منب حسن حدود أفريقيا
الشرقية الألمانية . حتى شب الحرب الكبرى (١٩١٤) وسول على
فريق الشرقية الألمانية (مستعمرة تنجينا) وحصلت على اسد
من عصبة الأمم في سنة ١٩٢٢ . وسبب مساحة مستعمرة تنجينا
حوالي ١٢٣٨٠٠٠ كيلو متر مربع .

وقد استولت الحبشة - عدا هرر - في سنة ١٩٠٢ على قسم من
أراضي السوياط تبلغ مساحته ٣٦٠٠ كيلو متر مربع كما قلنا .

واستولى الكونغو البلجيكي على جزء من مديرية حص الاسواء
وجراء من مديرية بحر الفراء على نهر رأولة نبع مساحتها في تقديرنا
ملا يقل عن ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع في أقصى الجنوب الغربي من
السودان .

واستولى الكونغو الفرنسى على جزء من بحر الغزال على نهر امبومو
تبلغ مساحته فى تقديرنا ١٥٦٠٠٠ كيلو متر فى أقصى الجنوب
الغربى أيضا .

وأصبح أقصى حد جنوبى للسودان (من ناحية أوغندة) بلدة
نيمول بجوار دوفلة بعد أن كان على ساحل بحيرة فكتوريا الشمالى .

وبعد اقتطاع كل ما اقتطع وصباح الملحقاب التى كانت وحدها تؤلف
امبراطوريه واسعة أصبح السودان المصرى منذ سنة ١٨٩٩ السودان
المصرى - الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع
أو ٣٤٣٧٠٠٠ كيلو متر مربع أى ثلث مساحة أوروبا وضعف ألمانيا
وفرنسا مجتمعين .

الفصل الثاني عشر

المدينتان في أفريقيا

مدينة المصريين والعرب ومدينة الغربيين

كتب سيلفا هويت في كتابه عن « تطور أفريقيا » الذي ظهر في سنة ١٨٩٢ ما نصه : « لقد تسلط تعدد الزوجات والرق على أفريقيا ، منذ القدم . وهما من شر بلاياها ، ولا يمكن القضاء عليهما دفعة واحدة . ولكن يمكن من ناحية أخرى ، محو المشروبات الروحية والأسلحة في الحال ، وهما أكثر وسائل النفوذ الأوربي انتشارا ، دون أن ينضرر الأفريقيون .

« وقد ثبت أن تجارة المشروبات الروحية البغيضة كانت لها ، على الساحل الغربي ، نتائج مريعة بين المعاطين . وهي تشل جهود المشرب والمائمين بأعمال البر والاحسان . وهي مقترنة في نفوس السكان بالمسيحية كما أن تجارة الرقيق مقترنة في نظرنا بالإسلام . وأما نحن ولا نعمل على محو إحدى البليتين بينما نعمل سخطنا ونعمل جاهدين على إبطال الأخرى ، وكلاهما ، على كل حال . عمل إثمى فاضح . وإن رياءنا في مسلكتنا لبشف عما تحته للأفريقيين أنفسهم . ولا ببالغ إذا قلنا أن كل تقدم في أفريقيا مستحيل ما لم تح فيها هذه التجارة الفظيعة المزدوجة .

« وفي جنوب أفريقيا تراجع معظم السكان الأصليين إلى الورا على طول الخط أمام تقدم جنس أجنبي شديد قوى كالهولنديين والإنجليز

أو أصبحوا عبيدا وفقدوا مقوماتهم بسبب الاندماج لأن الانتقال من
البربرية إلى المدنية كان صعبا... وقد احتفظت قائل الرولو وحدها
بكتابها قدر المستطاع .

وفي السودان أدى الاحتكاك بمدينة تطابق أحوال الطقس وعرقية
شعب إلى حدوث اندماج طبعي بين الوثنيين والعرب . وفي هذه الحالة
ساعد ظروف السنة على التقدم وفي بلاد أعالي النيل رأينا الدولة المصرية
سلاشي بعد أن دبت في هيكلها عوامل الفساد ، وفي شرقي أفريقيا ،
تمحلت لسيطرته العربية كذلك . وكانت الأثبان تعيشان بجماعة
برقى فلم يعملتا شيئا أو لم تعملتا إلا لقليل لمساعدنا على تقدم المدنية
من سكان .

« صحيح أن مؤتمر محاربة الرقيق اجتمع في سنة ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ،
ووضع برنامجا للنص ، على هذه المحاربة ولكن أوروبا وإن تكن قد ذهب
في سياستها إلى حد تنظيم تجارة الأسلحة النارية إلا أنها لم تجاور ذلك
في إلغاء محاربة المشروبات الروحية لأن الأسلحة كان يحشى أن تصوب
في الأوروبيين في حين أن المشروبات الروحية السامة تقبل الوطنيين » .
هذا ما قاله ذلك الكاتب الإنجليزي . ولابد أن نمرر بهذه المناسبة
أن محاربة الرقيق . تحت سائر الأغراض الإنسانية . كان يساعد أوروبا
على بسط نفوذها وتشبث النفوذ العربي المافى . ولم يكن الفساد
العام أو سوء الإدارة هو الذي هار القوة المصرية في أعالي النيل كما
يرى جمع الإنجليز المسؤولين — وإنما مصدر الفساد والانحيار هناك
هو سياسة الرقيق بالذات . كما يبينه في هذا الكتاب — تلك السياسة
من فرضتها إنجلترا لندر بذور الأمباء والفوضى وتحقق المضامع
الأوربية .

وفي شرقي أفريقيا . أي في الساحل ورنجبار . كان سقوط السيطرة

العربية من حراء هذه السياسة نفسها . أما القوم أن الدولة المصرية لم تعمل شئاً يساعد على تقدم الوطنيين فهذا مخالف للحقيقة والأعمال المصرية البهتة في السودان . من ١٨٢١ إلى ١٨٧٧ . وفي الأفطار المطرقة من خط الاسواء إلى ساحل البحر الأحمر إلى بربرة وهرر وساحل الصومال شاهد على ذلك . ومما لا نراع فيه أن امبراطورية محمد علي في آسيا و امراطورية اسماعل في أفريقيا كانت أسباب الانهيار في كليهما خارجيه أي أن منشأ الانهيار لم يكن الفساد الوطنى الداخلى ولكن الصربات الخارجيه العاصمة الى كانت توجهها أوروبا من الخارج .

ولاشك أن العوامل الداخلة كانت وشحة الصلة بالعوامل الخارجيه لان نسل الأموال بالرأى لفاش وما يسعه من حراب مالى وفرض رفاهة أحده وتدخل مسلح كان حظه ثوربه منظمة جرب في فارس وفي مصر وفي تونس . وقد ترتب على ذلك أن التطور الطبيعى التقدمى في هذه البلاد الثلاثة . وبالأخص في مصر . قد عيق وربك بمصل هذه السياسة الى كانت محاربه محاربه الرقيق وتجارة المشروبات الروحية الرحيصة جزءاً من برنامج تدخلها في أفريقيا .

ولا نبالغ اذا قلنا أن فكره المدينة والاسانه بعده عن عمله الاستعمار الأوروبى وأغراضه الاستغلالية الاستعبادية . وحسبنا هنا أن نشير إلى ثورة مستعمرة لاجوس Lagos الانجليزية الواقعة على ساحل أفريقيا الوسطى الغربى حيث حاول الموظفون الانجليز وشركه نيجيريا الانجليزية افناء السكان بالمشروبات الروحية . وقد وجه لوطيون سنة ١٨٩٦ إلى البرلمان الانجليزى عريضة تحمل ١٢٠٠٠ امضاء من سكان لاجوس وبيادان وأبيوكوتا من محلف الأديان جاء فيها : « بما أنه ثبت أن تجارة المشروبات الروحية السامة من حن وروم وخلافهما التى أدخلت في أفريقيا الاستوائية الغربية . وفي جميع القارة . تحدث فيها بلايا عظيمة في الاجسام والعقول والأخلاق . وبما أننا مقتنعون بأن

الوقت قد حان للقضاء بضربة حاسمة على هذه التجارة فانتا نحن الموقعين أدناه نتعهد بتأييد كل حركة تهدف الى العائها في أوروبا أو أفريقيا .
وكانت حدثت عدة ثورات في سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٥ لأن الشركة كانت ترغم الأهالي على احضار محاصيلهم للمصانع الانجليزية ليأخذوا بدلها مشروبات روية . وكان التجار الالمان والانجليز وغيرهم يتنافسون في ارساء مقادير ضخمة من هذه المشروبات السامة لحل الأهالي على عاظها . وقد بلغ ما أرسل الى نيجيريا من ميناء روتردام وهامبورج سنة ١٨٩٧ حوالي ٢٢٠٠ طن من « الجن » وفي سنة ١٨٩٨ نحو ٣٢٠٠ طن (١) .

وقد كتب الدكتور بلايدن D. Blyden يقول : « بين سيراليون ومصر لمسلمون هم الدولة الكبرى الوحيدة الجارية والمكرية والخالفة وقد صب القائل الوسطة بينهما أكثر من ثلاثة قرون تحت تأثير الاسلام الذي عمل منذ الفتح على تكيف حياة أذكاهما الاجتماعية والساسة والدينية . وان أتباعه يسيطرون على السياسة والتجارة في كل أفريقيا الواقعة في شمال خط الاستواء (٢) » .

وقد علن سيفا هوأيت نفسه على رأي الدكتور بلايدن بقوله .
« حين يسفر رجال أمثال الدكتور بلايدن للاسلام نرانا مضطرين للاعتراف بأن أولئك الرجال ومعارضهم يقوم مطلقهم على أسس متباينة . ولاشك أن حكم الدكتور بلايدن في مسألة كهذه جدير بكل احترام خصوصاً وان الدكتور بلايدن رنجي قح من كبار رجال السياسة والعلم ، وهو فوق ذلك مسحي . وهو حين يقول ان الاسلام هو أذكى قوة في السودان فإنه بلاشك يقاربه بالوثنية و « القيشية » من ناحية

(١) انظر كتاب « أفريقيا السياسية في سنة ١٩٠٠ » .

L'Afrique Politique en 1900, Par Bonnefon pp. 176-188

Christianity, Islam And The Negro Race, p. 260 (٢)

وبالمسيحية من ناحية أخرى لا بالمسيحية كما نعرفها بل بالمسيحية كما تبدو
تعاليمها في الواقع على ساحل أفريقيا العربي . وبينما يرى المسيحيين في
أوروبا ينادون بالمداهب العالة إذا أعماهم على النقيض مما يعلمون
ويقولون فهم يشجعون الرق ويزعمون إلغاءه كما يشجعون بحارة المشرقيات
الروحية والأسلحة . وهو يرى الاسلام محرم ويحصى على عدم الاسراف
في الطعام أو الشراب . وفي ذلك منحاه الوطني وصلاحهم . ويرى في
الوقت نفسه معظم مبشريه « معوثي الاسلام » يطبقون تعاليم دينهم .
ويرى الاوربيين يهبطون الى مستوى الوطني فيما يجتهد المسلمون في
الهوص بالوصيين الى مساوهم (١) .

نكلمنا في أثناء البحث عن الادارة الانجليزية في السودان وفي
أوعده وأشرها الى مساوئها في بحيرها وعرب أفريقيا وقد ذكر
سبعا هوايت فضائح اداره البرتغال وبلجيكا وفرنسا في كتابه . ووضع
الألماني (لودويج بارو) كتابا عن ليوبولد ملك البلجيكت (المكروه)
أصهر فيه فضائح الكونغو ومسك ادارته الطمحي مع الوصيين (٢) .
ووضع النحزي (موريل) كتابا عنوانه (عبء الرجل الاسود)
أصهر فيه مساوئ الادارة الأوربية في أفريقيا وسياسة الرجل الأبيض
« الذي شو طرقا واسعه مملوءة بالدماء من أقصى أفريقيا الى أقصاها » (٣) .
وذكر المجار وطرو الاسعاد والاسعلا الوحشة التي أدب الى فاء
قسم كبير من السكان وكل ذلك في سبيل الحصول على المطاط وسن
الفيل وغيرها مما تبتغيه الشركات الرأسمالية وحكوماتها .
ويمكن الاطلاع أيضا على كتب الكاتب الفرنسي أندريه جيد الخاصة

(١) ص ١٨١ و ١٨٥ من كتاب سلفا هوايت (تطور أفريقيا) الطبعة

الفرنسية . Silva White, Le Développement de L'Afrique

(٢) ظهرت طبعة فرنسية من هذا الكتاب :

Ludwig Bauer, Léopold Le Mal-Aimé Paris, 1935.

D. Morel, The Black Man's Burden (٣)

برحلاته في أفريقيا ومشاهداته في المستعمرات الفرنسية .

ولا بأس أن نذكر أن الأوروبيين هم أول من أبحر بالرقيق في أفريقيا وأن هذه التجارة في عهدهم كانت صحيفة سوداء في تاريخ البشر . كتب جوف كوبر الانجليزي : « أن تاريخ الاسترقاق قد مضى عليه الآن أكثر من ثلثائه سنة وبنء على حصاء فاه به كاتب فرنسي مدقق أن هذه التجارة منذ ثلثائة سنة قد انرعت من أفريقيا أكثر من خمسين مليون رجل »^(١) .

« ولأنت أن الجرائم والفظائع التي تدل عليها هذه الأرقام تقع أولا على أمم أوروبا المسيحية التي جلبت هذه التجارة في أفريقيا في القرن السادس عشر »^(٢) .

وجاء في كتاب من أمتع الكتب الحديثة عنوانه (غسق المدنية أو عرب والشعوب الملونة) . « في الوقت الذي اكتشف فيه فارات حديد (إشارة إلى أمريكا) وحمل هذا لاكتشاف البصر العربي الطموح بهر أحبتها إلى عالم اللانهاية في الثروة المادية نبئت فكرة استغلال الإنسان لشبه الإنسان في سبيل تسمه ثرائه وريادتها إلى حد غير معلوم . واقد منح شارل الخامس أصدقاءه الفلامان في أنفوس — سنة ١٥١٦ — الحق في نقل وسم العبيد السود في أمريكا . ولكن انجلترا سببر هي البلد الذي تزدهر فيه تجاره الرقيق وتصبح أرهى صناعة في البلاد . وقد منح الكاس هوكر وهو نخاس من الطراز الأول — النبالة

١ دبرى بعض الباحثين أن عدد الرقيق الذين اقتنصوا واخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون لم يصل منهم سالما إلى أمريكا وأصبح سالحا للعمل في مزارعها أكثر من ٨,٥ مليون بأعباء أن من كل عشرة رقيق يموت سبعة في البر من جراء الفزوات وفي البحر وهم مكلسون في قاع البحر وعند وصولهم بعد ملاقوا من العذاب الوانا :

(٢) صدر هذا الكتاب (الطعة الفرنسية) سنة ١٨٧٦ وعنوانه (القارة الضائعة وتجارة الرقيق في أمريكا)

Un Continent Perdu, par Joseph Cooper Traduit par Ed. Laboulaye Paris, 1876.

« لأنه يرجع إليه الفضل في تعريف البلاد (المجيرا) بنجاره جديده » .
 وقد نظم الكونت لايستر والكونت سمروك . على قوعد رأسه
 واسعه . تحارة لرقى . وكان للانجليز في سنة ١٧١٣ . تفضي معاهدة
 دولية الحق في احكام مطاردة العدو وبنقله وبيعهم . وقد كانت بنجاره
 للرفق السب في انعاش الحرية التجارية وارتفاع شأنها . وفي انشار
 الرخاء في مين ليفربول وبريستول ولانكستر .

« وكان في لفربول أسطول مؤلف من ١٩٢ سفينة يستطيع من
 ٢٠٠٠٠٠٠٠ عند في السنة . وكان نصيب العدو الكرياح والسيال والاب
 التعديت وعداء الهائم وفي في المربله وكبرا ما كان يدفع بحث المولى
 للساد . وكان نصيب المتدينين المستعمرات : قطن وسكر وهموه
 ومشروبات روحية . وقد صرح ميريفال - Merivale (محاصر عن
 الاستعمار والمستعمرات . ١٨٤١) ان رخاء منشور ولفربول قام بسببه
 على دماء العبيد المتحررة (١) » .

هذه لمح الى آثار المدنية الأوروبية في أفريقيا في القرن السادس عشر
 و سابع عشر والثامن عشر . أما القرن التاسع عشر فقد أورد أوروبا
 أن تكفر عن سناب الماضي وأعلنت حربا صليبية على بنجاره الرقى وقد
 إنما أنها كانت حربا سياسة تمهد لها سبل التدخل في شؤون افاره
 للاستيلاء عليها وعلى مواردها . وقد اشتركت الدول جميعا في حروب
 الابداء والافناء التي شنت على العرب في اواسط القرنها حتى عكس
 بأسلحتها وقوتها الصناعية من اخضاع السكان الأصليين وبلادهم . ولكن
 كانت نتائج الحروب الاستعمارية في أفريقيا أشبه بالنتائج التي جرتها
 سياسة الاسترقاق في القرون الثلاثة .

وما نحن فنظر مثلا واحدا من أمثلة الاستعمار الانجليزي الذي

Arturo Labriola, Le Crépuscule de la Civilisation. L'Occident et les
 Peuples De Couleur. Paris, p. 53-54.

هو أرقى استعمار في القارة وذلك في ولاية بنان الواقعة في مصب نهر النجر Benin . « فرر الانجليز اخضاع هذا الشعب الذي حاول جهده أن يحمي استقلاله بنح الأحاب من دخول المدينة . ولكن كان معلوما أن ملوك بنان يملكون مجموعات بعيدة من البرونز القديم صنع الزنوج . وذاع أن هالك كورا دوية مخبوءة في غرف تحت الأرض عند ملوك بنان وعلّة القوم (الارسوقراطية) . وكان طبيعيا أن يفكر الانجليز ، وقد ملكوا نيجيريا ، في وضع يدهم على كل ذلك . فاستدعوا بالحجة المدعة وهي حدوث « اهانة » لشخص بعض رعايهم المقدس . وبناء عليه تقرر عمل « لجريدة تأديبية » وقد دافع الملك أوفيرامى ورئيس قوات بنان أولوجوشيرى خبر دفع عن استقلالهم ضد الغزاة ولكن السهام والحرب وبعض السارق القديمة ما كانت تستطيع ربما صويلا « الصمود » أمام مدافع ومتراليورات صاحب الجلالة البريطانية . وقد سقط مدينته بنان . ولكن ذلك لم يكف الانجليز لأن قطع البرنز والكنوز طلت مخبوءة . عندئذ فر الرأي على تدمير المدينة . وقد رعم الانجليز أن الحريق التي التهمت كانت قضاء وقدرًا ولكن « مذكرات حراح مع حملة بنان التأديبية » التي نشرتها مجلة الجمعية الجغرافية بمانشستر تسلم بواقعين الأولى - أن اثنين من جمالي الحملة قد وضعا النار في عشة من عشش السكان

Tow carriers of the expedition set fire to a hut

ولثانيه أن المدينة كلها كانت طعمة للنيران في أقل من ساعة .

In less than an hour the whole place was strawn in ashes

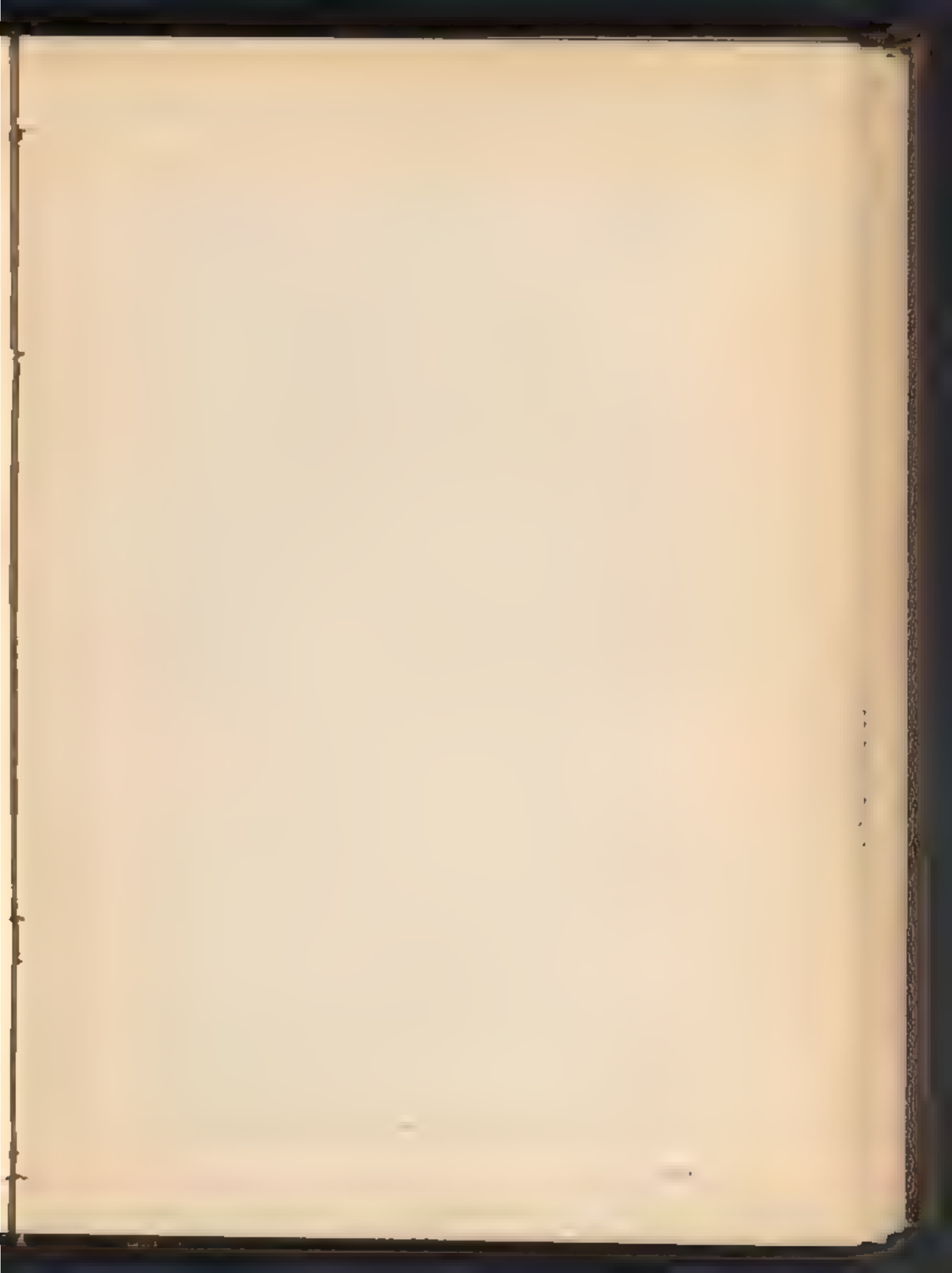
نما يدل على أن الحريق قد أصرمت نارها في وقت واحد في أماكن متعددة . وقد هلك مئات من السكان في هذا الحدث المريع . ثم شرع القوم في سلب ونهب البرور وأدوات الرينة المصوغة ، ولكنهم لم يعثروا على كنوز من الذهب المصمت ، عدا الكنوز الفنية . فعول الانجليز على

الانتقام وبعد اجراءات قضائية هائلة حلقوا الميث أوفيرامي وثقوه ،
وفي ٢٧ يولية سنة ١٨٩٧ شنقوا أولدجوشيرى . السط الذائد عن
مدينة بنان . وبذلك انتهت هذه الدولة التى عمرت من أربعة الى خمسة
قرون وذهبت معها مدينتها وفنها . ولا شك أن تدمير بنان محتل صفحة
خاصة فى تاريخ الجرائم التى ارتكبها الانجليز فى مستعمراتهم .

« تلك هى (المدينة) التى جلستها أوروبا للسود فى أفريقيا (١) » .
وقد فقد الكونغو اللجكى فى طرف ثلاثة وعشرين عاما مالا يقل
عن عشرين مليون رهط قضت عليهم الساسة الغاشمة التى جرى عليها
البلجيكيون ومليكم ليوبولد .

وبالجملة ان الأوربيين قد حاولوا محو السكان ومحو مدينتهم القديمة
القائمة ومحو المدينة الجديدة المدنة المصرية العربية التى كانت أسب
المدنيات الهم والى كانت رحمة ونعمة اذا قيس بمدنة الغرب التى
صارت تقمة .

(١) « غسق المدنية » ص ٢٤١ - ٢٤٢ .



الخاتمة

حدث « فوضى » في مصر في شكل ثورة سياسية في سنة ١٨٨١ .
وقد كان التدخل الانجليزي سببا في أن هذه الثورة السلمية في بدايتها
قد خرجت عن جادها وتحولت في سنة ١٨٨٢ إلى ثورة مسلحة استدرعت
بها إنجلترا لاحتلال مصر . وفي نفس السنة (١٨٨٢) حدثت فوضى في
سودان في شكل ثورة دسه . وقد استدرعت إنجلترا باحتلالها
مصر لتشجع هذه الفوضى على الانتعاش و بدوء حملة عشر عاما كاملة
نشر المؤس والموت والحراب في أرجاء السودان . ثم نصب إنجلترا
نفسها وصيه على مصر واسرع منها السودان وجمع مملكتها بعد أن
أرغمتها على اخلائها بالقوة .

حرب إنجلترا على سياسة الاضعاف والحطيم لمنظم نحو مصر
مدد ولاية محمد علي لعاهه معاهده ندره (١٨٤٠ - ١٨٤١) . وكانت
هذه المرحلة الأساسية الاولى . وكان افصح قباء السويس في سنة ١٨٦٩
بداية المرحلة الثانية . وقد كان تعيين بكر (١٨٧٠) ساء على ايضاء
ولى عهد إنجلترا ايدانا بقلع الاضطراب السياسي والاقتصادي في
أفريقيا الوسطى .

كتب هاري جونستون بمناسبة افتتاح قناة السويس في كتابه :
(بريطانيا عبر البحار ، أفريقيا) : « في سنة ١٨٧١ عبر القناه ألف بحرة
البحيرية ففتح على مصير مصر . وكان كالصبح في أعين جميع السياسة
المستعيرين في الامبراطورية البريطانية أنه اذا لم تمكن مصر من محافظة

على استقلالها كدولة ضعيفة محايدة وجب أن لاتقع تحت سيطرة دولة ما
تملك من القوة والنفوذ ما يكفي لتحدي بريطانيا العظمى واغلاق
قناة السويس (١) » .

وقد صاغ نفس الفكرة في أسلوب مختلف النورثبروك اد كتب
باعتباره رئيس البحر (الاميرالية) في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢
بعد ضرب الاسكندرية بالقنابل واحتلال مصر : « حتى ولو كانت الهند
منعصلة فانها محسرة أكثر من انجلترا بعد القضاء وتعطل حركة المرور فيها .
وانى لا تسلّم بان ريدده بواحرنا الج نوقف على القناة . فالامر بعكس
ذلك . لان حظ الكاب من وجهة النظر البحرية هو أفضل المخطوط . .
قلو كاب الهند مملكه منعصه اكان في مقدورها ان تفعل مصالحها
الحويه في سلم مصر / البنس من الخطر عليها ان تقوم في مصر دولة قوية
معاديه . وما لدى بحون دون ذلك / وهل هناك ما يعارض مع منطق
النظرية القائلة بأنه لو ترك عربي ورحا على شاكله وكاب لهم السيطرة
لقامت في مصر دولة اسلامية مهاجمة داب شأن أو أن دولة أوربية أخرى
كأب سدحل . كما يدحض . ولكن بدون أعراض الشريفه (كذا) وبفكره
احلال الشرو / لا شك أن مصالح انجلترا والهند معا تتطلب أن لاتتمكن
أمة أخرى من الهمنة على مصر (٢) » .

وبذلك كتب على مصر أن تظل منذ ابتداء القرن التاسع عشر ضعيفة
مستعصمة وأن لا تؤدي رسالة المدنية كاملة في آسيا أو في أفريقيا
من البحر الأبيض الى البحر الأحمر والمحيط الهندي .

وقد حاربت انجلترا محمد على وألبت عليه الدول وحرمته من ثمار
انصاراته وحاول طرده من مصر بواسطة الباب العالي وأوقعت اسماعيل

(١) Harry Johnston, Africa p. 342

(٢) Thomas George Earl of Northbrook. A memoir, By Bernard Mallet 1908
pp. 160-170.

في الارتباك المالي فلما رأته في سنة ١٨٧٩ يؤيد الحركة الوطنية الناشئة ويؤلف حكومة قوية لا تقاذ اللاد خلعتة ووضعت مكانه أميرا ضعيفا (توفيق) فيما ثار العرايون ونجحوا في تأسيس حكومة دستورية قوية ضربت الاسكندرية بقنابلها واحتلت البلاد وأرغمتها على التخلي عن السودان والملحقات لتضم بذلك أن لا تجد مصر في الداخل والخارج عناصر القوة والعزة والسلطان وأن تظل في حدودها الضيقة خاضعة لها .

وقد بلغ مصر أوج محنتها وضعفها بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٩٨ لأن إنجلترا أصبحت تهتم عليها وتمسك بمخنفها من طريق القناة ومن طريق النيل معا . وبدأ مستقبل مصر يضطرب بين هذين الطريقين المائتين .

تكلم سدني بل عن وحدة الوادي . قال : « لا يمكننا بعد اليوم اعتبار احتلالنا مصر كمبر لنا في طريق الهند فحسب . . ليست مصر في الواقع الا جزءا من مملكة النيل الواسعة . وهي في اتجاهها نحو الجنوب من الاسكندرية الى السويس لا يجد أقمها الا منابع النيل . ولاشك أنه مع الزمن سيصبح المصريون قادرين على حكم مصر . ولكن أشد الناس تفاؤلا ليس في وسعه أن يتنبأ عن الزمن الذي يصبحون بعده قادرين على حكم السودان . أما صيحة « السودان للسودانيين » فهي أدعى للسخرية .

وهالك أمر واضح كل الوضوح . وهو أن أراضي النيل تؤلف كلها بلدا واحدا . ولا يمكن تجزئة السيادة . فلا بد من يد واحدة قوية تسيطر على ذلك البلد جميعه .

ولتبرير « وضع اليد » هذا على وادي النيل كله (من أوغندة فالحبشة فالسودان) يقول الكاتب : « لنا مصلحتنا التجارية المباشرة في امتلاك وادي النيل ، كما ان مصر لا تزال في طريق الهند » .

ثم يذكر أخيرا واجبات إنجلترا كدولة متمدينة نحو شعوب النيل :

« من خمسين عاما مضت وضع أحد البحارة الانجليز الممتازين ^(١) بعد أن قام برحلة الى الخرطوم والأبيض كتابا عن هذه الرحلة عنوانه « جولة عبر الصحراء الوبة » قال فيه : « لقد رسمت يد الواحد القهار على الصحراء أنها ستكون خط الاتصال مع الأمم النائية . وهذه المهمة لم تنجز بعد . وسنكون الصحراء الطريق لنشر المدنية في أفريقيا ، ولكن لن تكون أمه شرفة ولن يكون دين محمد السبيل الى ذلك ، واننى أحد الذين يعتقدون ويؤمنون بأن الله قد خص انجلترا بهذه المهمة . ولا شك أن حكومه انجليزية وصائمه من الانجليز في وسعها القيام بهذا العمل . عندئذ تنشأ المدائن في أصوان والخرطوم وتتخذ منها المدينة الى داخل البلاد من أقصاها الى أقصاها » .

والواقع أن مصر الحديثة قامت بهذه المهمة خير قيام وببب المدائن وعمرتها ونشرب المدنية في أواسط القارة السوداء . وقد عكس مصر باعتبارها دولة شرقيه عربيه أفريقيه من بسط مدنية تلاءم مع أحوال هاتيك الشعوب وحاجاتها لا مدنية سطحه بل مدنية عمقه الغور تتغلغل في نفسية الشعب وفي لغته وفي دينه وفي تطوره .

وقد رأينا كيف شجعت المحترق الفوضى وفصلت السودان وبمالك السودان المنظره عن مصر فوقمت حركة النمو الطبيعي في هذه البلاد وأضعفت مصر في نفس الوقت ووضعت استقلالها في حدود ضيقة جغرافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا . فأيما كان الاستقلال أصح لراما عليها أن تحسب ألف حساب للخطر الانجليزي الذي يهددها من ناحية القناة ومن ناحية النيل ابتداء من منابعه أي من جميع النواحي وفي جميع المساطن التي يئلف منها القضاء الحيوى للنموذ المصرى المتجالس .

١. سر ولبام بيل بطل اللواء البحرى في حرب القرم .

ويمكن تقسيم تاريخ السودان الى أربعة عصور . يرجع الأول منها الى مصر الفرعونية وفيه تقدمت المدينة المصرية أعمال الفتح وتغلطت في داخل أفريقيا حتى البحيرات الاستوائية .

وفي العصر الثاني . وهو عصر التعلل العربي الاسلامي في شمال أفريقيا . وفي شمالها الشرقي . وفي السودان (بما فيه دارفور والماليت المحيطة بحره تشاد) . وقد كان للمدسة العربية أثر ثوري خصوصا في الشمال : في مصر من ناحية وفي الجزائر وتونس ومراكش حيث تدرج البربر في العرب كما اندرج الزنوج جنوبا (السودان) .

أما العصر الثالث . الذي هو في الواقع تسمه للثاني . فقد توسطهما زمن الحطاط وتدهور أعصه ظهور مصر الحديثة العربية في السودان وفي الشمال الشرقي لأفريقيا حيث كانت له نتائج سيئة وفي أثناء ذلك العصر (في السودان من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٢ وفي مديريه حط الاسواء لغاية سنة ١٨٩٨) ظهرت شخصيات سودانية قوية من أصل رنجي تعرت وتنقلت في مدارج الحصاره المصريه كآدم دشا اندثرون الذي كان القائد العام للقوات العسكرية في السودان وعمره وأخذت عملية اندماج العنصر الأسود في العنصر العربي بخطو من جديد حطوا واسعاً في أواسط أفريقيا . على أن النفوذ المصري الذي كان يوعى من الشمال ، من طريق النيل . نحو الجنوب والبحيرات قانجا ومؤسسا ومنظما كان يسايره في الوقت نفسه . من طريق الساحل شرقا . نفوذ التجار العرب الذين تغلغلوا في أوعدة والأوبورو وحوالي البحيرات وسبقوا مصر والأوربيين إليها .

وقد أحدثت مصر في بلاد السومال وهرر انقلابا ثوريا من ناحية المدنية لاشك فيه .

وينقسم العصر الرابع الى ثلاثة عهود الأول عهد الحكومة المختصة أو

حكومة لاوربين : بيكر وغردون في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣ و ١٨٧٤ - ١٨٧٦) وغردون في السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩) .
الى هذا العهد ترجع أسباب ومقدمات الثورة المهدية . والثاني
(١٨٨٢ - ١٨٩٨) وهو العهد الذي أرغمت فيه إنجلترا مصر على
التخلي عن السودان وجمع ملحقاته وتمكنت من فصم عرى الوحدة
الكبرى التي انتظمت البلاد الأفريقية وأخذت تنسج كل يوم على حساب
الطمحة والوثنية . وحدة البعة والثمارة الى همت في قلب أغدة
نفسها في أيام اميزا حين كانت اللغة العربية لغة جميع رؤساء الجيش
الرسمي وكان نفوذ مصر فيها نفوذ الدولة الحامة . وكان معظم سكان
الأوسورو يفهمون العربية وكان كابريرا ممكها نفسه بحسن التكلم بها .
وقد تمكنت إنجلترا في سنة ١٨٩٩ بعد اعاده الفصح وعمل اتفاقية
السودان من وضع قدمها في السودان . الذي أصبح من ذلك الوقت
(السودان الانجليزي المصري) وكانت تريد ضمه الى ممتلكاتها ولكنها
رأت من الافق لمصالحها مشاركة مصر في ادارته لأنها كانت بحاجة
في عصر الانتقال الى عساكر مصر وأموال مصر ونفوذ مصر الأدبي حتى
توصد سلطانها وتضرد به . ومتى نجحت بمصونة مصر في اصلاح
اقتصاداته . وتآليف حش من الوظيفين . واكتساب نفوذ محلي واسع
غمت على قطع آخر صلة تربط السودان بمصر . وهذا ما حدث في
سنة ١٩٢٤ على أثر مقتل السردار السيري ستاك في القاهرة .

وقد اسدعج انجلترا هذه الجريمة الفردية لطرد الجيش المصري
والموظفين المصريين من السودان . ومن ذلك الوقت كلما اضطرت
الظروف انجلترا الى تخفيف وطأتها على مصر حاولت أن تجد العوض في
تطبيق سياسة انفصال بين مصر والسودان أشد وطأة . والتاريخ
يعيد نفسه فانه بعد أكثر من نصف قرن عادت انجلترا الى السياسة التي
رسمها غردون بين سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٩ أي الى سياستها القذعة التي

كان ينفذها غردون و«عوانه» لأجرب وكانت ترمى الى استقلال السودان
الدى و تعيين موظفين انجيز ووطنين مكان المصريين (السودنة) وفصل
جنوب السودان عن شماله . والتحصير من شأن كل ما هو مصرى فى
أعين السودانيين حتى تتمكن من صدع هذه الوحدة الروحية السامية
التي تتألف منها ومن لوحدة الجغرافية لاساس الدى يرتكر عنه ذلك
الاتحاد الأزلى بين شعبي الوادى . وانه لمن الصعب التسليم بأن أمة آتية
من أقصى الشمال تدعى لنفسها الحق فى عديد شعب فى الحوب عرب
عنها فى وضعه الجغرافى وفى جنسه وثقافته وبيئته .

ومهما كان من الأمر فان سياسة ادماح الروح فى أفريقيا ست الساسة
السطحة التي جرى عنها المبشرون والمستعمرون الأورسون لم تأت ولن
تأتى بمس سائج الادماج العربى من حث الحصاره والتأثير بها . وهذه
حققة واضحة جلية .

وقد كان ادماح العرب أو المصريين للعصر لرنجى أو الاسود .
ذلك الادماج الذى يرمى الى تحديد الشخصية وحلها من جديد
وتحريرها فى شكل من الأشكال . لا اى افائها أو اسماعها . عمه
كثودا فى طريق المستعمرين . ولذلك فانها كانت السبب الحقيقى لأول
لحروب المحو والافاء لى آثارها الدول فى أفريقيا فى القرن التاسع
عشر ضد العرب تحت سار الاساسية ومحاربة الحاسة والخاسين .

وقد جرت أوروبا على سياسة التقسيم فى أفريقيا دون أن تحسب
أقل حساب لمصالح المدنية والعوامل الأدبية الرفيعة . وكانت لا تغنى
بالفكير الا فى مصالحها المادية والساسية . فكل فكرة اسائه وكل
مطمح عال كانت تحف مواريه أمام « المواد الأولية » ومستزمات
التفرد بالجاه والسلطان .

ولا ريب أنه على الرغم من المفاسات والخلافات لى تحدث بينها

كان ممثلو الدول في ظروف كثيرة يعلنون تضامن أوروبا في أفريقيا
للاحفاظ بهميتها فيها والقضاء على جميع الحركات الثورية « الضارة »
التي تهددها .

وما كات مصر والسودان لسنطعا الافلات من تطبق ذلك القانون
الصارم . وكان اتفاق سنة ١٩٠٤ مظهرا من مظاهر هذه السياسة . وغير
خاف ان اصل ذلك الاتفاق المناهضة الانجليزية الفرنسية التي بلغت
مآرمها في فشوده . وكات النسوة تتعلق عراكن ومصر (ومع مصر
مسألة النيل) وقد تقويض الدولتان تفوذهما على حساب الشعوب .
وما كات انجلترا بعد هذا الاتفاق تصبح مطلقة اليد في النيل حتى
تفرع لوصد مركزها في مصر والسودان فضربت الذلة والاستعباد
عليهما معا .

كتب والس ندح Wallis Budge في سنة ١٩٠٧ في مقدمة كتابه
« السودان المصري » يقول « والحق يقال ان السودان ليس في
استطاعتهم ان يحكموا انفسهم ولن يستطيعوا ذلك قبل اقبال .

» ان مهمة الادارة في مصر وفي السودان اللذين هما في الواقع
واحد الامر بلد واحد وأرض واحدة هي من الصعوبة بمكان الح .
كات انجلترا بالامس تنادى بوحدة البلدين التي لا انفصام لها
ولكنها اليوم . وقد اصحت مصر تحاول تحقيق حريتها الكاملة لا تريد
الاعراف هذه الوحدة الأثرية بل تعمل على جعل السودان مستقلا عن
مصر لا عن انجلترا . والمنطق يقضى ان تعكس الآية لتحقيق استقلال
السودان بالنسبة لانجلترا لا بالنسبة لمصر وأن تحترم هذه الوحدة التي
صارت مصر والسودان من جرائها « بلدا واحدا وأرضا واحدة » .
وعلى أية حال . هذا « الاستقلال » هو غاية هذه السياسة العاتية
التي عرفت كيف تجدد في المهدية العنصر الأول من عناصر التفرقة
والفصل بين شعبي الوادي .

القسم الأول

المراجع المريسة المطبوعة

- اسماعيل سرهك باشا - حقائق الاحبار عن دول البحار (الجزء
الثاني) .
- نعوم بك شقير - تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته في
ثلاثة أجزاء . القاهرة سنة ١٩٠٣
- سلاطين باشا - السيف والنار في السودان . تعريب جريدة البلاغ .
هذه الترجمة غير مأخوذة عن الاصل الألماني أو الترجمة الفرنسية الصحيحة
ولكن عن الترجمة الانجليزية التي قام بها ونجت باشا وهي ترجمة محرفة
مشوهة ناقصة وفيها زيادات معرضة لا توحد في الأصل .
- محمود طلعت - عرائف الرمان في فتح السودان . الكتاب الأول
سنة ١٣١٤ هـ .
- ابراهيم باشا فوري - كتاب السودان بين يدي غردون وكشر .
جزءان . سنة ١٣١٩ هـ .
- ميفائيل شاروسم بك - لكاي في تاريخ مصر القديم والحديث
(الجزء الرابع) . سنة ١٩٠٠ م . سنة ١٣١٨ هـ .
- داود بركات - السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية
(١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م) .
- عبد الرحمن الرافعي بك - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال
(تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢) . القاهرة
(١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م)

مكى شيبكه — السودان فى قرن (١٨١٩ — ١٩١٩) . القاهرة
(١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م) .

دكتور محمد فؤاد شكرى — الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠ —
١٨٨٥) . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

(الشيخ محمود القبانى) — السودان المصرى والانكليز .
مجموعه رسائل زاهد ادباء العصر . مطبعة الأهرام بالاسكندرية
سنة ١٨٩٦ .

امين سامى باشا — تقويم النيل .
(وفد السودان) — مآسى الانجليز فى السودان . القاهرة
(١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م) .

(محروى) — صحانا مصر فى السودان وحفايا السياسة الانجليزية .
الاسكندرية (١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) .

سمو الأمير عمر طوسن — تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية
من فتحها الى ضاعها . فى ثلاثة أجزاء . الاسكندرية (١٣٥٥ هـ —
١٩٣٧ م) .

— المسألة السودانية (١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م) .
— بطولة الأورطة السودانية فى حرب المكسيك (١٣٥٢ هـ —
١٩٣٣ م) .

الرأسد محمد أحمد الحامى — فى شان الله أو تاريخ السودان كما يرويه
أهله . دار الفكر العربى . سنة ١٩٤٧ .

BIBLIOGRAPHIE

I.—SOURCES

Notre principale source a été, outre les mémoires inédits de Nubar Pacha qui sont du plus haut intérêt, les Archives du Palais d'Abdine au Caire et les Archives du Foreign Office à Londres, que nous avons consultées jusqu'à 1890 environ. À part la correspondance consulaire il y a dans le "Public Record Office" un fonds très important relatif aux Revendications de souveraineté dans la mer Rouge, l'Afrique, et l'Arabie (*claims to sovereignty in the Red Sea, Africa and Arabia*). C'est une mine de documents de premier ordre.

II.—BIBLIOGRAPHIES

La première bibliographie sur l'Égypte et le Soudan, a été publiée à Londres, en 1886-1887 par le prince Ibrahim Hilmy: *The Literature of Egypt and the Sudan, from the earliest times to the year 1885 inclusive*; 2 vols.

Cette remarquable bibliographie est établie d'une façon scientifique et fourmille de renseignements et de détails précis.

Sur le Soudan en général il faut consulter une récente et importante bibliographie. *A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the Earliest Times to 1937*, par R. L. Hill (Sudan civil Service) London, 1939.

Pour Harrar et l'Afrique Orientale, le savant Autrichien Philipp Paulitschke a publié une bibliographie à la fin de son étude *Die Geographische Erforschung der Adal-Länder und Harar's in Ost-Afrika* (Leipzig, 1888).

Il existe aussi une bibliographie très intéressante, quoique ancienne, sur l'Afrique: *Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie*. Catalogue méthodique; par Jean Gay, 1875.

Les bibliographies publiées par les Italiens sur l'Éthiopie, à une date relativement récente, ne sont pas sans rapports directs avec les questions du Soudan, de la mer Rouge, de Harrar et de l'Afrique orientale et présentent, par conséquent, un grand intérêt pour les savants et chercheurs.

III.—PUBLICATIONS OFFICELLES

Les livres bleus et les livres jaunes ainsi que tous les rapports, mémoires et documents officiels publiés sur l'Égypte, le Soudan, et l'Afrique en général, complètent le travail des archives et la documentation "officielle".

IV.—OUVRAGES DIVERS

On trouve dans les bibliographies sus mentionnées la liste complète des ouvrages relatifs au Soudan et à l'Égypte dans ses rapports avec le Soudan. Nous donnons ici seulement la liste des principaux ouvrages consultés par l'auteur.

A.—Le Soudan :

— **Bernard Allen**, GORDON AND THE SUDAN. London, 1931.

Lytton Strachey, EMINENT VICTORIANS (Chapitre intitulé THE END OF GENERAL GORDON). C'est moins une étude qu'un portrait, très vivant du reste. Une traduction sommaire sous le titre: LA FIN TRAGIQUE DE GORDON PACHA, a paru dans la REVUE DES DEUX MONDES, du 15 avril et du 1er mai 1931.

Victor Cherbuliez, PROFILS ETRANGERS (Charles Gordon).

Miss Gordon, LETTRES OF GENERAL C.G. GORDON TO HIS SISTER London, 1888.

Slatin Pacha, FEUER UND SCHWERT IM SUDAN (1879-1895), Leipzig, Brockhaus, 1896.

Une traduction française de cette étude a paru au Caire, en 1898: G. Bettex, Slatin Pacha, FER ET FEU au Soudan.

Achille Bièvre, UN GRAND AVENTURIER DU XIX^e SIECLE; GORDON PACHA. PARIS, 1907.

Blunt (W.—S.), GORDON AT KHARTOUM. 1911.

Bougler (Dimetrius), LIFE OF GORDON, 1896.

Gordon (sir H.—W.), EVENTS IN THE LIFE OF CHARLES GEORGE GORDON, 1886.

Wilkins (W.—H.), THE ROMANCE OF ISABEL, LADY BURTON.

- Jules Cocheris**, SITUATION INTERNATIONALE DE L'EGYPTE ET DU SOUDAN. PARIS, 1903.
- P. Crabitès**, GORDON, THE SUDAN AND SLAVERY. LONDON 1931.
- De Malortie**, HERE, AND EVERYWHERE.
- W. Loring**, A CONFEDERATE SOLDIER IN EGYPT, 1884.
- Dye**, MOSLEM EGYPT AND CHRISTIAN ABYSSINIA. THE PERSONAL PAPERS OF LORD RENDEL, 1931.
- Prof. Adolf Hasenclever**, AGYPTENS IM 19 JAHRHUNDERT (1798-1914).
- Dr. Abbate Pacha**, LE SOUDAN SOUS LE RÈGNE DU KHE DIVE ISMAIL Notes d'une décade historique (1868-1878). Le Caire, 1905, 47 pages.
- Harry Johnson**, BRITAIN ACROSS THE SEAS, AFRICA, London, 1911.
- Sidney Peel**, THE BINDING OF THE NILE AND THE NEW SUDAN, London, 1904.
- Wallis Budge**, THE EGYPTIAN SUDAN; 2 vols London, 1904.
- SUDAN NOTES AND RECORDS**. Cette revue remarquable qui paraît actuellement à Khartoum est à consulter depuis sa première année 1918
- M. Sabry**, L'EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMED-ALY ET LA QUESTION D ORIENT (1811-1849). PARIS, chez chez P. Geuthner. 1930.
- M. Sabry**, L'EMPIRE EGYPTIEN SOUS ISMAIL ET L'INGERENCE ANGLO-FRANÇAISE (1863 — 1879.) Paris, 1933.
- Prokesch-Osten**, GESCHICHTE DES ABFALLS DER GRIECHEN, 5 vols Les trois derniers sont des recueils de documents en français. Wien, 1867.
- ALFRED LYALL**, THE LIFE OF THE MARQUIS OF DUFFERIN AND AVA, 2 vols. London, 1905
- J. Scott Keltie**, THE PARTITION OF AFRICA. London, 1893.
- Major F.R. Wingate**, MAHDIISM AND THE EGYPTIAN SUDAN. London, 1891.

7
Sir Harold MacMichael, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN.
London, 1934.

Arnold Toynbee, SURVEY OF INTERNATIONAL AFFAIRS,
1925. Vol. I (THE ISLAMIC WORLD SINCE THE PEACE
SETTLEMENT).

A.B. Wylde, '83 TO '87 IN THE SOUDAN, 2 vols. London, 1888.

Richard Buchta, DER SUDAN UNTER AGYPTISCHER
HERRSCHAFT. 1883-1885. Leipzig, 1888.

Josef Ohrwalder, AUFSTAND UND REICH DES MAHDI IM
SUDAN. Innsbruck, 1892.

Sir Harry Johnston, THE NILE QUEST. A Record of Explora-
tion of the Nile and its Basin. London, 1903.

Lord Newton, LORD LANSDOWNE. A Biography. London
1929.

Sir Samuel Baker, THE NILE TRIBUTARIES OF ABYS-
SINIA. London, 1871.

H. C. Jackson, OSMAN DIGNA. London, 1926.

Emile Banning, LE PARTAGE POLITIQUE DE L'AFRIQUE,
les transactions internationales les plus recentes (1885-1888)
Bruxelles, 1888.

Van Ortoy, CONVENTIONS INTERNATIONALES,
définissant les Limites actuelles des Possessions, Protectorats et
Sphères d'influence en AFRIQUE. Paris, 1898.

Sir Edward Hertslet, THE MAP OF AFRICA BY TREATY, 3
vols. London, 1896.

E.—L. Bonnefon. L'AFRIQUE POLITIQUE EN 1900. Paris,
1900.

Jean Darcy, CENT ANNEES DE RIVALITES COLONIALES.
L'AFRIQUE. Paris, 1904.

Dr. Gustav Nachtigal. SAHARA UND SUDAN, 2 vols. Berlin,
1881.

Karl W. Kumm, THE SUDAN, LONDON, 1907.

A. Billot, LA FRANCE ET L'ITALIE (1881-1899), 2 vols.
Paris, 1905.

- Gaston Dujarric**, L'ETAT MAHDISTE DU SOUDAN Paris, 1901.
- Lieut-Colonel Count Gleichen**, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN 2 vols. London, 1905.
- A. Silva White**, LE DEVELOPPEMENT DE L'AFRIQUE. (Traduit de l'anglais). Bruxelles, 1894.
- F.L. James**, THE WILD TRIBES OF THE SOUDAN. London, 1884.
- Henry Russell**, THE RUIN OF THE SOUDAN. London, 1892.
- H. Pensa**, L'EGYPTE ET LE SOUDAN EGYPTIEN Paris, 1895.
- H. Déhérain**, LE SOUDAN EGYPTIEN SOUS MEHEMET ALI. Paris, 1898.
- George Foucart**, UN VOYAGE D'ETUDES AU SOUDAN ANGLO-EGYPTIEN (1913-1914.) Marseille, 1916
- A. Egmont Hake**, JOURNAL DU GENERAL GORDON, Siege de Khartoum (Traduit de l'anglais par M.A.B avec notes et documents inédits). Paris, 1886.
- THE JOURNALS OF MAJOR-GEN C. G. GORDON AT KHARTOUM** Introduction and notes by Egmont Hake London, 1885
- Borelli Bey**, LA CHUTE DE KHARTOUM. 1893.
- H. C. Jackson**, BLACK IVORY. or The Story of El Zubeir Pasha, Slaver and Sultan As Told By HIMSELF. Translated. Khartoum 1913.
- Arturo Labriola** LE CREPUSCULE DE LA CIVILISATION. L'Occident et les Peuples de couleur.
- George Padmore** HOW BRITAIN RULES AFRICA London 1936.
- ED MOREL**. THE BLACK MANS' BURDEN. 1920.
- Ludwig Bauer**. Leopold Le Mai-Aimé. Paris. 1935.
- Joseph Cooper**. UN COTINENT PERDU OU L'ESCLAVAGE EL LA TRAITE EN AFRIQUE (1875) Traduit de l'anglais per Laboulaye. Paris, 1876.

André Gide. VOYAGE AU CONGO PARIS, 1927

LE RETOUR DU TCHAD. Paris. 1928.

G. Douin. HISTOIRE DU RÈGNE DU KHEDIVE ISMAIL
TOME III L'EMPIRE AFRICAÏN. (Trois parties parues
1863-1876). Le Caire. 1941

Dr. Rouire. L'AFRIQUE AUX EUROPÉENS. Paris 1907.

B.—L'Equatoria et l'Afrique Centrale :

Hill (George Birbeck), COLONEL GORDON IN CENTRAL
AFRICA (1874-1879). London, 1884.

Douglas Murray and Silva White, SIR SAMUEL BAKER
A. MEMOIR. 1895.

omolo Gessi, SETTE ANNI NEL SUDAN EGIZIANO.
1890—SEVEN YEARS IN THE SUDAN Londres, 1892.

Schweitzer (Georg), EMIN PASCHA, BERLIN, 1898.

EMIN PASHA, His Life and work compiled from his journals,
letters, scientific notes and from official documents. With
an introduction by R. W. Felkin. Londres, 1898, 2 vol.

Schweinfurth (Dr. G.) et Ratzel (Dr. F.), EMIN PASCHA. Eine
Sammlung von Reisebriefen und Berichten aus den ehem.
Aegyptischen Aequatorial Provinzen und deren Grenzalen-
dern. Herausgegeben. Leipzig, 1888.

Casati (Gaetano), DIECI ANNI IN EQUATORIA E RITORNO
CON EMIN PACHA. Milan, 2 vol.

—DIX ANNEES EN EQUATORIA, LE RETOUR D'EMIN
PACHA ET L'EXPÉDITION STANLEY. Traduit de l'italien
par Louis de Hessen. Paris, 1892.

Sir Samuel Baker, ISMAILIA. Londres, 1875, 2 vol.

—ISMAILIA. Recit d'une expédition dans l'Afrique cen-
trale pour l'abolition de la traite des noirs. Traduit par H.
Vattemare. Paris, 1875.

Colonel Chaillé-Long, L'EGYPTE ET SES PROVINCES
PERDUES 1892.

Colonel Chaillé-Long, MY LIFE IN FOUR CONTINENTS,
2 vol. 1912.

Junker (Dr. W.), REISEN IN AFRIKA (1875-1886); 3 vols. 1889. **TRAVELS IN AFRICA**, traduction anglaise par H Keane, 3 vols. London, 1890.

Vita Hassan, DIE WAHRHEIT UBER EMIN PASCHA. Berlin, 1893.

Schweinfurth (Dr. George), AU COEUR DE L'AFRIQUE (1868-1871) Traduction française, par Mme H. Loreau. Paris, 2 vol. L'édition anglaise de cet ouvrage, **IN THE HEART OF AFRICA**, parut en 1873, l'édition allemande, **IM HERZEN VON AFRIKA** en 1874.

Harry Johnston, THE UGANDA PROTECTORATE, 2 vols. London 1902.

Captain F.D. Lugard. THE RISE OF OUR EAST AFRICAN EMPIRE 2 vols. London, 1893.

Major Austin, WITH MACDONALD IN UGANDA. London, 1903.

The Rev, John Roscoe, THE SOUL OF CENTRAL AFRICA. London, 1922.

Charles Michel, VERS FACHODA 1900. On trouve dans cet ouvrage des détails fort intéressants sur la Harrar et l'Éthiopie en 1897-1899.

Sir Gerald Portal, THE BRITISH MISSION TO UGANDA IN 1893. London, 1894.

Rev. C.T. Wilson and R.W. Felkin, UGANDA AND THE EGYPTIAN SOUDAN, 2 vols. London, 1882.

MACKAY OF UGANDA. (Mackay, Pioneer Missionary of the Church Missionary Society in Uganda). By His Sister. London 1890.

A. J. Mounteney-Jephson, EMIN PASHA AND THE REBELLION AT THE EQUATOR. A story of nine months' experiences in the Last of the Soudan Provinces. London, 1890.

F. Alexis, LA BARBARIE AFRICAINE ET LES MISSIONS CATHOLIQUES DANS L'AFRIQUE EQUATORIALE (Contenant particulièrement les actes des martyrs nègres de l'Ouganda). Paris, 1981.

A.-J. Wauters, Stanley au secours d'Emin Pacha, Paris, 1890.

C.—La mer Rouge, la Somalie et le Harrar :

Cap. Sir Richard Burton, FIRST FOOTSTEPS IN EAST AFRICA OR AN EXPLORATION OF HARRAR, Londres, 1856, 2 vol.

Ralf. E. Drake-Brockman, BRITISH SOMALILAND. Londres 1912.

Gabriel Ferrand. LES COMALIS, Paris 1913.

F. L. James. THE UNKNOWN HORN OF AFRICA AN EXPLORATION FROM BERBERAH TO LEOPOLD RIVER Londres. 1888.

R.—P. Azais et R. Chambard. CINQ ANNEES DE RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES EN ETHIOPIE, PROVINCE, DE HARAR ET ETHIOPIE MERIDIONALE. Paris, Geuthner 1931, 2vol.

Gabriel Ferrand. NOTES SUR LA SITUATION POLITIQUE COMMERCIALE ET RELIGIEUSE DU PACHALIK DE HARAR. Bulletin de la Société de Géographie de l'Est, 1886, Nancy.

Antonio Cecchi. SPEDIZIONE ITALIANA NELL'AFRICA EQUATORIALE DE ZEILA ALLE FRONTIERE DEL CAFFA, 3 vol. Rome 1886-87.

Ing. L. Robecchi Bricchetti. NELL'HARRAR Milan 1896

E. Littmann, HARAR (raconte dans l'Encyclopédie de l'Islam)

Mohamed Moukhtar. NOTES SUR LE PAYS DE HARRAR. Bulletin de la Société Khediviale de Géographie du Caire, 1876.

P. Paulitschke. LE HARRAR SOUS L'ADMINISTRATION EGYPTIENNE (1875-1885). Bulletin de la Société Khediviale de Géographie du Caire, série No. 10, Mars 1887.

P. Paulitschke, HARAR, FORSCHUNGSREISE NACH DEN SOMAL UND GALLA LAENDERN Ost-Afrikas, Leipzig 1888.

Jules Borelli. ETHIOPIE MERIDIONALE, Paris 1890

Bonola Bey. L'EGYPTE ET LA GEOGRAPHIE, Le Caire 1889.

RED SEA AND GULF ADEN PILOT, 1971, (Instructions Nautiques).

D. D. Sacconi IL GOVERNO EGIZIANO E LE TRIBU GALLA E SOMALI, L'ESPLORATORE, Anno 8, 1883, p. 169.

Mgr. Taurin Cahagne. LES MISSIONS CATHOLIQUES, No. 621, 29 avril 1881. No. 630, 1^{er} juillet 1881.

Autour d'Harar, No. 677, 26 Mai 1882, No. 776, 2 Juin; No 679, 9 juin.

Gabriel Simon, VOYAGE EN ABYSSINIE ET CHEZ LES GALLAS RAIAS, Paris, 1885.

Dr. Philipp Paulitschke, DIE GEOGRAPHISCHE ERFORSCHUNG DER ADAL-LANDER UND HARAR'S IN OST-AFRIKA, Leipzig, 1888.

Dr. Philipp Paulitschke, ETHNOGRAPHIE NORDOST-AFRIKAS, Die Materielle culture der Danakil, Galla und Somal,

Gustavo Chiesi, LA COLONIZZAZIONE EUROPEA NELL'EST AFRICA (Italia-Inghilterra-Germania) Roma, 1909.

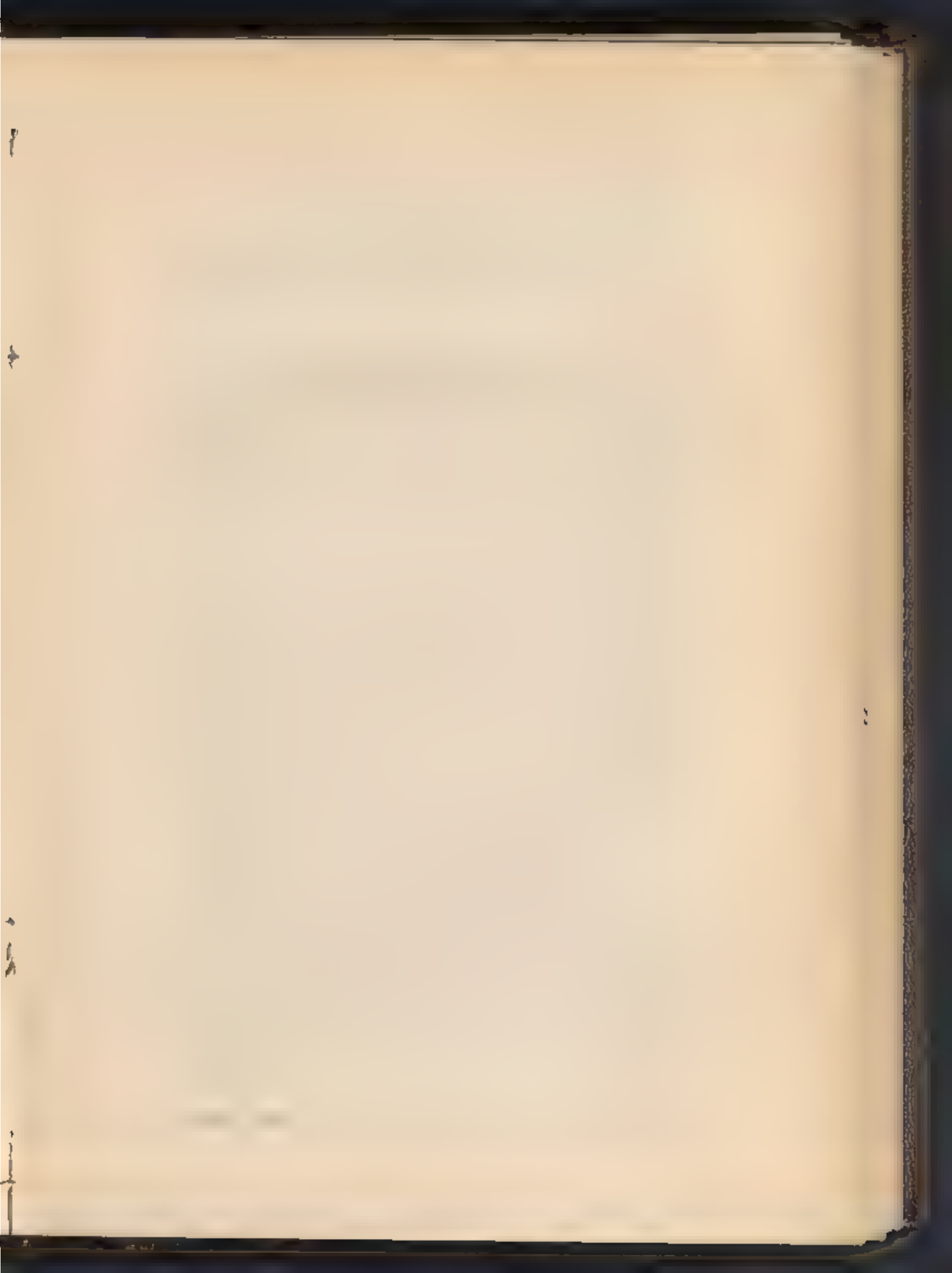
X. Rochet, d'Héricourt, VOYAGE SUR LA COTE ORIENTALE DE LA MER ROUGE, DANS LE PAYS D'ADEL ET LE ROYAUME DE CHOA, 2 vols. Paris 1841.

M. Guillaumin, DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, publiés par ordre du Gouvernement, en 3 vols. (2 vols. de texte et un Atlas in-folio) Paris, 1856.

Dr. Carl Peters, DIE DEUTSCHE EMIN-PASCHA-EXPEDITION. Leipzig, 1891

Dr. F. Stuhlmann, MIT EMIN PASCHA INS HERZ VON AFRIKA, Berlin, 1894.

Mustafa Amer. SOME UNPUBLISHED EGYPTIAN, MAPS OF HARRAR, BULLETIN DE LA SOCIETE ROYALE DE GEOGRAPHIE D'EGYPTE. Avril 1937.



فهرس الكتاب

مقدمة ص ٣

الكتاب الاول

السودان من محمد على الى سعيد

الفصل الاول ١ - السودان ومصر القديمة (٧) ٢٠ - السودان ومصر
في السياسة الدولية (٨) *

الفصل الثاني (السودان من ١٨٢١ الى ١٨٦١) ص ١٠ الميرالاي
عثمان بك * محو بك * خورشيد باشا * أحمد باشا أبو ودان * أحمد باشا
المنكلي * عبد اللطيف باشا * علي باشا شركس * أراكيل نوبار *

الكتاب الثاني

الفصل الثالث (السودان من ١٨٦٣ الى ١٨٧٧) ص ١٧ ، موسى باشا
حمدي * جعفر باشا مطهر * اسماعيل باشا أيوب *

الفصل الرابع (امتداد السودان الى البحر الأحمر والمحيط الهندي *
السومال وحرر (١٨٧٠ - ١٨٨٠) ص ٢٤ * بربرة (٣٦) حرر (٤٠) *

الفصل الخامس (امتداد السودان صوب منابع النيل) * صامويل بيكر
في أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣) ص ٥٠

الفصل السادس (عردون في أفريقيا الوسطى ١٨٧٤ - ١٨٧٦) ص ٥٨

الفصل السابع (عردون في السودان ١٨٧٧ - ١٨٧٩) ص ٦٥

الكتاب الثالث

السودان من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٨٨٥

الفصل الثامن (الثورة المهدية لعابيه اخلاء السودان) ص ٨٧

١ - أسباب الثورة (٨٨) ٢٠ - عبد القادر حلمي في السودان (٩٠) *
٣ - ميكس في كردفان (٩٨) *

الفصل التاسع (عردون في الخرطوم) ص ١٠٥

الفصل العاشر (المدينة المصرية) ص ١٢٨

الكتاب الرابع
ممالك السودان المطرفة
(١٨٨١ - ١٨٩٨)

مهمه (١٣٩)

- الفصل الحادى عشر (ساحل السومال وهرر) ص ١٤٢
 الفصل الثانى عشر (ساحل البحر الاحمر) ص ١٦٢
 الفصل الثالث عشر (المديرية الاسوانه او مديريات حط الاستواء)
 ص ١٧٠

- ١ - احوال المديرية من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨ (١٧٣)
 ٢ - حملة اسبائلى واحوره فى مديريه حط الاستواء (١٩٥)
 ٣ - تكوين نوعنده الجديدة (١٨٩٠ - ١٨٩٨) ص ٢٠٨

الكتاب الخامس

- الفصل الرابع عشر (السودان ١٨٨٥ - ١٨٩٨) ص ٢٣١
 الفصل الخامس عشر (حدود الامراطوريه المصريه) ص ٢٢٩
 ١ - اريتريا (٢٤٣) ٢٠ - السومال الفرنسى (٢٤٥) ٣٠ - السومال
 الانجليزى (٢٤٦) ٤٠ - السومال الايطالى (٢٤٦) ٥٠ - افريقيا الشرقية
 الالمانيه (٢٤٨) ٦٠ - مديريات حط الاستواء وحدود الكونغو السحيكى
 الفرنسى (٢٥٠) ٧٠ - حدود السودان الشرقيه والحبيشه (٢٥٦) ملاحظات
 عامه (٢٥٨) ٠

- الفصل السادس عشر (المدينتان فى افريقيا) ص ٢٦١
 الخاتمة ص ٢٧١
 المراجع ص ٢٧٩

كتب المؤلف الأدبية

١ - أدب وتاريخ - صدر في سنة ١٩٢٧ وقد طبع بمطبعة دار الكتب المصرية (بعت طبعه) ، ويقع في ٣٤٠ صفحة . وهو مقسم الى كتب اكتب الاول محمود سامي البارودي . الكتاب الثاني اسماعيل باشا صبرى . الكتاب الثالث تاريخ الحركة الاستعمارية في ايطاليا . الكتاب الرابع الفصول (مختارات من مقالات المؤلف التي ظهرت في الصحف من سنة ١٩١٢ لغاية سنة ١٩٢٧) .

وقد نشرت في مقدمه الكتاب الاول الخاص بمحمود سامي البارودي رسالة من أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك هذا نصها

سيدي الأستاذ صبرى :

أحب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت توالينا بالطرف من أدبك ، وبواقفنا بالتحف من كتبك ، وحفل الله لهذه الآثار وأمانها من نتائج افرائج في مصر بماء وبركة ، في رأس مال الأمة . من حصاره مسبقه ، ودوله مؤمله ، ومكان بين الممالك وممر له . فما رأس أموال الأمم الا وسائل الأدب انسلم . ودرائج العلم الصحيح . وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم صحيح فهو علم كل أوان . سألني عن رأي في رسالتك الجليلة وان كان له من القيمة ما رعيت فهو رأي العواص في الحياة ، والنسائي في الرحابة والناظر في معصية الحياة ، برحمه كتبها حسن وأحسن ما فيها المرحوم . وحببه كلها روعة وأروع ما فيها المحلى ، مكتوب كريم اجمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق في البرامكة من جاء يطويه ، ويعيم بدونه . وولد يرديه ، ونور يطفئه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . حاوره بحلول الشهور الطوال يشد بسياسا طيب . ونسجم داريا حذار . فاذا الخار كريم ، واذا الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرص شعره على جلسائه ، ولا رأته الا سقسقا من الحياء كلما عرص شعره عليه ، وهكذا كان رحمه الله اذا جرى ذكر الحوادث العراصة يوارى بالاطراق حتى يمسك المنكس . سألته مرة صبرى باشا هل له مذكرات عن النور ؟ فقال لا ، قال وما منعك ؟ قال علمي بأن العصب في طماعي وحرفي من أن يملكني عند بعض المذكرات فيسمى العلم على الرجال . فقال حامد بك خلوصي وكان ممن صم المجلس ، صدقت ، ألسنت الفائل (ويعصب في شروى نقيير فتشتد) فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يفضيني مثل حديث

التوراه فلتحصى في عمره . وعلى ذكر التوراه أقول للأسف انه كان له غنى
عن الإشارة الى مواقف المرحوم البارودي في الحوادث العراقية فان ذلك من
مسايقه الساريج ما فيه . ومن سابق الساريج لم تأمن أن يصل الأعقاب ،
ويعرف مواضع التبعات من الرقاب .

٢ يولية سنة ١٩٢٣

المخلص
شوقي

٢ - الشوامخ . الجزء الأول : امرؤ القيس . طبع بمطبعة دار اسكتب
المصرية سنة ١٩٤٤

٣ - الجزء الثاني : الشعر الجاهل خصائصه واعلامه . طبع بمطبعة دار
الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

٤ - الجزء الثالث : ذو الرمة . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٩٤٦

٥ - الجزء الرابع : أبو عبادة البختري . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٩٤٦

وثن الجزء الواحد من الأجزاء الثلاثة الاول ٣٠ قرشا . وثن الجزء
الرابع ٤٠ قرشا .

واما بختريء هنا بنشر رسالة من شاعر القطرين خليل مطران بك الى
المؤلف بمناسبة صدور الجزء الاول

حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد صبرى بك .

بعد التحية والاكرام -

الداء الذى ساورنى فى هذه الايام عاقبى عن أداء واجب الشكر لما
احضسى به من النجعة العالة واعنى بها النسخة من كتابك « الشوامخ » .
وما زلت الى هذا اليوم غير قادر على بذل أى مجهود فكرى يعتمد به غير
أسى نوحه احمالى موحز ارى ان الشعر كلما اتصل بالقطرة كال من امن
الاصيل ، وكلما بعد عنها أفضى الى التمثل ، وهو فن آخر أى فن الصنعة ،
وشتان بين الاصل والنقل وبين الابداء والمحاكاة .

ألم تر الى شعر هوميروس كيف بقى عند الفرنجة بمنزلة الينبوع
الصافى الذى استقى منه جميع أدنائهم على اختلاف مواطنهم ومداهمهم
وأهوائهم ومزاجاتهم .

ولقد تكلف الفرنجة ما تكلفوا ليفهموا هوميروس وليقتبسوا من لفته
اعدمه المجهول ما افسسوا ونحن لم نكلف ولا نكلف شيئا لفهم أمرا

القيس وأضرابه من أيام الجاهلية فيغيبون عنا ونحكم عليهم لا لهم .
 ولولا أنك حدثت بهما معاني امرئ القيس ولولا المذكور طه حسين
 بك وما جهد ليشرح به آيات الشعر الجاهلي الصادق السب ولولا آخر
 كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد في حميل نثيه لقيب كنوز الشعر
 الجاهلي بعده عما تأخذ منها عن الأحاسيس ما تأخذ ولا نفعه أن لها عبدا أصلا
 كريما جديرا بأن نعتي به .

بعد كتابه ما تقدم على علته أوجه اليك ثنائي المحالض عليك بأبيات
 نجرت على قلبي حين فرغت من مطالعة كتابك وهي :

بعد ألف وبعد بضع مئات	أنصفت عبقرية الضليل
نضى الستر عن جلال امرئ	القيس بسفر من البيان جليل
رد صبرى الواحه فتجلت	من خفاء آيات فن جميل
وإذا الحسن ند عنه حديث	طلب الحسن في العتيق الأصيل
أمة العن حمله كيف والاء	لام تطوى ما بين جيل فجيل
انما الرأي ما أبنت وهل أب	بلغ مما أقمته من دليل

المخلص

٤٤/٤/١٨

خليل مطران

كتب المؤلف التاريخية

وضع المؤلف عدة كتب بالعربية أهمها الكتابان اللذان أشار إليهما في المقدمة وكلاهما يقع في حوالي ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير . وقد نفدت طبعهما : الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية ، والامبراطورية المصرية في عهد اسماعيل والدخل الانجليزي - الفرنسي .

(آراء النقاد والعلماء في الكتاب الأول)

(عصر محمد علي)

(١) مجلة ريفي دي فرانس عدد أول يوليه سنة ١٩٣٠ . هذا الكتاب الضخم سجل أهم حقه في تاريخ المسألة الشرقية ، تلك الحقبة التي يمكن فيها محمد علي بمساعدة ابنه ابراهيم من النهوض بمصر . وقد كان الخط الذي عمدى به في بحه هو تحليل شخصيه محمد علي فتمكن بهذه الطريقة من تحديد ذلك التاريخ تحديدا شاملا مع انه كان من قبل موضوع دراسات طويلة وكان القموض والتعقيد يكتفاه من كل جانب .

(٢) - مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن . المجلد السادس القسم الاول . سنة ١٩٣٠ . بقلم هنري دودويل : لا شك أن المؤلف قد اضطر الى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير . وقد اسع بعدد لا يحصى من الوثائق والمستندات المستخرجه من مصادر متنوعة جدا . وقد يكثر من ذكرها باسماء ولكن من . ولا حدال في أن أهمها وأعلاها قيمة الرسائل المسدلة بين الباشا الكبير وابنه ابراهيم ومتبذاته من رسائل وزارة الخارجية النمساوية فهذه كلها جديدة للجميع . وهذا هو السبب الذي من أجله يلقي ذلك الكتاب ضوءا كبيرا جديدا على حياة محمد علي السياسية .

(٣) - جريدة البورص اجيسان بالقاهرة . مقال بقلم المؤرخ الفرنسي حيمار بتاريخ أول يوليه سنة ١٩٣٠ : « سيطالع القراء بشغف الموازنة التي حطتها يد صناع بين محمد علي وابراهيم » موازنة خرج فيها الدكتور صبرى على الاساطير الموروثة واحترأ أحيانا على تعضيل الابن الجسور على الأب المفرط في المراقبة والحذر .

ولا بد من دراسة طويلة جدا لتحليل كتاب الدكتور صبرى تحليليا كاملا . . . وحسبنا أن نقول أن الكتاب الذى نحن بصدده عمل صرح حار اصطر المؤلف الى الاطلاع على مجموعته هائلة من أوراق المحفوظات الخطية ومن المستندات المطبوعة . وأهم من ذلك انه بحث حدد بكل معانى الكلمة لانه أتى لنا ، فى مسائل كان يعتقد البعض انها أصبحت مستعمدة ، بنظرات بكر لامة .

(٤) - مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية . فصل كنه المؤرخ الكبير شارل رو السمر القديم ورئيس شركة قناة السويس وأحد أعوان هانوتو (عدد يناير - فبراير سنة ١٩٣١) :

« أن أول مره لصبرى فى الطريقة التى صاغ بها موضوعه المحدد بالدقة فى العنوان . وقد بلغت الأرمه الطويلة ، التى لرممت المسألة الشرقية ، أوجها فى سنة ١٨٤٠ . وكانت أهميتها السياسية ترجع فعلا الى تطورات الامبراطورية التى أسسها محمد على وكانت مصر تواتها قبل أن ترحل الى حياته الشخصية . ولا شئت أن تكون هذه الامبراطورية ، العربية فى جوهرها ، هو الذى حرك المسألة الشرقية فى أعنف أشكالها وساق الى حلها حلا - ان لم يكن كاملا فقد كان جزئيا بسعة - ولكن أوروبا فى ذلك الوقت باستثناء فرنسا ، لم تكن راضية عنه .

« كان رد الفعل عند الدول الأوروبية اراء ذلك الحادث دى الأهمية الدولية الكبرى ، وكان يعطى أوصال الامبراطورية المصرية وبالأحرى تدميرها هما المظهر المحزن لتلك الأزمة التى بلغت نهايتها فى سنة ١٨٤١ .

« ذلك هو الضوء الذى تبدو فيه الحوادث فى كتاب صبرى . الذى يصف موضوع الراح لا ناعساره خلافا حول أطماع تابع وحقوق متبوع فحسب بل باعتباره قبل كل شئ خلافا حول نظريه سياسيه حديده ونظام قديم على عيبه الزمن .

« وتنحى مره أخرى لصبرى فى نوع مستنداته وكثرتها . ولما كانت مصادر المحفوظات الرسمية للمدة من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤١ لم يصب للجمهور الا من عهد قريب نسبيا فان كتاب صبرى فى مقدمة الكتب التى تمكن فيها صاحبها من معارضة الوثائق التى أودعت فيها حكومات كثيرة فكرها السياسيه . وهذه المستندات ، التى لم يسبق نشر معظمها ، قد ساعدته على الاتيان بحديد فى موضوعه على الرغم من كثره تعرض السائحين له من قبل وهذه أولى فصائل هذا الكتاب فى نظر المشتغلين بتاريخ الشرق .

« وليس فى مقدورنا فى حيز هذا النقد المحدود متابعة المؤلف فى

تحليله السياسات المختلفة التي تصادمت في غضون هذه الأربعين سنة .
ولكن مما لا ريب فيه أن هذا التحليل قد صحح أوضاعا وآراء كثيرة :
محمد علي نفسه واجتهدا وفراسا . هذه « الأشخاص » الثلاثة التي لعبت
دورا رئيسيا في الحوادث التاريخية الطويلة قد عرف صبرى كيف يكشف
عن سياساتها واتجاهاتها المحتلطة المتعددة الوجوه وهي كثيرا ما تختلف عن
الأوصاف التي صيغت في قائلها وصفتها المتعاليه المطبوعة بطابع السيادة
والتي لا ترى الأمور إلا من ناحية واحدة .

« لقد قام محمد علي اجتهادا وتغلب اليها ووضع آماله في مساعدتها
لنحقيق استقلاله . وجعله انجلترا يعلو بذلك الوهم ويعقد أنها لا تمنع
في أن تحقق استقلاله بمصر ونسب سلطانه على الشام . أما فرنسا فإنها
لم تطلق له العنان وجعله يحس « الشكيمه » وحقق من علوانه دون أن
يمنعها ذلك من تأييده بكل قوة في اللحظة الحاسمة » .

« وقد أظهر صبرى تطورات ونقبات عوامل هذا الصراع « اندراما طبقى »
الذى وضع على السطاح مثير الشرق من وسيم أوروبا ومصالح دولها
الحبوبة » .

« وطبقى في أزمة طويلة كهذه ذات نتائج لا يحصى من يكر في مقدور
سياسه أي رجل وبالتالي سياسه أنه حكومة أن تطل في حظه واحدة ، في
وجدتها التي حمدها فيها تعبر هوادة الصور الاصطلاحية في التاريخ
السطحي » . وقد كان استمرار الهدف لكل دولة يحول دون الاستمرار المطلق
في الوسائل كما يصورها خطأ المراقبون الذين لم يؤثروا من العلم إلا
قليلا .

« وقد برز وجه محمد علي في كتاب صبرى بعلامه تكلم الأسطورة
التي حرت في أثناء حياته نفسها حول معامراته الهوحاء ومواقفه العبيدة .
ويؤلف اليوناني التي استعملها مؤرخه شخصية سياسية قد لا ترد في
المخاطرة الكبرى - وهو ما كانت بعض به ظروفه وحطته في سبيل الوصول
إلى غايته - ولكنه مع ذلك كان يقدر كل خطوة بحظوها ولا يلتقي بكن
أوراقه . في حروبه في سبيل السلطان وفي حروبه ضده كان يتنظر دائما
بعض نقطة صوب أوروبا - وكانت أوروبا نصب عينيه كلما تحركت أطماعه
ولكن هذه الأطماع كان فيها من الروبه والتبصر ما لا يبدو لأول وهلة » .

(٥) - مجلة الأدب المستشرق (التي تصدر في لينز) . سنة ١٩٣١
عدد ٧ . بقلم هازنكلير الأستاذ بجامعة جيتنجن :
« دراسة كبيرة رائعة مؤسسة على مواد محفوظات واسعة جدا » . ومن

الممكن طبعاً بعد فقط تفصيله ولكن عما أن المسألة لا تحرج عن نقط تفصيليه
فاني اتحامي العرض لها اراء عمل كهذا قد أحكم بناؤه الى أقصى
حد .

«٦» - **ديقي بلييه** - (باريس) - أول أغسطس سنة ١٩٣١ . بقلم
بول فايل :

« كتب صبرى تاريخ حياة محمد علي ودرس في حدودها جميع المسألة
الشرقية من سنة ١٨٢٠ لغاية سنة ١٨٤١ وخصوصاً الأزمة الأوروبية من
سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤١ . فما أحمل هذا الكتاب بالوقائع المستفاه من
مصادر المحفوظات الخطيه وما أعظم أمانة المؤلف العلميه في التعليق والشرح
وما أحمل رصانه أسلوبه . وهو ما سيسسه القارىء نفسه حين يطالع ذلك
الكتاب الكثير الذى يرسم صورته كلها حياه للعاهدين الناشا وابنه ابراهيم .
مؤسس امراطوريه سوريه رائده ومؤسس دولة مصريه كفل لها النقاء .
« وقد رفع الادب الكبير صبرى لذكراهما هذا العمل الصالح الذى هو
خير ما تطيب له نفساهما . »

«٧» - **مجلة الجمعية الآسيوية** (لندره) - سابر سنة ١٩٣٢ بقلم
الكولونيل الجود

« قد يكون هذا الكتاب طويلاً جداً للقارىء المتوسط ولكن العلماء
سيدكرون لمؤلف حله في البحث في محفوظات القاهرة وباريس ولندره
وفينا . وحسب الدكتور صبرى انه لم يحف أى شيء هام على بصره الباقى .
والكتاب فى مجموعه قد كتب بروح نزيهة جادة عادلة . »

(٨) - **مجلة بوليبليون** الباريسية - عدد مايو سنة ١٩٣١ . بقلم
صبرى جيران

« عند قرون عدة لم تلعب مصر فى تاريخها دوراً هاماً كالدور الذى
لعبته فى عصر محمد علي خصوصاً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٠ وهى
الحقبة الحاسمة فى تاريخ الأزمة الشرقية . »

« كاتب هذه الحقبة الهامه من التاريخ الحديث عامصة فى بعض نواحيها
ان لم تكن مجهولة فكشف عنها المؤلف مثال ذلك المفاوضات الطويلة التى
حرب بين شارل العاشر ومحمد علي لعمل حملة مشتركة ضد داي المراتر
قبل حملة سنة ١٨٣٠ ، وكذلك الأغراض والمراعى الحقيقية التى كانت
تمطوى عليها معاهدة أونكيار - اسكيليسى المعقودة بين روسيا وتركيا فى
سنة ١٨٣٣

« وليس في مقدورنا أن نوفى حقها من الثناء تلك الدقة في الحكم على
السياسة الأوروبية آراء الحكوميين النابذة والمتبوعة ، المتنازعتين على
السيادة في الشرق . »

« ان الوثائق الكثيرة جدا المستخرجة من المحفوظات الكبرى مترجمة أو
مفعولة في صلب الكتاب (لا في الهامش كما يفعل الكثيرون) تكشف لنا
عن اصمحلل الباب العالي وبهذه محمد علي وما فيها من عريضة ودكا ،
ومناصبه الحسنة له العداء الطويل مملته في شخص بالمرسوم وبوسسى ،
مستعينة في صراعها بالدول الكبرى ، ما خلا فرائسها التي لم تستطع
- بفصل تمسكها بضره (خير الامور الوسط) التي كانت عريضة على لويس
فيليب - الا ان تكفل لوالى مصر الحكومة الوراثة في وادى النيل . »

(٩) مجلة المستعمرات الإيطالية التي كانت تصدرها وزارة المستعمرات

لايطاية . عند نوفمبر سنة ١٩٣٠

« ان هذا الكتاب عمل جميل في تاريخ المسألة الشرقية الشهيرة التي
طال بحثها ونكر دراسه صبرى سرر فيها طابع خاص لأسباب عديدة
أولها - نجاحه في الكشف عن نواطن وانحازات سياسات انحازا وفراسا
وروسيا والباب اعلى آراء مصر كشفا لا هوادة فيه بفصل الوثائق التي
استخرجها من ورايات الخارجية المختلفة . . . ومنها الرسائل التي مكنته من
تحليل شخصية المعاهدين واطهارها في ضوء جديد . . . الخ الخ . . »

« بالجملة فان هذا الكتاب في مجموعه جديد في أسلوبه وأسانيده

وطرائقه ،

(١٠) مجلة لاروس الشهرى . عند يناير سنة ١٩٣١ . بقلم روبير

دفورك

« هذا كتاب عظيم جدا وقد درس فيه صبرى مؤسس الامبراطورية
المصرية : وهو تاريخ عهد أولا ولكنه أيضا تاريخ سياسى (دبلوماسي)
لمرحلة من أهم مراحل القرن التاسع عشر والمسألة من كبريات مسائل
التاريخ التي لا تزال نحس آثارها الى اليوم . »

(١١) وكسب جورج دوان في كتابه (حرب الشام الأولى) . « الذى ظهر

بالفرنسية في سنة ١٩٣١ ،

« . . على ان التاريخ العام لذلك العصر قد كتبته الدكتور صبرى
(الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية) بأسلوب يدل
على نبوغ بطيب لنا أن نتعنى له اجلالا . »

(آراء النقاد والعلماء في الكتاب الثاني)

(عصر اسماعيل)

(١) - مجلة العالم الاسلامي • الانجليزية • عدد ٢٥ يولييه سنة ١٩٣٤ .
« أظهر المؤلف في هذا الكتاب ما اصف به من دأب وبسط في العلم
في كتابه الأول الخاص بالسارح محمد علي وهويشمي فدعاني اقامة ذلك الصرح
الرفيع في تاريخ مصر السياسي »

(٢) مجلة مدرسة العلوم الشرقية • بحامه لندن عدد ١٠ فبراير
سنة ١٩٣٤ :

« ان كتاب الدكتور صبرى عمل بنى على البحث وانه مدعم بالوثائق
وانه - سوى فيما يتعلق بمسائل السياسة الاحسنه - قائم على الانصاف
والاتزان »

(٣) - مجلة العلوم الدينية • التي تصدرها جامعة استراسبورج •
سنة ١٩٣٤ :

بعدما اشار صاحب المقال الى عصرى عباس واسماعيل والى اصراع
الجبار الذى دار بينهما حول « المصالح » بين فرنسا وانجلترا من ناحية
وبين هاتين الدولتين ومصر من ناحية اخرى والى ان دور المحفوظات قد
انضحت على مصارعها للمؤلف قال « وبذلك امكنه الكشف عن حقائق
كثيرة كانت مجهولة ... ومهما كان من الامر فان هذا الكتاب فيم بلا شك
وهو اول تاريخ لمصر فى ذلك العهد »

(٤) مجلة الألفستراسيون الفرنسية • عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣ :
بعدما اشار الناقد الى الصراع الاستعماري بين دول أوروبا فى أفريقيا
والى اساع مصر فى وادى النيل والسودان والصومال وهرر واعنة وغيرها
وعلافة مصر بالمشاكل الافريقية وما اكسب هذه العلافة من عناصر متشابهة
لا حصر لها مالية وسياسية واقتصادية قال « ان المؤلف قد فصل لنا هذه
الحوادث ونجح الحماة فى ذلك السارح القريب مما بقوة الاسلوب وبوحى
اقصى حدود الدقة فى أسانيده »

(٥) - مجلة بوليبليون الفرنسية • سنة ١٩٣٣ :

بعدما اشار الناقد الى عصر اسماعيل وقصائحه المالية التى أحدثت فيها
بتصريف شركه قناة السويس قال « ان الصفحات الخاصة بعردون ليست
أقل الصفحات اصاعا فى ذلك الكتاب المسمى روعة من أى النواحي بطرت
اليه ... »

« ان هذا الكتاب ليس أقل من سائفه وهو يصمى على صاحبه أكبر
العلماء »

(٦) - مجلة الجمعية الجغرافية بباريس • عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ :

« ان صبرى العالم المصرى قد أخذ على عاتقه كتابة تاريخ مصر من محمد على الى اليوم ••• وان هذا الكتاب الذى هو عمل ضخيم مدعم بالمستندات الكثيره من وضع مؤرخ مصرى يصح لنا فى تاريخ مصر المرتبط بتاريخ أوروبا سبيلا جديدة ، لم تطرق من قبل ، عظيمه الشأن »

(٧) مجلة الشهر (ليوم) • عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٤

« ان هذا الكتاب العظم الذى وضعه الأستاذ العلامة صبرى يثبت لنا ان العضائع المالية لم يخل منها بلد ولا زمان ••• وقد أظهر صبرى بقوة ان فرنسا فى ذلك العصر لم تكن أسلم طوبه من انجلترا وقد برر المؤلف رد الفعل الذى حدث فى مصر وقتئذ صد الدول الأوربيه التى كان أكبر همها التعرير بمصر وسببها ونهبها •

« ولا ريب ان هذا الكتاب عظيم الشأن من كل النواحي •

(٨) مجلة الدراسات التاريخية بباريس • عدد يوليه سنة ١٩٣٤ :

« هذا كتاب رائع جدا مدعم بمستندات وصينة معظمها لم يسبق نشره • وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والسودان الأوربي فى أفريقيا وهو ليس تاريخا سياسيا كما يصنع المؤلف فحسب بل تاريخا اقتصاديا واستعماريًا يحدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لا نعرفه حق المعرفة • وقد ظهرت شخصيته عرودون العاصه فى حلاء رائع وبات مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية •

(٩) مجلة أفريقيا الفرنسية • عدد فبراير سنة ١٩٣٥ :

« ان الوثائق التى أتى بها المؤلف تظهر فى صورة غير مشرفة الوسائل التى لحا لها دلسس المتعاجل على اسراز المال من الحديوى اسماعيل • وقد بسط المؤلف المراحل السياسية المختلفة بقوة بعاذة وبات ملامح جديدة فى شخصية عرودون القامضة •

(١٠) مجلة الآداب المنشرفة التى تصدر فى ليرج • بقلم الأستاذ

هازنكلير بجامعة حيتنجتن • عدد ٥ من سنة ١٩٣٥

« ان هذا الكتاب الثانى ليس أقل روعة وشأنا من الاول وانه مثله تماما فى نوحى الدقة فى البحث وفى براعة العرض والساء وفى تنوع فصوله ومباحثه •

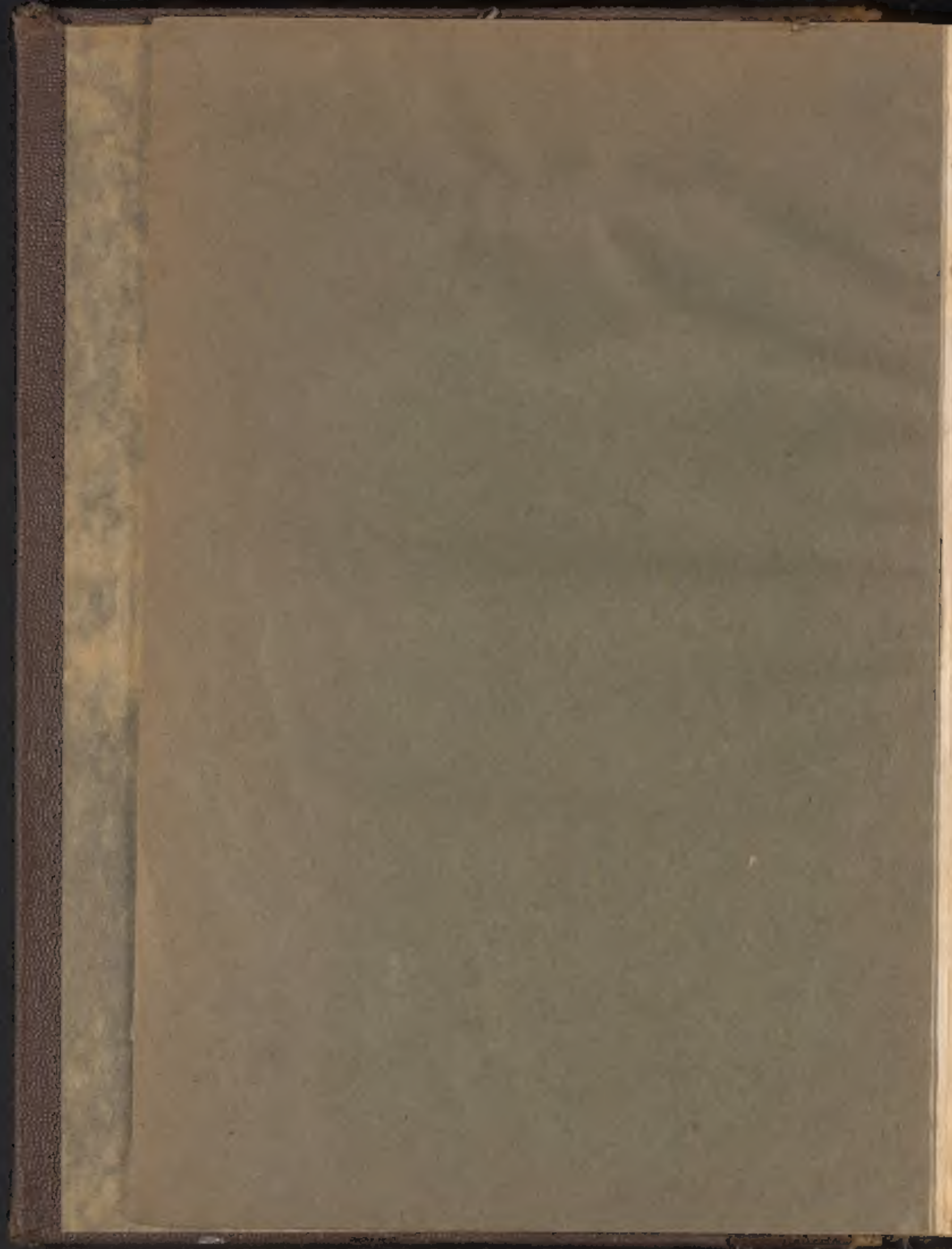
(١١) المجلة الأمريكية التاريخية • بقلم هوسكتر الأستاذ بجامعة تفتس :

« ان الكتاب فى مجموعه قد كتب بدقة واحكام وبطريقة علمية رائعة منزعه عن كل مأخذ • وفى الكتاب وجهات نظر جديدة لها شأنها وحسبه أنه يعطى صو» حديدا على مرحلة هامة من تاريخ التدخل الأوربي فى أفريقيا •

تحت الطبع

في السياسة والادب والاجتماع - سيشمل هذا الكتاب على اهم
المقالات والابحاث التي نشرها المؤلف في عشرين عاما من سنة ١٩٢٧ لغاية
سنة ١٩٤٨ . وسيزيد عليها فصولا قديمة لم ينشر في كتاب (ادب
وتاريخ) وفصولا جديدة لم تنشر مطلقا .







1 0 0 0 0 0 8 4 6 4 2

1976

MAR

DT
108.1
S3x
1948

MAR 11 1997

